المكزون

من الكنوز المخبأة

المكزون السنجاري

بين

الإمارة والشعر والتصوف والفلسفة

دراسة في أربعة أجزاء

الجزء الثالث

الطبعة الأولى ١٩٨٨

تأليف

حامد حسن

للمؤلف

١ ـ المنشور

١ ـ ثورة العاطفة شعر ٤ اجزاء
٢ ـ عبق: شعر
٣ ـ اضاميم الاصيل: شعر
٤ ـ المهوى السحيق: تمثيلية شعر
٥ ـ افراح الريف: اوبريت شعر
٦ ـ الريف الثائر: أوبريت شعر
٧ ـ المكزون السنجاري ج١ـ٢
٨ ـ صالح العلي ثائراً وشاعراً
٩ ـ في سبيل الحقيقة والتاريخ
١٠ ـ المجموعة الكاملة المجلد الأول
١١ ـ الشعر بنية وتشريحاً
١٢ ـ المكزون السنجاري ج٣

٢ ـ المخطوط

١ ـ اغاريد: شعر للأطفال
٢ ـ رواد عبقر: نقد
٣ ـ المكزون السنجاري ج٤
٤ ـ محاكمة التاريخ العربي
٥ ـ الخنساء: تمثيلية
٦ ـ المتنبي: ماله وماعليه
٧ ـ المعري: ماله وما عليه
٨ ـ ديوان العرب
٩ ـ المجموعة الكاملة ٢ـ٣
١٠ ـ نساء عربيات
١١ ـ الجمالية في الشعر العربي
١٢ ـ خواطر: احاديث اذاعية
١٣ ـ كرز وجوع: شعر

المكزون السنجاري

قدم له

١ ـ الاستاذ عبد المعين الملوحي
٢ ـ الدكتور محمد حاج حسين
٣ ـ الدكتور عمر موسى باشا

حقوق الطبع والإقتباس محفوظة للمؤلف

مطبعة عكرمة ـ دمشق بحصة
هاتف ٢١٣٤٨٩ ص.ب ١١٨٨١
عدد الطباعة ٢٠٠٠

١ ـ حامد حسن في كتابه
المكزون السنجاري
بقلم الاستاذ عبد المعين الملوحي

اكسير العشق الالهي

أن يتحول قائد عسكري مظفر خاض المعارك والحروب انتصاراً لأهله وعشيرته، وانتصر مراراً، وهزم مرة أو مرتين.. أن يتحول هذا القائد المنتصر الى داعية كبير للوفاق بين المذاهب، والى مبشّر بالانسانية ووحدة الشعوب، والى صوفي يفتح قلبه للبشر جميعاً ويقول:(١)

أمـي الشريـعـة والمـقـيـم لها أبي ... وبـنـو بنيهـا كلهـم اخـواني!
أأعـق والـدتي، وأنـكـر والـدي ... والى الـعـداة أفـرّ من اعـواني؟
وأفـرّ من انسي الى وحش الـفـلا ... ان كنـتُ ذاك فلسـت بالانـسـان

أقول: ان يتحول هذا المقاتل الى صوفي كبير القلب امر عجيب.

ان اكسير الصوفية، اكسير العشق الالهي هو الذي حول هذا القلب المحدود القاسي الى قلب رحيم كبير.

هذا ماعرضه لنا الاستاذ الشاعر حامد حسن في جزأيه الأول والثاني من كتابه الكبير «المكزون السنجاري» ويتابع عرضه في الجزء الثالث الذي هو بين أيدينا الآن، وسيتابع عرضه في الجزء الرابع من دراسته الذي ارجو له الصحة وطول الحياة ليستطيع متابعة جهده الرائع.

(١) المكزون السنجاري الجزء الأول ص ١٥٦

ان المكزون السنجاري في ابياته الثلاثة التي سردناها وفي ابيات أخر كثيرة يذكرنا الى حدّ بعيد بقول ابن عربي شيخ المتصوفة:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان، وديرٌ لرهبانِ
وبيت لأوثان، وكعبة طائفٍ وألواح توراةٍ ومصحف قرآنِ
أدين بدين الحب أنّى توجّهت ركائبه، فالحب ديني وايماني

هذه الصوفية التي تجعل الحب دينها هي التي تقرب بين الأديان والمذاهب والتي نؤيد هذا الجانب الانساني منها على أقل تقدير.

هذه الصوفية المتعبدة في محراب الله هي التي حوّلت ذلك القائد العسكري الى شاعر نساني يبشر بوحدة المذاهب، ويدعو الى الالفة بين البشر، وماأحوجنا في هذا الزمن لعصيب الى هذا الاكسير.

نهج المؤلف في الكتاب

يعرض المؤلف في مقدمة الجزء الأول من كتابه منهجه في البحث فيقول:

قارئي.

«انني ـ في هذا الكتاب ـ لاأتعصب لرأي، أو نظرية، او مذهب، ولكنني استعرض لآراء والمذاهب والنظريات.

استعرضها استعراضاً، متلمساً خصائصها ومميزاتها. مقارناً بينها وبين نظائرها أشباهها، لتظهر الفوارق، وتتضح نقاط التلاقي والابتعاد، وتتبين مواطن المقاربة المشابهة.

وعلى هذا فمنهجي في هذا البحث هو «منهج «الاشباه والنظائر» للدلالة على مدى تأثير والتأثر».

«وانني أطوف بك في رياض الفكر الانساني، ومجاهل العقل الفلسفي، وعالم الروح الصوفي»(١)

ويقول في موضع آخر من هذا الجزء:

قلت في منهجية البحث: انني أعرضها (هذه الآراء والنظريات) عرضاً تاريخياً، وأقارن بينها مقارنة علمية منطقية، ثم أدع الحكم للقارىء ليقرر بدوره أين تكمن الحقيقة، واين تعشش الخرافة.

ليس للقارىء ان يطالبني بالأحكام القاطعة النهائية، فذلك ماأعتبره خروجاً عن منهجي الذي قيدت نفسي به، والذي يرتكز على عقد المقارنات و «المحايدة» لأن الرأي الشخصي مهما كان منصفاً ومجرداً من أثر «الأنا» فهو عرضة للنقد والتجريح.

لقد حاولت جاهداً ان أجانب كل هذا، وابتعد ماستطعت عنه، وان أراقب نفسي مراقبة تامّة متيقظة خوف جنوحها الى «الحزبية اللاشعورية»(١)

مدى تقيد المؤلف بمنهجه

يتقيد المؤلف تقيداً تاماً بمنهجه الذي وضعه لنفسه في الجزأين الأول والثاني، ومايزال يحافظ على هذا المنهج في الجزء الثالث الذي بين أيدينا، ومن المؤكد أنه سيستمر في منهجه هذا في الجزء الرابع الذي ننتظره.

ولكن هذا التقيد يتخذ مع ذلك وجهين اثنين:

١ ـ الوجه الأول وجه القبول به والرضا عنه وذلك مثلاً:

أ ـ عندما يستعرض المؤلف المذاهب الفلسفية، المذهب المادي ـ المذهب العلمي ـ ـ المذهب الروحي ـ استعراضاً صادقاً أميناً ثم يترك لك حرية الاختيار بين هذه المذاهب الثلاثة.

(١) الجزء الاول ص ٦

(١) مقدمة الجزء الاول ص ٢١

ب ـ حين يستعرض لك تاريخ الاحاديث النبوية، وماطرأ عليها من دخول أحاديث موضوعة ومفتراة ومكذوبة نتيجة لنزوات الأفراد وتعصب المذاهب، وحتى للفخر والمباهاة بين الاقاليم والشعوب، والمدُن، ثم يترك لك الحكم على مدى صحة كثير من هذه الاحاديث.

ج ـ حين يتحدث عن الصوفية وآرائها ومعتقداتها ودعائمها الروحية والغيبية ثم يدع لك تقدير هذه الآراء والمعتقدات.

د ـ حين يدرس المكزون السنجاري وشعره وتاريخه وتأثره بالشعر العربي في جاهليته وعباسيته، وصوفيته، ويشرح كل ذلك معتمداً على شعره في ديوانه، ثم يخلي لك حقك في اتخاذ موقفك من هذا الشعر وهذه الآراء.

٢ ـ الوجه الثاني لهذا التقيد الشديد، يخرجك من الشعور بالرضا والقبول، ويدفعك الى شيء من الاستغراب، وتتمنى عنده ان يخرج المؤلف من تزمته في عرض الوقائع والمقدمات للوصول الى بعض النتائج الواضحة المبنية على تلك الوقائع الواضحة.

ولأضرب على ذلك مثلاً:

في الجزء الثالث يضع المؤلف الفصول الآتية:

آ ـ الفصل الأول: الانسان والاله واعتبر ان الفكر الانساني مر بثلاث مراحل:

١ ـ مرحلة ماقبل التاريخ

٢ ـ مرحلة التاريخ المدون

٣ ـ مرحلة العصور الحديثة

واستعرض النظريات الدينية والعلمية حول عمر الأرض، وعمر الانسان، ونشأة الكون والحياة.

ب ـ الفصل الثاني: القواسم المشتركة بين الاديان. واستعرض مرحلتين:

١ ـ مرحلة التعدد.

٢ ـ مرحلة التوحيد.

وفي هذا الفصل يطرح امامك نظريات سفر التكوين في التوراة، وعند السومريين ثم البابليين والكنعانيين والهنود. ويحسب في دقة عمر الانسان في الكتب الدينية فلا يتجاوز عشرات الآلاف بينما يمتد عمر الانسان عند العلماء الى مئات الملايين من السنين، او عشراتها على أقل تقدير.

٣ ـ وفي الفصل الثالث يخطو بك خطوة أكثر خطراً فهو يعالج مسألة الطوفان كما وردت في الأديان، وكما وردت في بابل القديمة، وفي سومر ويتساءل في هذا الفصل أسئلة محرجة حقاً.

ولكن المؤلف يؤثر رغم كل هذه العروض والوقائع والمقدمات ان يتجنب الوصول الى النتائج تقيداً بمنهجه الذي وضعه لنفسه، ويريد منك ان تصل انت الى هذه النتائج بعد اطلاعك على تلك الوقائع والمقدمات.

ولقد سمحت لنفسي وقد هزّني هذا «الحياد» ان أصل الى نتيجة واحدة تكاد تكون بديهة من بدائه الفكر والعلم وهي:

ان كل الامم والشعوب والأديان أخذ بعضها من بعض، واقتبس واحدها من الآخر، فاقتربت في المصادر، وتشعبت في النهايات، وان من الخير لها وقد عرفت مصادرها الأولى أن تغض النظر عن كثير من الفروق التي وصلت اليها في نهاياتها لتعود الى الينابيع الأولى. ثم لتبني عالماً متجانساً لاتصل به الفروق الى اعلان الحروب بين الامم والشعوب، والى العدوان بين الاديان والمذاهب. فالحضارة الانسانية واحدة، وهي بالتالي تدعو الى الوحدة بين الناس، والالفة بين الشعوب بغض النظر عن الوانها ولغاتها، واديانها ومعتقداتها.

ان انسان العصر الحاضر في اعتداده بالقنابل الذرية بين يديه، مدين لذلك الانسان البدائي الذي كان يقبع في الكهوف، ويتسلح بالعصا أو الحجارة. . والفرق بينهما فرق في الزمن والعرض لافرق في الجوهر. . . وماقلناه عن انسان العصر الحديث بسلاحه نقوله عنه في أفكاره ومعتقداته.

هذه هي النتيجة التي ابحثُ لنفسي الوصول اليها بعد قراءة الفصول الثلاثة

السابقة، وهذه هي النتيجة التي آثر المؤلف ان يترك للقارىء الوصول اليها بنفسه، لانه حرص حرصاً على منهجه الأول، ثم بالغ في الحرص على هذا المنهج.

واذا كان المؤلف قد حاز اعجابنا بتقيده في منهجه فنرجو أن يسمح لنا بالثورة على هذا المنهج مرةً واحدة بعد أن ضقنا به الى حدٍ بعيد، وله بعد ذلك علينا ان نستغفر ونتوب.

ولكن لماذا ندعي اننا نحن ثرنا على تقيد المؤلف بمنهجه، ووصلنا الى هذه النتائج؟؟ ولانردّ للمؤلف حقه، فنقرر ان المؤلف نفسه ضاق بمنهجه ذات مرة فأوحى الينا ايحاءً بهذه النتائج عندما قال في اختصار مفيد، وايجاز شديد:

«الحقيقة واحدة، ومطلقه، ولا تتعدد، ولاتتقيد، واطلاقها يرتفع بها عن الحصر، ووحدانيتها تمتنع بها عن المشاركة، وطلابها يشتركون في الايمان بوحدانيتها»[1]

ويقول بعد ذلك بسطرين اثنين في وضوح وجلاء:

(ليست الحقيقة محصورة، أو مقيدة في زمان او مكان، ولا مقتصرة على أمةٍ دون أخرى، ولا على قوم دون اقوام، ولا على جيل وقبيل دون جيل آخر وقبيل[1]

ويقول بعد ذلك بسطرين:

(لاجديد تحت الشمس، هذا!! ماقاله حكماء الصين القدماء. واذن فلا يجوز- والحالة هكذا ان ندل، أو نغالي بما نؤمن ونعتقد[2]

ألسنا نرى في هذه الفقرات الثلاث نوعاً من الخروج عن عرض الوقائع الى الوصول الى النتائج؟؟ ولابدّ للمصدور ان ينفث!!

جرأة المؤلف

تتبدى جرأة المؤلف في مظهرين اثنين:

(١) مخطوطة الجزء الثالث ص ٣٧

(١)و (٢) مخطوطة الجزء الثالث ص ٣٧

أولاً: في نشر الكتاب.
ثانياً: في ابحاث الكتاب.

ولقد لقي المؤلف من الفريقين: الفريق الذي يعارض نشر الكتاب والفريق الذي يعارض مافي الكتاب من ابحاث ودراسة.

أقول: لقد لقي من الفريقين عنتاً شديداً، ولكنه نشر الكتاب وزاد مافيه من دراسات وابحاث، واصدر الجزءين الاول والثاني وهاهو يصدر الجزء الثالث، ونرجو ان يصدر الجزء الرابع عن قريب.

اما الفريق الأول فقالوا له:

لماذا خرقت الجدار؟ وهدمت الاسوار؟ واخرجتنا من ظلام الليل الى ضوء النهار؟ فأين التقيه؟؟(١)

ويرد الاستاذ حامد حسن على هذا الفريق رداً موضوعياً حاسمًا فيقول:

اما الذين يخافون الظهور والصراحة والوضوح ويؤثرون القبوع في الظلام، ويرون في التخفي والاعتصام بالتقية ملاذاً لهم، وستراً لضعفهم وامراضهم فنقول لهم ماقاله السيد المسيح: ليس لأحد ان يوقد سراجاً ويغطيه باناء، أو يضعه تحت سرير، بل يضعه على المنارة لينظر الداخلون النور، لأنه ليس خفياً لايظهر، ولا مكتوماً لايعلم ويعلن، فانظروا كيف تسمعون، لأن من له سيعطي، ومن ليس له فالذي يظنه له يؤخذ منه(٢)

ويعالج المؤلف بعد ذلك موضوع التقية، وانها اصبحت بعد زوال اسبابها السياسية جبناً متوارثاً، وخوفاً تاريخياً لم يبق له أي مبّرر، ويسهب في هذا الموضوع اسهاباً لاتغني عنه الفقرات التي نقتبسها منه، ولايسدّ مسدّه الا قراءة الصفحات التي يعالج فيها التقية وضرورة الخلاص منها قراءة متأنية واعية ولاسيما هذه الفقرة النابضة بالحق والوعي.

(علينا ان نرفض اليوم كل اسلوب تقليدي يقوم على الظن بان البعض يملك الحقيقة كل الحقيقة، وان الاخرين لايملكون الا قبض الريح!!

(١) الجزء الاول ص ١١

(٢) الجزء الأول ص ١٣ وقول السيد المسيح من انجيل لوقا الاصحاح الثامن.

واما الفريق الثاني من المعارضين فتنحصر معارضتهم في نقطتين:

النقطة الاولى: لماذا أحيا الاستاذ حامد حسن شعر المتصوفين؟؟

النقطة الثانية: لماذا وسع بحثه ليشمل اوسع المعارف الانسانية؟ اما الاعتراض الاول فغير وارد، ذلك لان الأدب الصوفي جزء هام من التراث الاسلامي والعربي وكل اضافة من الادب الصوفي اغناء لهذا التراث.

ويرد عليه المؤلف رداً حاسمًا فيقول: ماأحوجنا الى ماينشر في النفوس وفي المجتمعات أنداء الرحمة، ويبسط عليها افياء العطف والحنان والتسامح، ويوشحها بغلائل الحب والتعاطف بدلاً من حميم الظلم ويحموم القطيعة والاكداء والاحقاد والتباغض(١)

اما الاعتراض الثاني فلايثبت على النقد، فمتى كان الطواف في رياض الفكر الانساني عيباً في كتاب يدرس شاعراً متميزاً من شعراء العرب؟ وهو كما قال المؤلف: (ان هذا الشاعر يختلف عن غيره من الشعراء، فهو شاعر ومتصوف ومتفلسف، ولا اغالي اذا قلت: فيلسوف، تعمق في كل علوم عصره الحافل بثمرات العقول والافكار، والعاجّ بمختلف الثقافات.

عالج في شعره المنطق، والفلسفة، والطبيعة، والفلك، والرياضيات، والتصوف، والفقه، والشعر(٢)

ان المرصد الصغير بفتحته المحدودة يطل على آفاق السماء وعلى عالم النجوم والمجرات.

وهكذا أطل علينا الاستاذ حامد حسن بشاعره المكزون على آفاق الفكر والدين والفلسفة والعلوم.

أين بقية كنوز الفكر الاسلامي والعربي؟؟

وانا معتمد على جرأة الاستاذ حامد حسن في تصدّيه لفئتين من المعارضين، وعلى منطقه السليم في الرد على هاتين الفئتين أدعو:

(١) الجزء الاول ص ١٢

(٢) الجزء الاول ص ٧

١ ـ الى نبذ الطوائف الاسلامية جميعاً مبدأ التقية بعد ان زالت الى الأبد اسبابها السياسية والاجتماعية.

٢ ـ الى اخراج الكنوز الفكرية والأدبية المخزونة لديها الى عالم النور، وبذلك نغني التراث العربي والاسلامي الذي ضاع كثير منه في مياه دجلة في بغداد والذي ضاع كثير منه في ظلمات القرون، والذي مازال يحتجب في الكهوف.

ولو فعلنا ذلك لأمكن ان نصل الى تفاهم يزيل ماخلفته قرون من التخلف ومن التفرق والاحقاد والأضغان، وأبادر فأقول:

لايمكن ان نصل الى هذا التفاهم مادامت الآثار الفكرية والأدبية قابعة في الظلام، ومادامت «التقية» مسيطرة على العقول.

في عام ١٩٦٥ وكنت مديراً للتراث العربي في وزارة الثقافة عرض علي شيخ جليل من مشايخ احدى الطوائف الاسلامية نشر ديوان مجهول فشجعته على ذلك كثيراً، وبعد عدة زيارات قال لي الشيخ الجليل: عفواً لااستطيع نشر هذا الديوان.

واليوم وفي عام ١٩٨٧ ونحن نرى الاستاذ حامد حسن يصدر دراسته عن المكزون السنجاري في جزئها الثالث لانملك الا ان نجله ونحترمه، ونكبر فيه هذه الجرأة، وهذا الحرص على نفض الغبار عن تراثنا العربي الكريم.

وأصرح دون مبالغة ان المكزون السنجاري يحتل مكان الصدارة في التراث العربي الاسلامي، وان الاستاذ حامد حسن في اصداره هذه الدراسة قدم لنا كنزاً رائعاً من كنوز هذا التراث، وأرجو ان يمدنا بكنوز اخرى مثل هذا الكنز الثمين، وانا أشكر الاستاذ حامد حسن الذي أتاح لي شرف كتابة هذه المقدمة.

كلمة ختامية

ولا ارى خاتمة لهذه المقدمة الوجيزة خيراً من ان اختمها بآيتين من كتاب الله المجيد.

تلك امة قد خلت لها ماكسبت ولكم ماكسبتم ولاتسألون عما كانوا يعملون(١)

و. . ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون(٢)

عبد المعين الملوحي

(١) سورة البقرة الآية ١٤١ (٢) صورة المؤمنون الآية رقم ٥٢

ثورة على السلبيات

بقلم الدكتور: محمد حاج حسين

الشعـراء اما أن ينظموا شعراً رديئاً، او شعراً جيداً، وقلة منهم يوفقون الى ابداع الشعـر الجيد، وهـوية حامـد حسن التي تتحد به، ولاتريم عنه انه شاعر هتف بالشعر الرائع، وحلق في عالمه الفياح، ومنذ ان كان فتى غض الاهاب راع الناس بشعره البارع الذي تجلى في ديوانه الصغير «ثورة العاطفة» المحمل بالانداء، والديباجة التي تسيل موسيقى متناغمة ثرية، والعاطفة الدافقة، والخيال المجنح الذي يهز الأعماق، . . وتابع هذه المسيرة الخيرة خلال أربعين عاماً ظلت فيها قريحته الشاعرة على ألقها وتوهجها تطفر الى عالم وضيء في عدد من الدواوين وجد فيها كل من قرأها النشوة الفنية التي تسعدنا. فالفن في حقيقته ملجأ نفزع اليه من الويلات المحدقة بنا.

هذا الشـاعـر الموهوب أصدر منذ عدة سنوات دراسة عن الشاعر الأمير المكزون السنجاري قال: انها في اربعة أجزاء صدر منها اثنان تلقفهما القراء باعجاب.

وهاهو الجزء الثالث يتهادى أمامي ليكون بين ايدي الناس عما قريب. ومما لاشك فيه ان لحامد حسن الفضل الاكبر العميم في تعريفنا بهذا الشاعر الفذ الذي كان مجهولاً لدينا، ومعنى هذا ان الشاعر حامد حسن اصبح ناقداً ومؤرخ أدب، فهل وفق الى ذلك؟؟ وبمعنى أدق هل يمكن للشاعر ان يكون ناقداً، ومؤرخاً أدبياً؟؟

أدرك البـاحثون منذ زمن بعيد ان اتحاد الشاعر والناقد أمر صعب المنال. . يسأل بعضهم الفرزدق عن معنى شعر له، فيجيب: علينا ان نقول وعليكم ان تتقولوا فالشاعر يبدع والناقد يفسر هذا الابداع، ويدلنا على موطن الجمال فيه. . انه يقربه الينا لنتذوقه ونسيغه، ونعيش في عالمه الجميل.

واكتنه المتنبي هذه الحقيقة فكان دوماً يردّد: ابن جني اعلم بشعري مني، فالفنان ـ

كما يقول اوسكار وايلد - : أبعد الناس عن ان يكون احسن النقاد.

لقد أصبح معروفاً ان الشاعر لايمكنه ان يقوم بوظيفة الناقد التقويمية فعندما انتشرت الرومانسية في المانيا ثم في فرنسا هاجمها اللورد بايرون وقال: ان هذا الوباء محصور في أوربا، ولن يصل الى جزيرتنا، ولم يدرك ان شعره كله رومانسي، وهو قطب كبير فيها.

وهذا بول فرليني عندما استفاضت الرمزية في فرنسا وعده النقاد رائداً لها استبد به الغضب ونفى عن نفسه هذه التهمة. ولم يستطع ان يفهم ان شعره رمزي بعيد الغور في هذه المدرسة، الجديدة.

ويحدثنا ت. س اليوت عن نواقص الشاعر كناقد ويرى ان الشاعر عندما يكتب في النقد يحاول دوماً ان يدافع عن الشعر الذي يكتبه هو لأنه مثله الأعلى، وعبّر عن استيائه من ان المقالات التي كتبها عن النقد قبل أربعين سنة يعتبرها الناس كأنها كتبت أمس، وهي خطرات كتبت في مناسبات.. وليست كل احكام أليوت صائبة فذات مرة جرح ملتون ثم عاد عن رأيه.. وحملته على شلي وبايرون وتمجيده لن يحتاج الى كثير من المراجعة والموضوعية.

ومما لاشك فيه ان هنالك بعض الشعراء اتحدت فيهم الشاعرية مع النقد كدانتي وغوتيه وكولرج.. ومع هذا الا يحق لنا ان نتساءل كيف فضل كولرج وهو الشاعر العبقري والناقد العظيم شلي على غوتيه؟؟

الشاعر تحكمه عاطفة فهي أقوى من العقل عنده فيندفع معها.. فورد ثورث اجحف بحق كيش، وتوماس غري لانهما لم يوافقاه على رأيه حول اللغة البسيطة التي يجب ان يكتب بها الشعر.

لماذا كل هذا الكلام؟؟ لأقول: ان مشاعر حامد حسن وافكاره الخاصة تخفقان في دراسته للمكزون.. فقد وجد فيها مجالاً واسعاً لاعلان ثورته على ظاهرات كثيرات في حياتنا وتاريخنا، وثقافتنا في مختلف نواحيها.

هذه السلبيات التي تأذى بها اسلافنا كما اننا نتأذى بها.

هذا الجزء الثالث من هذه الدراسة النيرة امامي ، وأجد حملات شعواء في المقدمة على تاريخنا . . لابد من وقفة!! هل تاريخنا وحده مجلل بالعار؟؟ لا ، والف لا!!

تاريخ العالم كله تتجلى فيه أبشع الاعمال، وتجوس فيه الرذائل وتمرح فيه الشرور، وتحتدم فيه الصراعات، والابرياء هم الضحايا تحطمهم المآسي[1] لماذا هذا كله؟؟ لأن التاريخ معرض لحياة الناس، والشر متأصل في النفوس، فمن الطبيعي ان ينعكس هذا الشر في التاريخ ، وهذا كبير مؤرخي عصرنا «توينبي» يقول: التاريخ ليس سوى معرض لحماقات البشر.

في انجلترا تقتصر دراسة التاريخ في المدارس على التلامذة حتى بلوغهم الرابعة عشرة فينقطعون بعدها عن دراسته ، وبهذا يبتعدون عن هذه الجواء الرهيبة ، والاحداث المنكرة، والحروب الدامية التي ينبض بها التاريخ . . فليس تاريخنا وحده مليئاً بالفتن الرهيبة بين المسلمين لاختلافهم في المذاهب . . . المذابح التي حدثت في فرنسا بين الكاثوليك والبروتستانت في سانت برتلمي لامثيل لها في تاريخنا، والحروب الداخلية والخارجية فاقت كل تصور، فهنالك حرب الثلاثين عاماً، وحرب المئة عام.

التواريخ في العالم كله مترعة بالشرور، وقد يكون تاريخنا من اكثرها نقاءً وانسانية . . وغوستاف لوبون يقول: ماعرف التاريخ فاتحاً ارحم من العرب[1].

الأصوات النبيلة التي ترتفع في تاريخنا تدعو الى الخير والحب والحق ليست قليلة.

جاء في كتاب اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الاكابر للامام العارف الرباني عبد الوهاب الشعراني طبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر عام ١٩٥٩ في الصفحة ٤١ مايلي:

---

(١) هذا صحيح ولكن العالم كله وفي هذا العصر لايستلهم سيئات التاريخ بل يتجاوزها، يتخلى عنها، ولايعتد بالاخطاء. بل يتجاوزها وينساها.

اما نحن فتاريخنا مقدس وهو المثل الاعلى والمنهل العذب عند الكثيرين من كتابنا. اننا نستلهمه، نلجأ اليه، نستثير به جماهيرنا، نشحن عقول ابنائنا بما فيه . . . وماذا فيه؟ لنوجه هذا السؤال الى الدكتور عبد الرحمن بدوي، وابي موسى الحريري، والحسيني عبد الله، وعبد الحسين مهدي العسكري، ومصطفى جحا واضرابهم، وفيما كتبوه ونشروه ونفثوه من السموم مايقنع الكاتب الكريم بصحة اتهامنا للتاريخ والمؤرخين وخاصة المعاصرين منهم.

(١)ولكن العرب لم يكونوا رحماء فيما بينهم.

قال الامام الشعراني: سمعت سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: من ادّعى مقام المعرفة وهو يجرح عقائد احد من اهل الفرق الاسلامية من كل وجه فهو كاذب، فان من شرط العارف بالله تعالى دخول الحضرة الالهية، واذا دخلها رأى عقائد جميع المسلمين شارعة اليها، ومتصلة بها كاتصال الاصابع والكف، فأقر عقائد جميع المسلمين بحق وكشف ومشاهدة(١)

وعلي الخواص من كبار الصوفيين العارفين بالله وهؤلاء لهم كشف ومشاهدة وبرحمة من الله رأى جميع الفرق الاسلامية على الطريق المستقيم وليس من طريق للنجاة كما يقول الشعراني سوى الحق المطلق، والصدق المحض، والحق المطلق هو الله، والصدق المحض هي معرفته تعالى والاقرار بوحدانيته، هذا هو الخلاص وجوهر الحق، وجميع الفرق الاسلامية تؤمن بالله ووحدانيته، وليس امام كل فرد سوى العمل الصالح بعد هذا ليكون الزاد لآخرته الرضية، فالدين المعاملة.

علماء الغرب الذين بحثوا عن الاديان ودرسوها وسلطوا أشعة العلم عليها آمنوا بوجود الله.. وان الكتب السماوية، وبراهين الفلاسفة لم تقنعهم بوجود الله، ولم يجدوه ويعرفوه، ويؤمنوا بوجوده الا عن طريق الصوفية... انا: ان الصوفيين في جميع الأديان السماوية وغير السماوية من امم شتى، وبلغاتهم الخاصة تحدثوا عن اتصالاتهم بالله، وعن تجاربهم في الدخول الى الحضرة الالهية، وهؤلاء الصوفيون من شتى الأجناس والاديان والمذاهب متفقون كلياً في الحديث عن تجاربهم التي تنسجم في اتساق تام مما يدل على صدق مايقولون ويروون. وهذا الدليل الساطع اقنع العلماء الباحثين فانطلقوا يدرسون الاديان بعد ان تأكدوا من وجود الله تعالى في هذه الرؤى الصوفية، فالعارف بالله علي الخواص لم يتحدث عن مشاهدته الالهية رغبة أو رهبة وهو الذي لاتساوي عنده الدنيا بكل خوالبها ومفاتنها جناح بعوضة.. فلماذا اذن هذا التناحر بين الفرق الاسلامية الذي كثيراً ما ادّى الى فتن هوجاء سالت فيها الدماء غزيرة، وحملت الويلات الى ابرياء لاناقة لهم فيها، ولا جمل كما يقولون.

(١) اين هذا من فتاوى بعض العلماء بتكفير فئات كثيرة من المسلمين؟

في عصرنا قام بعض من لاذمة لهم يؤلفون الكتب السقيمة العقيمة، البعيدة عن كل صدق وحقيقة يؤججون بها الفتنة بين السنة والشيعة فيجرحون عقائد الشيعة ويلصقون بها تهمًا لاسند لها من الحقيقة ولا هدف لها سوى بث السموم للتفرقة بين الامة الواحدة. . ومنذ قليل وقع بين يدي كتاب عنوانه: «ظلموا الشيعة» الفه احد علماء العراق يرد فيه على بعض الكتب التي ظهرت في بعض الأقطار العربية تهاجم الشيعة الامامية وتلصق بهم كل فرية وتنعتهم بمجوس هذه الأمة. فكان رد العالم العراقي محكمًا تجوسه لهجة عنيفة، ولكن أليس البادىء بالشر أظلم؟؟

ان هؤلاء الذين يكتبون امثال هذه الكتب خربو الذمة، فاقدو الضمير يبثون الفتنة والتفرقة. . . ولعن الله كل من ايقظ الفتنة!!

الصديق حامد حسن اكثر الناس تأذياً بهذه الفرقة التي فرقت المسلمين في الماضي وتحاول تمزيقهم في الحاضر، وان تطل برأسها البشع في أيامنا، فقلبه الشاعر يمجها، وعقله الواعي لايهضمها، فينطلق بكل ماأوتي من وهج في الشاعرية منددأ بها، يودّ ان يجتثها من أصولها، وانا اطمئنه انها سائرة الى زوال فالناس اصبحوا يرون بأعينهم، ويفقهون بقلوبهم، ويعون بعقولهم، وكلهم في طريقهم الى المحجة الواضحة، فالاسلام يظلل باجنحته الدافئة كل المسلمين من مختلف الفرق والمذاهب، فهل هنالك ثمة مانع ان يكون هنالك تفسيران للاسلام احدهما سني والآخر شيعي مادام الجميع يؤمنون بالله وكتابه ورسوله؟؟

ان هذه الاصوات المنكرة التي تظهر بين الفينة والفينة ليست سوى الدليل على العافية فهي آخر الانفاس النتنة التي يطلقها الشر، وسيأتي اليوم القريب الذي يدرك فيه الجميع ان لافرق بين هذه المذاهب في الأصول. . والفروع آراء قالها بعض الناس، وكلها تنصبّ في بحر واحد هو الاسلام بسماحته ونوره.

ليغفر لي القارىء هذه الاطالة، وشفيعي انه كلما خطرت لي هذه الفرقة امتلأت نفسي بالمرارة. لندعس بأرجلنا كل ناعق بالشر، جانح الى الفتنة التي تورثنا لعنة الله وغضبه وعذابه.

يحدثنا حامد حسن عن منهجه في البحث فيرى التبسط في مقدمات الابحاث وعقد

المقارنة بين الاشباه والنظائر والاحتكام الى العقل عند اضطراب النقل، والتتبع التاريخي واستعمال المصطلحات الفلسفية، ولقد استغرقت معالجة قضايا هذه المقدمات قسمًا كبيراً من الكتاب، وانا لاأقر هذا المنهج رغم المتعة الكبيرة التي انداحت لي وانا أقرؤها، ففيها جهد كبير، وبحث مستقص، وتتبع علمي، ومناقشة رصينة، وفهم عميق لمختلف التيارات الاسلامية التاريخية والدينية، والفلسفية والصوفية، قلما تتوفر لباحث.. يجلوها عقل محلّل. وتسودها عاطفة مشبوبة، وثورة على كل السلبيات مفعمة بالمرارة.. ولايخالجني شك ان القارىء سيجد فيها العلم الغزير، والفوائد الجلى، ومع كل هذا اقول بصراحة لصديقي حامد: ان الدراسة الادبية لاتتحمل كل هذه المقدمات رغم جودتها وعمقها وفائدتها.

فالدراسة الادبية الحديثة تبتعد عن كل المقدمات التاريخية وقد تبالغ فترفض الحديث حتى عن بيئة الشاعر وحياته، وليس امامها - في رأيي - سوى النص، ولا علاقة لها بشيء آخر!! تمعن في النص تحليلاً ودراسة.

ولهذا أرى ان حامد حسن وجد في دراسته للشاعر المتعدّد الآفاق الامير المكزون فرصته ليقول برأيه في مجالي الثقافة الاسلامية الواسعة، وليهاجم السلبيات التي يعافها قلبه الشاعر، ويأباها عقله النير، والحق ان ثورته بها لاينشد منها سوى الخير لهذه الأمة لتزيح الأشواك عن طريقها.

ان دراسة حامد حسن للامير الشاعر المكزون اجمل مافي الكتاب لقد استمتعت بها كثيراً، والحق ان المؤلف خير من يستوعب هذه التيارات الاسلامية التي جللت شعر المكزون، فلا عجب اذا جاء تحليله عميقاً، وفهمه أصيلاً، وتجاوبه مع الشاعر قوياً... وأجمل مافي هذا الشاعر تلك الابيات السمحة الكريمة التي تدعو الى التآخي والحب، ونبذ التعصب المذهبي، وهي في الواقع اكثر مايشغل بال حامد حسن.

حسبنا ان نسمع المكزون يهتف بهذا القول الكريم:

أمي الشريعة والمقيم لها أبي وبنو بنيها كلهم اخواني

وترنم معي في هذه الابيات الخيرة التي تفيض بالحب والسماحة:

واغـد مؤمّـاً بصـدّيـق بني ... تيـم، وابـغ الحجـر من حجـر عدي
وبـعـثـمان الى وجـهـي اتّجـه ... يتـسـنّـى لك عن وجـه السّـني
وعـلّي باب جنـات الهـدى ... فأت منـه تجن داني جنّـتي
وعـلى جمعـهـم في جامـعـي ... كلما صلّيـتَ لي صلّ وحـيّ
ومـتـى فرقـتـهـم فارقـتـهـم ... بالـتـعـامـي مائـلاً عن ملّتي

نضر الله ثراك ايها الشاعر العظيم.

وبعد:

لقد اتّحد الشاعران حامد حسن والمكزون في هذه الدراسة الطريفة وتفاعلت فيها روحان ساميتان، وخفق فيها قلبان كبيران يحملان الحب والولاء والاخلاص لكل الناس، ونشدة الخير للمسلمين لتنتظمهم وحدة مكينة.. أخوة كاملة تشرق في الحب والتفاهم.

لقد وجد شاعرنا حامد حسن ضالته في هذا الشاعر الامير العظيم فتفاعل معه، واتـاح له ان يطل علينـا بآرائه الحقة في الحياة الفاضلة التي تأبى هذه الفرقة بين الفرق الاسلامية فمصدرها واحد، وهدفها واحد.

انني ازجي خالص التهاني الى شاعرنا المبدع الصديق الغالي حامد حسن الذي كرس الـوقت الكثير، والجهد البالغ، وسهر الليالي في هذه الدراسة الموفقة التي انعكست فيها ثقافته الاسلامية المتعددة الجوانب راجياً ان لاتتراخى المدة بينها وبين الجزء الرابع، ولاشك انه فاعل هذا، فمن أحب امراً انجزه مهما تعقدت المصاعب. ومن حق المكزون الشاعر الأمير ان يأخذ مكانته الادبية الحقة في عصرنا بعد ان ظل مجهولاً طيلة هذه الحقب الطويلة من الـزمن. ففي شعره غذاء للعقل ومتعة للروح وعالمه حي انساني اسلامي في صوفية مجنحة، وانطلاقة روحية سامية نحن بأشدّ الحاجة اليها في هذا العصر الذي سيطرت فيه المـادة الصفيقـة حتى كادت تطفىء النـور الذي تستمد منه الانسانية وهجها وحيويتها وروعتها وسيرورتها الى مستقبل رخيّ تمرح فيه احلى الاماني، واعذب الرؤى.

د. محمد حاج حسين

نون المكزون
أو
كنز النون

بقلم الدكتور: عمر موسى باشا
رئيس قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة دمشق

عهدي بالشاعر المكزون قديم، عرفته شاعراً متصوفاً لا كغيره من الشعراء المتصوفة، واعجبت به كل الاعجاب حين اطلعت على ماكتبه أخوان كريمان هما الصديقان الشاعر حامد حسن والدكتور اسعد علي.

والآن بين يدي الجزء الثالث عن المكزون السنجاري للشاعر حامد حسن بعد ان اتحفنا بالجزءين الاول والثاني عن المكزون السنجاري بين الامارة والشعر والتصوف والفلسفة.

لقد تحدث المؤلف في هذا الجزء اولاً عن الانسان والاله ليربط بين نظرية الالوهية في التاريخ منذ فجره الاول حتى يصل الى عصر المكزون ليظهر لنا تطور عقل الانسان منذ طفولة هذا العقل حتى نضجه في العصور الحديثة حيث توصل الى القول بالاله «الكمال المطلق» والذي ليس كمثله شيء، كما جاء في القرآن الكريم، وليبين لنا كيف فلسف المتصوفة والفلاسفة هذه النظرية وكيف توضحت في شعر المكزون الفيلسوف المتصوف.

كان المؤلف موفقاً في بحثه التاريخي وفي ابرازه القوائم المشتركة بين الاديان كلها كما تحدث عن الطوفان لورود اشارات عنه في شعر المكزون، وانتقل فتحدث عن العرفان الصوفي ثم توقف مطولاً عند ظاهرة الحوار والحجاج والمطارحات عند الشاعر المكزون، وابرز من خلال ذلك آراءه في قضايا جوهرية مستمدة من شعره، ومستوحاة من تصوفه.

كان المؤلف بارعاً في ذلك كله يناقش أهم الآراء بموضوعية وتجرّد معتمداً على العقل والمنطق في تعليلها وتفسير بواطنها اذا لم تأت واضحة في صحيح النقل.

اعتماد المكزون في تصوفه وعرفانه يقوم على الشريعة والكتاب، على القران والسنة

التي لاتقبل النسخ :

بسنة لاتقبل النسخ وآيات كتاب طيها في انتشر

كل حرف من الكتاب كتاب محكم، ما لحكمه الدهر نسخُ

ويرى المكزون ان الشريعة جامعة وانها أم المسلمين وكل ابنائها اخوته

أميّ الشريعة والمقيم لها ابي وبنو بنيها كلهم اخواني

أأعق والدتي، وأنكر والدي والى العداة أفر من اعواني؟

أأفر من انسي الى وحش الفلا؟؟ ان كنت ذاك فلست بالانسان

هذه الابيات السمحة المطربة المعجبة الموفقة في مرماها ومغزاها هي التي جعلتني بل أوحت الي ان أتوج موضوعي هذا بعنوان نون المكزون، أو كنز النون ولقد تقدست النون في شعر المكزون فاشار بها او لماتحمله من رموز الاعداد الى عروج الملائكة في يوم مقداره خمسون الف سنة .

ويوم ضرب النون في الغين وما يعرج فيه وبغين ماحصر

النون في حساب الجمل ٥٠

والغين ١٠٠٠

كما ان النون الرمز وردت في القرآن الكريم وبصيغة القسم (ن والقلم ومايسطرون) فمن النون والقلم والحرف والرق والكتاب والسطور انطلقت قصة الحضارة وابداعات الفكر الانساني يقول المكزون :

والقلم الجاري الذي مداده لاحرف التنزيل في اللوح سطر
وحل من تركيبها بسائطا في قبضها البسط لارواح البشر

والمكزون يمجد العقل فقد بهره فيضه فخضع لسلطانه وتحدث من خلاله عن الذات الالهية والنور المحمدي كما تحدث عن النفس المتمثلة في العقل.

النفس في العقل اذ تصفو لرؤيته له مثال تراه فاعقل المثلا
كالعين تشهد في المرآة صورتها وماستحالا ولا حالا ولا انتقلا

ولكن العقل يتضاءل عنده عند النزوع الى الحب والجمال المطلق «العشق الالهي» ويصبح تابعاً بعد ان كان متبوعاً:

وتابعت امر العقل حتى اذا لكم دعاني الهوى اضحى لي العقل يتبع

ويقول:

ان لم أخالف زاجر العقل عن صبوتي فيكم فواجهلي
ومتى عدلت بحبكم احداً في الكون واعد لي عن العدل

وفي التطلع الانساني يسمو المكزون حتى التوحيد فيقول:

اذا كان شرع الله في الدين واحداً وعن مسلك التفريق فيه نهى الرّسلْ
فان سبيل الرشد للناس واحد ولا غيّ الا في متابعة السبل

انه ينذّد بالطائفية والمذهبية والعنصرية، والقلوب المغلقة، والافكار المتحجرة، وان الغي كل الغي في التفرقة والتعصب، وما أجدرنا اليوم ان نهتدي بآراء المكزون ونتجاوز ظلمات التاريخ الأسود ليشرق نور تاريخ التحرر من اغلال الجمود والتعصب الأعمى.

ان الشريعة واحدة لاتتجزأ، ولاتتمذهب مادام الكتاب المحكم ـ القرآن ـ المنزل هو الأصل والجوهر، وهو العماد والمعتمد، وحينئذ تتخلص الشريعة من الادران ويصفو جوهرها المحض فالسنة شيعة، والشيعة سنة وحينئذ تتحقق وحدتها، وفي تحقيق هذه الوحدة يتغير وجه التاريخ.

وهكذا كان حامد حسن في بحثه ودراسته عن المكزون فقد توخى تطبيق آرائه والدعوة الى الوحدة الدينية بين المذاهب والطوائف والأديان مادام الاسلام جاء جامعاً لسائر الرسالات السماوية وهنا تكمن عظمة الانسانية في الدين الحنيف.

وهذه هي الدعوة عند المكزون وقد اعرب عنها المؤلف بقوة وشجاعة غير مبال بالمعترضين الذين يسعون لتهديم صرح الامة بزرع بذور العداوة والتفرقة والتنابذ والبغضاء، ويتخذ من التاريخ شاهداً ويطلب الينا ان نتعظ بالماضي لنقيم صرح المستقبل على دعائم من الوحدة والعودة الى الاصول تاركين البدع والضلالات والفروع ونستقي من الينبوع الفياض من نون القران معشوقة المكزون (ن والقلم ومايسطرون) كنز معرفة الله.

د. عمر موسى باشا

المقدمة

قارئي :

هل لديك الطاقة والقدرة، والصبر والاحتمال؟؟

اذا وثقت من نفسك فرافقني في هذه الرحلة الطويلة!!

رحلتي شاقة ومضنية!!

ولكنها بنت الرغبة، ووليدة الطوع والاختيار والتصميم!

هي رحلة مع العصور عبر الزمن المتهافت.

انها تبدأ من الالف السادسة قبل مولد الناصري، وتقف في النصف الأول من القرن السابع من هجرة ابن عبد الله وليد مكة، ونزيل يثرب.

هناك يستوقفني شاعر، مفكر، متصوف، فيلسوف.

هناك يستوقفني المكزون السنجاري ـ ٥٨٥ ـ ٦٣٨هـ ـ لأتلمس عنده، ومن خلال شعره، وفلسفته، ومن منظوره الاسلامي كيف يتسنى لنا ان نتصور الاله فلسفياً.

أقف عند هذا الشاعر المتفلسف الصوفي بعدما تدرجت عبر رحلتي هذه مع تصور الامم والشعوب والاديان للآله عبر سحيق التاريخ.

من التصور الساذج للآله المتمثل بالحجر والشجر والنبات، والجبل والحيوان. والاله الجبار المتمثل بالعاصفة والصاعقة والرعد والبرق والنار والبركان والبحر والكواكب.

من آلهة سومر وبابل والهند واليونان وفارس الى آله التوراة والانجيل والقرآن.

من «التصوّر» الى «التصديق» الفلسفي، والبرهان المنطقي في شعر المكزون السنجاري عبر مقدمات يقينية حيث الآله «كمال مطلق» لايحدّ، ولايدرك وليس «كمثله شيء».

انني أشفق على القارىء الذي يرغب في مصاحبتي في هذه الرحلة. ولكنني واثق انها سترفد عقله بزاد فكري وتاريخي عن تصور الانسان للآله وعن تطوّر هذا «التصور» من التجسيد والتحديد الى التجريد والتوحيد مع كل مايتعلق بذلك من ثقافة وفكر وتاريخ.

ستحرر عقل القاريء من «موروثات» استوطنت عقله فاصابته بالشلل، ومن «مسلمات» استبطنت مشاعره فأورثتها العقم.

ومن خلال شعر المكزون ايضاً ساستعرض التاريخ، وخاصة التاريخ العربي الاسلامي وعلى مدى ستة قرون بدءاً من هجرة الرسول العربي وانتهاءاً بزمن المكزون السنجاري مروراً ببعض ماحمله الينا هذا التاريخ من النكبات والمصائب والكوارث والمصاعب، والمثالب والمعايب، والحقائق والاغاليط في حياتنا الاجتماعية والدينية والفكرية، وماجره ويجره على الامة من العواقب، متنكراً لكثير من الحقائق، متشحاً ببرود الدين، عاملاً للكيد من الاسلام والمسلمين.

سأمسح ضباب القداسة عن هذا التاريخ كما نمسح اللهاث عن بلور المرآة لتبدو صورتنا واضحة جلية مشرقة.

ساعرّيه من بروده الفضفاضة كما تتعرى السماء من الغيوم في ليلة صائفه حيث يبدو ألق النجوم، فترتاح نفس الناظر وتتملى مشاعره من جمالاتها.

ولكن...

الذين يعيشون بأرواح أجدادهم، ويغوصون في أوضار التاريخ، ويفكرون بأعصابهم لابعقولهم، ويستسلمون للعاطفة على حساب العقل، ولايميزون الصحيح من الزائف من تاريخهم، ولايفرقون بين الاصيل من تراثهم وبين الهجين والدخيل.

هؤلاء كل هؤلاء!!

سينغضون رؤوسهم، ويلوون أعناقهم. ويغمضون عيونهم عن رؤية الحقائق الباهرة في هذا الكتاب!! ولكن..

متى استطاع الخفاش ان يواجه اشراقة الشمس؟؟؟

سيقولون:

انه التاريخ فهل نتنكّر له؟؟

انه التراث فهل نتعداه؟؟

وفات أفهامهم، وتعدّى مداركهم ان تاريخنا العربي الاسلامي، أو بعض تاريخنا

العربي الاسلامي .

يشعل شمعة ليحرق مملكة!!

ويمتدح سلطاناً ليهجو شعباً!!

ويصدر فتوى ليكفر أمة!!

ويورد بعض الاحاديث ليحدث انقساماً!!

ويسرد خبراً ليوقظ فتنة!!

ويقص رواية لينشر بدعة!!

ولا أدل على هذا من الواقع المرير ـ واقع الفرقة والانقسام، والتنابذ والشحناء، والتخاذل والمعاداة، والتقاطع والتدابر، والتهديد والمواثبة، الذي يعيشه المسلمون في كل أقطارهم، وتعدد امصارهم، واقتراب وابتعاد ديارهم، وذهاب ريحهم وخمود نارهم وكل ذلك بفضل هذا التاريخ ومايذخر به من الفتن، ويغرس في صدورهم من الاحن، ويؤجج بينهم من نِيَرة المحن[1] وماحمله الينا عبر عصوره من النفثات السميمة ونقله من اللهثات المحمومة!!

هذا التاريخ الذي جرّعنا الدسيس من السموم، وأداف في شرابنا الغسلين والزقوم ونشر فوقنا ظلال الحميم واليحموم، لابارد ولا كريم .

هذا التاريخ .

زرع الزيغ في العيون فتعذّرت عليها رؤية الحقيقة .

وغرس الحقد في القلوب فانبتت أشواك البغض والكراهية .

وأجج البغضاء في النفوس فجف فيها معين الالفة والمحبة .

واحكم اغلال التقاليد في الأعناق فاطرقت مغلولة لاتواجه وهج الصباح .

وكبل الاقدام بسلاسل العبودية فتنكّبت دروب الحرية .

وأطفأ من الادمغة انوار العقل فخيّم عليها ظلام الجهل وعشعشت فيها الخرافة والاساطير.

السياسة، الشعوبية، المذهبية، القبلية هي التي كتبت تاريخنا، وتركت لنا مااختلفنا

(١) نيرة: بكسر أولها وفتح ثانيها جمع نيران

فيه وعليه، ونختلف فيه وعليه بالأمس واليوم وغداً، وبعد غد!!

تعـال معي لأعـرض لك بعض مراحـل هذا التاريخ وبصورة خاطفة لأقدم لك البرهان، وعسى ان احصل منك على بعض الاقتناع!!

ألم تكـذب قريش الـرسول؟؟ اما أوذي؟ وحورب؟ ورجم؟ وبيّت لقتله؟ وتسلل متخفياً، وطورد مهاجراً؟؟

امـا تفنّن ابـو سفيان ومشركو قريش بايذاء اصحابه، وتعذيب انصاره: والمؤمنين بدعوته، والصابئين الى دينه، والقائلين بصدق دعوته، وصحة رسالته وهجّروهم مرغمين مكرهين؟؟

قد يقال هذا صراع بين الشرك والتوحيد، والكفر والايمان، والوثنية والاسلام، ولكن الله اظهره عليهم وقال لهم: اذهبوا فانتم الطلقاء..

ولكن:

هل مضى على موته الا ساعة أو بعض الساعة حتى هبّ الطلقاء وابناء الطلقاء وكل صحابته ـ الا أقلهم ـ لاقتسام ميراثه؟؟

أما شهدت سقيفة بني ساعدة الصراع القبلي، والنزاع العائلي، والنزوع الجاهلي، والمواثبة على التركة والغنيمة؟؟

أوس وخـزرج، قيسيون ويمنيون، قحـطانيون وعدنانيون، يمنيون وحجازيون، مهاجرون وأنصار، قريشيون وأمويون وهاشميون.

- منكم امير، ومنا امير.
- نحن الامراء وانتم الوزراء.
- نحن اهل بيته اولى بميراثه.
- نحن اهله وعشيرته.
- نحن أنصاره آويناه، ومنعناه منكم.
- نحن هاجرنا معه بأنفسنا وأهلنا وأموالنا.

ملاحاة وتحاج!!

شقشقة ألسنة، ولواذع كلام!!

إدلال بياض، ومواثبة على حاضر:

كل هذا والرسول الكريم لم يزل مسجّى في بيته، غسل جثته، لم يُهيّأ مدفنه، وصوته لم يزل يتردّد في مسامعهم.

ثم ماذا؟؟

الم ترتدّ القبائل عن الاسلام بعد ذلك بقليل، وتراق الدماء، وتسبى النساء، ويُقتل الابرياء؟ وقصة مالك بن نويره لم تزل مثار جدل بين المؤرخين!! ويقتل الخليفة الثاني بعد انذار اليهودي كعب الاحبار، ولكن الخليفة لم يعبأ بانذاره[1]

وتخرج الايصار على الخليفة الثالث فيقتل وهو مكبّ على القرآن، ويمثّل به، فيخبط بالسلاح، ويبعج بطنه بالحراب، وتفرى اوداجه بالمشاقص وتشدخ هامته بالعُمُد ويطئون اضلاعه وتقطع اصابع زوجته[2] والقتلة كلهم مسلمون والمقتول خليفة الرسول، خليفة المسلمين، وزوج ابنتي نبيهم الذي اخرجهم من الضلالة الى الهداية. وكل المسلمين مجمعون على ان دم الفاسق ـ حتى الفاسق ـ حرام كدم المؤمن الا من ارتدّ بعد اسلام، او زنى بعد احصان، او قتل مؤمناً متعمداً.

ويخرج ابن ابي سفيان على الراشد الرابع. ويخرج طلحة والزبير وعائشة احدى أزواج النبي وتقع حروب الجمل وصفين والنهروان وتنتهي بمقتل الخليفة الرابع.

حصل كل هذا خلال ثلاثين عاماً وهي الفترة الراشدة وكان الاسلام لم يزل ندياً وعهد المسلمين بالرسول لم يزل قريباً. ويتحول الاسلام من الشورى الى الملكية القيصرية الكسروية العائلية.

وتقع فاجعة كربلاء وينقسم الاسلام الى معسكرين يكيدان لبعضهما وتنطلق الشعوبية بخلال هذا الانقسام جاهدة في تمزيق وحدة المسلمين فتُشكّل الاحزاب، وتضع

(١) جاء كعب الاحبار الى الخليفة عمر بن الخطاب وقال: ياامير المؤمنين ستموت بعد ثلاثة ايام فهزأ به الخليفة ثم جاء في اليوم الثاني فقال: مضى يوم وبقي يومان ثم جاء في اليوم الثاني وقال: ذهب يومان وبقي يوم واحد وتم قتله في اليوم الثالث على يد ابي لؤلؤة فما رأي المؤرخين والعلماء في كعب الاحبار؟؟ ونبوءته؟

(٢) رسالة النابتة للجاحظ ص ٧ ـ ٩

الاحاديث المكذوبة بتأييد حق كلا المعسكرين تمكيناً للمكيدة وتكريساً للتفرقة، وليكون لكل فريق سند ديني، وحق شرعي واليك بعض القواعد العامة دليل على ذلك.

١ ـ من قتل متأولاً فلا قودَ عليه.(١)

٢ ـ من استخلف ثلاثة أيام لن يدخل النار!!

٣ ـ الخلفاء لاحساب عليهم ولا عذاب!!

٤ ـ الصلاة وراء البر والفاجر!! و.و.و

هذه القواعد، هذه الاحاديث تبرر أفاعيل القتلة المجرمين لانهم كلهم قتلوا متأولين!!

الم تبرىء ساحة يزيد والوليد والسفاح.. والحجاج من الجرائم التي ارتكبت، والاموال التي اغتصبت؟؟

ثم يضطهد الامويون الهاشميين علويهم وعباسيهم كأشنع وأبشع مايكون الاضطهاد!!

ثم يقضي المروانيون على السفيانيين

ألم تُبَح المدينة حرم رسول الله؟ وترمى الكعبة بالمنجنيق؟؟ ويمزق القرآن رمياً بالنشاب؟؟

ويموت الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز في ظروف غامضة؟

ويأتي دور «الظل والسحاب»(٢) ليقضي العباسيون على الامويين ويلاحقونهم في كل فج ومخرم، وغور ونجد، ورابية وواد، وسهل وغار، وكذلك فعلوا بابناء عمهم الهاشميين.

ويموت المهدي والهادي بدسائس الخيزران البربرية.

ويقتل محمد بن علي على يد ابن اخيه المنصور، ويعقبه قتل ابي مسلم الخراساني، وابي سلمة الخلال وزير آل محمد، ويقتل الربيع بن يونس على يد الهادي، ويعقوب بن داوود على يد المهدي، والبرامكة على يد الرشيد. والفضل بن سهل على يد المأمون، ويقتل المأمون اخاه الامين.

---

(١) القَوَد: اخذ القاتل بالقتيل. (٢) شعار راية العباسيين

ونقف هنا ممسكين عن متابعة المآسي وتعداد المخازي
لقد أصبح الاسلام وسيلة لا غاية!!
اصبح وسيلة الحاكمين كما أصبح وسيلة المحكومين
وسيلة الحاكمين لترسيخ سلطتهم
ووسيلة المحكومين لمحاربة هذه السلطة

لماذا ثار الحسين بن علي، وسليمان بن صُرد الخزاعي، وقيس بن سعد بن عبادة، وحجر بن عدي، والمختار الثقفي، وصالح بن سرح، وشبيب بن يزيد الشيباني ومطرف بن المغيرة، وعبد الرحمن بن الاشعث، وزيد بن علي وابو حمزة الخارجي، ويحيى بن علي، وعبد الله بن معاوية، والحارث بن سريح؟؟ وغيرهم.

هل ثاروا الا على الظلم والطغيان، والاذلال والحرمان، والدونية والامتهان، وانتهاك مقدسات الانسان، والانحراف عن مبادىء الاسلام، والانجراف في هذا الانحراف؟ واذا كان المجتمع كله ضلال فان ضلال الخروج عليه هو الفضيلة الكبرى، كل هذه الحركات والثورات لم ينتصر لها تاريخنا الحميد المجيد بل أطلق على هؤلاء الغاضبين للحق، المطالبين به، الخارجين على الظلم والجور، الناهين عنها، كل مافي لغة العرب من الفاظ المذمة، وتعابير الشتيمة فهم ارذال، سفهاء، طغام، اخساء، رعاع، غوغاء، فسقة، فسدة، سفلة، كفرة، فجرة، مارقون، خارجون، مبتدعون، غلاة، حلوليون، نفاة معطلون، كما افتى العلماء باهراق دمائهم، واستباحة نسائهم، واستعباد ذراريهم، واصطفاء اموالهم، واستئصال شأفتهم[1] ولماذا كل هذا؟؟ لانهم غضبوا للحق، وخرجوا على الظالمين ومنهم يزيد والوليد والحجاج والسفاح خلفاء المسلمين، وولاة أمرهم.

لقد احتفظ لنا تاريخنا الحميد المجيد، بأفانين القتل، واساليب التعذيب، التي أنزلها الحاكمون العادلون بهؤلاء الثائرين والمتّهمين، والمأخوذين على الظّنة، فقتلوهم قصعاً بالسيوف، ووجراً بالرماح، ووجأ بالحراب، وشدخاً بالعمد، وتحريقاً بالنار، وصبراً وصلباً في الحرّ والقر، وهناك التعطيش والتجويع، والتجصيص، والخنق والشنق، وصلم الاذان، وسمل العيون، واستلال الالسنة والرض والسم.. وان لله جنوداً من عسل[2]

(١) راجع المستظهري، وفتاوى ابن تيمية، ونوح الحامدي

(٢) كلمة لمعاوية بن ابي سفيان وقيل لعمرو بن العاص قالها عندما سم مالك بن الأشتر وكان علّي ولاه على مصر

اما الانغماس في المخازي، والارتماس في المعاصي فنكتفي بالاشارة اليها بقرد الخليفة يزيد، وحبابة وسلامة الوليد،(٣) وغادرة الرشيد، وعريب المأمون(٤)

قد يقال: ان في تاريخنا نقاطاً مضيئة كثيرة، ونقول: هذا صحيح.. ولكن لئن عرفت الفترة الراشدة الاسلام روحاً وطبقته فعلاً وعملاً فان ماحدث في تلك الفترة ـ على رشدها وقداستها ـ يكاد يطغى على الحسنات.

ولئن تجلت رحمة الاسلام وعدالته في سيرة بعض القادة الفاتحين كطارق بن زياد وموسى بن نصير وقتيبة بن مسلم، ومحمد بن القاسم. والمثنى بن حارثة وأمثالهم.

هؤلاء القادة الذين لم يضمروا غدراً، ولم يبيّتوا قوماً، ولم يقتلوا طفلاً، ولاشيخا، ولا امرأة. ولم يقعروا شجرة، ولم يذبحوا شاة الا لمسغبة، ولم يحاربوا قوماً الا بعد الدعوة الى الاسلام فان لم يستجيبوا فالجزية، فان أبوافالجلاء كما شرع لهم الاسلام، وسن لهم قادتهم الاعلام.

اقول لئن فخر تاريخنا بهؤلاء فانه ليطرق خجلاً ويندى حياءً عندما يضم في صفحاته السوداء امثال النعمان بن بشير، ويزيد بن شجرة، وعبد الرحمن بن قباث، وزهير بن مكحول، ومسلم بن عقبة، وسفيان بن عوف، وبسر بن ارطاة، والضحاك بن قيس، وسليمان بن عوف الغامدي واسوأ رجال التاريخ الحجاج بن يوسف الثقفي.

لئن نشر اولئك القادة الفاتحون الاسلام، وعدالة الاسلام، ومساواة الاسلام، في البلاد التي افتتحوها فقد نشر هؤلاء الرهط المشائيم الفساد والرعب والقتل في المسلمين، وتجد تاريخنا المجيد اعمالهم وافعالهم.

هذا بعض مااحتقبه تاريخنا في عيابه على مستوى الرجال والاعمال والافعال، اما على مستوى الفكر، والعقائد، والمذاهب، فقد حمل الينا الجبر والتفويض والارجاء والاعتزال، والامامة، والوصية والعصمة، والبداء، والغيبة، والانتظار، والرجعة، والولاية،

(٣) هو الوليد بن يزيد الخليفة الحادي عشر من الامويين، وليس الوليد بن عبد الملك الخليفة السادس الذي افتتحت في ايامه سمرقند، وخوارزم وفرغانة على يد قتيبة بن مسلم، والهند على يد محمد بن القاسم، والمغرب على يد موسى بن نصير، واشاد الجامع الاموي، والمسجد الاقصى.

(٤) راجع ديوان عبد الرحمن بن النقيب تحقيق خليل مردم بك وقصيدته في هذا الموضوع)

والصفات. والباطن والظاهر، والتأويل، والعقل والنقل والسنة والشيعة والرفض والنصب وأهل الاثبات والنفاة والغلاة والقلاة. كما نقل الينا ماهو أشر من هذا كله وهو تلك الاحاديث التي وضعها المعسكران، وأصحاب هذه الآراء والنحل باسم الدين، وعلى لسان رسول الاسلام لتأييد مدّعاها، وتمكين أغراضها وتحقيق اهدافها باسم الدين.

وهذا ماأردنا ان نركز عليه، ونقف عنده طويلاً لان شاعرنا المكزون السنجاري تعرض له واولاه الكثير من الاهتمام والريازة.

ان مانتج عن هذه الآراء والمذاهب أوجد الفرقة والتفريق، ومكّن للتشتيت والتمزيق وكرس التخلف والتعويق، واضاع علينا معالم الطريق.

انني اشير وادلل واحاكم وأدين سيئات هذا التاريخ، واخطاء من سبقونا لنتحاشاها، ونتجنبها ونتجنب من لايتحاشاها ويتجنبها، لننكرها، وننكر من لاينكرها.

لنتقيها، ونتقي من لايتقيها.

لماذا لانقوم اعوجاج هذا التاريخ؟ لماذا لانعدل مساره في الاتجاه الصحيح لخير هذه الامة؟

لماذا لاتتمرد على الكثير من مسلماته بعد ان تبين زيفها وخطرها؟؟

لماذا لانفضح أغراض رواته، وغايات كاتبيه، وجهل حماته، وجهالة حافظيه؟؟

لماذا لانشير الى ركام سيئاته، ونادر حسناته، متخطين كل عقباته، ومزالق زلاته، ومهاوي عثراته؟؟

لماذا لاننتقل من التّسليم الى التفكير، ومن الموروث الى النقد، ومن المثالية ـ ان وجدت ـ الى الواقعية؟؟

في كتابي هذا سأوقف هذا التاريخ أمام محكمة العقل المستنير، والضمير المتيقّظ، سأوقفه متلبساً بجريمته، متلفعاً بجريرته، متّشحاً بجلباب عاره، وكفاه عاراً انه كرّس الفرقة والانقسام وأثّل العداوة والخصام وكاد ينحرف بالمسلمين عن رسالة الاسلام بما استوعبه من الركام.

* ساسترشد في رحلتي مع هذا التاريخ بهدي هذا الشاعر ـ المكزون ـ الذي عانى ـ على مايظهر من شعره ـ من هذا التاريخ ماعانى، وعالج من امراضه ماعالج، ولاقى من عنت المقلدين مالاقى، وناقش من هذه الآراء المنحرفة التي احتقبها هذا التاريخ وكرسها ماوسعه النقاش بمنطقة الحكيم، وعقله السليم، وعلمه الواسع وحجته البالغة، وشعره المتين، وحجاجه الرصين، وحرصه على تعزيز الاسلام، ووحدة المسلمين.

* إن دراسة سلبيات التاريخ لاتعني التشهير بالأمة أو بعصورها التاريخية، بل هو للحيلولة دون التردي فيه مرة أخرى.

ان محاولة إهمال، أو إغفال أو إخفاء مالايروق من أحداث التاريخ لأسباب دينية، أو سياسية أو عنصرية أو شخصية ماهو إلا خيانة للحقيقة التاريخية وانكار متعمد لوجودها.

انه سخف يسخر منه البحث العلمي ويذكرنا بغباء النعامة التي تخفي رأسها في الرمل حتى لاترى الحقيقة.

سأطرح التردد والوجل، والحذر والخجل داعياً الى خير العمل.

ح ـ ح

مدخل

جاء في الدراسة المعمقة التي تفضّل بها الدكتور محمد حاج حسين مايلي:

«ان الدراسة الأدبية لاتتحمّل كل هذه المقدمات رغم جودتها وعمقها وفائدتها، فالدراسة الادبية الحديثة تبتعد عن كل هذه المقدمات التاريخية، وقد تبالغ فترفض الحديث عن بيئة الشاعر وحياته، وليس أمامها - في رأيي - سوى النص، ولا علاقة لها بشيء آخر، تمعن في النص تحليلاً ودراسة.

مع تقديري لرأي الدكتور حاج حسين أقول: لو تسنى له ان يقرأ شعر المكزون ويتجوّل معه في آفاقه البعيدة العمق، المترامية السعة والشمول لعلم انه لم يقتصر على تاريخ عصره، ومايزخر به من ضروب المعارف وأفانين الثقافة، ولا على التاريخ العربي - الاسلامي ومافيه من الأحداث والمذاهب، ولأدرك ان فكره في شعره يمتد ويمتد عبر العصور السحيقة يتلمس خصائص الأمم والشعوب والأديان والمذاهب والنحل.

وفي المقاطع التالية التي اقتطفها من قصائده **المطولات، وأقدمها** هنا كمبرّر وتمهيد ومدخل بين يدي هذه البحوث التي يتضمنها هذا الكتاب - خير **دليل**، وأصدق شاهد، وأوضح عذر، وأبلغ حجة على «المنهج» الذي انتقيته، وقيّدت نفسي به، وارتضيته، وسقت به تلك المقدمات التاريخية التي اقتضتها لابل فرضتها طبيعة تلك البحوث ومن ذلك يظهر للقاريء والدارس ان مقدماتي التاريخية لاتخرج عن الموضوع، والنص الذي يرى الدكتور حاج حسين وجوب التقيد به، والاقتصار عليه. بل ترتبط به ارتباطاً تاماً ومباشراً، ولاتتعدى مقاصده العامة.

والى القراء تلك المقاطع.

أ ـ واحدة الحسن

١ ـ واحـدة الحسـن الـتي أمسيت من ... وجـدي بها بين الـبرايـا أوحـدا
٢ ـ وصرت فيـهـا «أمـة» يأتـمّ بي ... كل محبّ راح فيـهـا، أو غدا
٣ ـ صبـا اليّ الـصـابئـون اذ رأوا ... طرفي لنـجـم الحسـن فيـهـا رصـدا
٤ ـ واتّخـذ الـمـجـوس قلبـي قبـلة ... لما رأوا للنـار فيـه موقـدا
٥ ـ ولم أزل متـسّـعـا، مسّـبـعـاً ... مخمـسّـاً مثـلثـاً، موحّـدا
٦ ـ وبي اقتـدى في الحب من ثنّى ومن ... ثلّث، أو أسـلم، أو تهوّدا
٧ ـ وشيـعـة الحـق ارتـضـوا بسـنتي ... واتخـذوني في الـغـرام مشـهـدا
٨ ـ والحـنـفـاء تابـعـوني اذ رأوني ... في اتـبـاع رسـلهـا مجتـهـدا
٩ ـ والمـلحـدون حمدوا طريـقـتي ... لما رأوني لهواهـا ملحـدا
١٠ ـ والحكـماء العـارفـون صوّبـوا ... رأيـي برفـع الـوصـف عنهـا والبـدا
١١ ـ وظـنـنـي مجسـداً في حسـنهـا ... بصـورة غرٍّ غدا مجسّـدا
١٢ ـ فلا أرى في الكون شخصاً واحداً ... يهوى هوًى الا وبي فيـه اقـتـدى
١٣ ـ لأن داري لم تزل «دائـرة» ... تجمـع من ضل الـسبيـل، واهتـدى
١٤ ـ وكـل شيء خارج عنهـا اذا ... اعـتـبرتـه، وجـدتـه منهـا بدا[1]

ب ـ الأشتات المجتمعة

١ ـ قال: فهـل غيرك من ... يُعـزى الـيـه في الـبشر؟؟
٢ ـ قلت: نعـم في الهنـد أجيـال، ... وفي الـترك نفـر!!
٣ ـ وفي نواحـي الـسنـد والـنـوب، ... وفي أرض الخـزر
٤ ـ وفي بني الـيـونـان بالـروم ... الأسـاطـين الـكـبر
٥ ـ وفي بلاد الـفـرس من ... أولاده منـو شهـر
٦ ـ وخـلف صين الـصـين من بنيـه ... أصـنـاف أخـر

٧ - ومنه في الشرق وفي الغرب ميامين غُرر
٨ - والصابئون منه كهف الحنفا لهم وزر
٩ - ومنهم القوم الاولى لم ينحلوا يزدان شر
١٠ - وكل من هاد ومع طالوته خاض النهر
١١ - وقوم موسى والالى لهم سليمان حشر
١٢ - ومنهم من للمسيح الحيّ في الله نصر
١٣ - قال: أرى الاشتات في دارك جمعاً مختصر(٢)

ج - توحيد القلوب وتعدد الأهواء

١ - فيه توحّدت القلوب على الهوى وتعدّدت أهواؤهم فتعدّدوا
٢ - فارغب الى دار تخطّاها الشقا ولأهلها فيها النعيم السرمد
٣ - بالهند قبّتها، وفي أتراكها بئر، وقصر بالعلاء مشيد
٤ - وبصين أهل الصين منزل غيبها للشاهدين على الشهادة مشهد
٥ - لم يصب عنها الصابئون ولم يهد الا اليها في الهوى المتهوّد
٦ - انا في هواها مشهد ومغيّب فاعجب لأني واصف ومجرّد
٧ - ومنزه ومشبه، وموحّد ومعدد ومقرّبٌ ومبعّد
٨ - ومفوّض والجبر غير مجاحد عندي لأن عيانه لايجحد
٩ - ومكلف، ومرفّه، ومبصَّر ومبصِرٌ ومقلّد ومقلَّد
١٠ - متلفسف، متصوف، متسنّن متشيع، ذو رغبة، متزهد(٣)

---

١ - ٢ - ٣ - ديوان المكزون تحقيق ونشر الدكتور اسعد علي

فماذا يرى القارىء؟؟ انه يري أولاً: الامم والاجناس: الهند، السند الفرس الروم، الترك، النوب، الخزر، اليونان، الصين

ثانياً: والاديان الصائبة، المجوس، الحنفاء، اليهودية، المسيحية، الاسلام

ثالثاً: المذاهب والنحل السنة، الشيعة، الثنوية، التثليث، التعديد، التوحيد، التجسيد، التجريد، الاعتزال، التشبيه، التفويض، الارجاء، الجبر، التصوف، وارباب الحكمة والفلسفة!!!

اما يعني هذا مسحاً عاماً للتاريخ منذ فجره الأول حتى عصر هذا الشاعر ورصداً لكل ماتوصل اليه الانسان من المعارف في تلك المراحل الطويلة!!

لذلك فان دراستنا تقتضينا ان ندرس التاريخ دراسة عامة وشاملة لا أن نكتفي بالدراسة الأدبية بدون مقدماتها التاريخية.

ان دراسة الأمم والشعوب والأديان والمذاهب والثقافة توصلنا الى نتيجة كبرى وهي ان الانسانية بكل مظاهرها تلتقي في نقطة واحدة وترمي الى هدف وغاية واحدة وان اختلفت الوسائل وتعدّدت المسالك، وتباينت الطرق، وترامت المسافات.

وعلى هذا ليس لأحد أن يُدلّ برأيه، أو يتبجّح بعقيدته ويقول: انني أملك الجوهرة، وغيري يملك الحصاة، أو انني أقبض على الحقيقة، وسواي يقبض على الريح.

ونريد ان نقف ويقف معنا القراء عند قول هذا الشاعر الكبير في البيت السابع من القصيدة الاولى.

وشيعة الحق ارتضوا بسنتي واتخذوني في الغرام مشهدا

وعند البيت العاشر من القصيدة الثالثة:

متفلسف، متصوف، متسنن متشيع، ذو رغبة متزهد

ونعقب عليهما بقول العلاّمة صدر الدين شرف الدين: «التشيّع لم يعد كفراً ولا الحاداً، ولم يعد التسنن ضلالة ولا خروجاً على الاسلام كذلك، وانما هما في مفهوم الوعي

الحديث جدولان يتألف منهما نهر الاسلام الكبير فلا يخطىء الاسلام متدين، تشيع، او تسنن، اما الذين يخطئونه حقاً فهم المرجفون، المفرقون، المتعصبون من الفريقين[1]

انها دعوة حقة، صريحة، لوحدة المسلمين وايمان واستجابة لقوله تعالى: واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا، فتفشلوا وتذهب ريحكم.

(١) صدر الدين شرف الدين في مقدمة كتاب «ابو هريرة» لمحمود «ابو رية» ص ٦

مقدمة الجزء الأول[1]

قارئي:

إنني في هذا الكتاب لا أتعصّب لرأي، أو نظرية، أو مذهب، ولكنني استعرض الآراء، والمذاهب، والنظريات.

استعرضها استعراضاً، متلمّساً خصائصها ومميزاتها، مقارناً بينها وبين نظائرها واشباهها، لتظهر الفوارق، وتتضّح نقاط التلاقي والابتعاد، وتتبيّن مواطن المقاربة والمشابهة.

وعلى هذا فمنهجي في هذا البحث هو «منهج الأشباه والنظائر» للدلالة على مدى التأثير والتأثر.

انني أطوف بك في رياض الفكر الانساني، ومجاهل العقل الفلسفي، وعالم الروح الصوفي.

قد تطالع فيما تقرأه آراء الفلاسفة، ونظريات الحكماء، وشطحات المتصوفة، وخيالات الشعراء. في كل جيل وقبيل، وزمان ومكان، من اليونان، والفرس، والرّومان، والهند، وقدامى المصريين، والعرب.

وقد أطلّ بك على مختلف الأديان السماوية: كاليهودية، والمسيحية، والإسلام.

والوثنية: كالبوذية، والجينية، والزرادشتية، والصابئة. وربما اتّسع امامك الإطار، فتلمّ بالآراء الجدلية، وعلم الكلام، ومذاهب الفِرق والنحل، من الأشاعرة والشيعة، والخوارج والجبرية والمفوّضة، وحتى الزنادقة والملحدين.

---

[1] لم نتمكن من اعادة طبع الجزء الاول والثاني فوضعنا مقدمتيهما في أول هذا الجزء، والمقدمة تكون عادة كمفتاح ودليل لابحاث الكتاب.

وتتعرّف على مدارس الفكر الصوفي من الاتحادية، والتجريدية، والشهودية، والوجودية، والاشراقية، والفيضية، والسالمية، و. و. و. الخ . .

وقد يطيب لك أن تسألني مقدّراً، أو منكراً، جاداً، أو هازلاً، لم كل هذا؟؟ وانت تدرس شاعراً متصوفاً!!

وجوابي: إن هذا الشاعر يختلف عن غيره من الشعراء، فهو شاعر، ومتصوّف، ومتفلسف ـ ولا أبالغ إذا قلت: فيلسوف ـ تعمّق في كل علوم عصره، الحافل بثمرات العقول والأفكار، والعاجّ بمختلف الثقافات.

عالج في شعره المنطق، والفلسفة، والطبيعة، والفلك، والرياضيات، والتصوف، والفقه، والشعر.

ومارس الزهد والتقشف.

وراض السياسة والإمارة.

وقاد الجيوش، وغزا الأعداء.

وانتصر. . وهُزم.

وشارك في الاختلافات، والجدل المذهبي، ومسائل الإمامة، والخلافة، وكل النزعات المذهبية، التي عرفها المسلمون في عصره، وما قبل عصره.

كما ناقش أهم المسائل والنظريات لكبار الفلاسفة والمتصوفين والمتكلمين. والمحدثين، بمنطق يجمع بين البلاغة، وقوّة الحجة، والسند العقلي والنقلي.

اذا علمت هذا، فاني أرى أنه من المفيد أيضاً ان تعلم أن العصر الذي عاش فيه المكزون امتاز عن غيره من العصور السابقة، وحتى اللاّحقة بما توفر له من العلوم والفنون، والثقافات المختلفة، فقد تلاقت فيه الحضارات من فارسية، وبيزنطية، وهندية، وعربية، وغيرها. . . وتفاعلت فيه العقول والأفكار، والمعارف، واختلطت فيه الأمم والأجناس، والشعوب والعناصر، فكثر فيه ـ نتيجة لذلك ـ الجدل والتنافر، والتلاحي والتفاخر، والتشاحن والتطاحن.

عناصر مختلفة من فرس ورومان، وترك وسودان، وجركس وديلم، وأرمن وأكراد، وكرج وكلدان، وآشوريين وعرب.

وهناك الأديان المتعددة:

المسلمون، واهل الذمة.

والنصارى واليهود، والمانويون والصابئة.

أضف إلى ذلك المذاهب والفِرق كالقَدرية، والدهرية، والجهمية، والمجسّمة، والحشوية، والمرجئة، والجبرية، والمعتزلة، والحنابلة، والاشاعرة، والعلويين، والعثمانيين، والخوارج، والشيعة، والامامية (السبعية، والربعية، والاثني عشرية، والزيدية والاسماعيلية).

والغلاة (السبئية، والعليائية، والكيسانية، والسليمانية، والخطّابية، والراوندية، والنعمانية).

وهناك الصوفية والمتصوفون، والفلاسفة، والمتفلسفون، وأرباب النزعة الكلامية، وأهل الظاهر والباطن، وأصحاب النص، والقائلون بثنائية الشريعة.

عناصر وأجناس، وأديان، ومذاهب، وفِرق ونِحَل، تتصارع وتتلاسن، وتتشادّ وتتلاحى، ولكل رأيه الخاص، وحلمه الذهبي، وغايته المذهبية، والسياسية التي يسعى لتحقيقها بما يملك من الوسائل. وقد يبلغ الأمر ببعض هذه الفرق أن تخرج عن حدود الجدل، وأدب المناظرة، فتكفّر نظراءها، وتتّهمهم بالمروق، وتقيم عليهم النكير، وتجيّش عليهم العامّة والرعاع، وتحرّض ضدهم ذوي النفوذ والسلطان، وتلفق الأقوال، وتفتري الأحاديث، وتهيء شهود الزور، وتستصدر الفتاوى والأحكام، فتقتل، أو تصلب، أو تحرق الأبرياء لمجرد أنهم اخصامها، أو تزج في غيابات السجون، أو تلقي في متاهات النفي، وصحارى التشريد من لم يشايعها.

جدليون لايهمهم أن ينتصر الحق، أو تعلو كلمته، وإنما يهمهم انتصار آرائهم، وتدعيم سياستهم، شأنهم في ذلك شأن ملافنة اللاهوت المسيحي في عهد بيزنطة... دولتهم تنهار، وعدوهم على أبواب مدينتهم، وهم في نقاشٍ حادّ، وجدال حارّ، في جنس

الملائكة، وكيفية انبثاق الروح القدس.

هكذا كان شأن علماء المسلمين في القرنين الخامس والسادس الهجريين.

الفتن تشتعل في كل مكان وناحٍ من البلاد، والفساد يتفشى في الدولة.

خلفاء يقتلون سبّاً، وصلباً، وصبراً، وتجصيصاً، وخنقاً، وشنقاً. ونساء، وعناصر أعجمية تدير الأمور، وتسيطر على القصور.

وبعض الخلفاء والولاة يخمرون ويلهون تاركين أمر الدولة لاتباعهم وأشياعهم، وجواريهم.

الفتن والثورات تهدد الدولة من الداخل، والتتر، والمغول، والصليبيون والعناصر الأخرى الحانقة الناقمة تتحفّز للانقضاض عليها من الخارج، وعلماء المسلمين مشغولون بتشريح الله، وتحليل صفاته.

هل له وجه ويدان؟؟

تحت وفوق؟؟

أبوسعه أن يستوي على العرش؟ وكيف؟

ألسانه متحرك منذ الأزل؟ وبماذا؟ ولمن؟

إن صح أنه عليم، فهل يصح التقرير إنه العلم؟

وإن صح التقرير انه قدير، أيجوز القول: انه القدرة؟

هل هناك عرض وجوهر؟

إلى غير ذلك من المشاكل، وضروب الكلام، وتعدّد النزعات، وتباين الأقوال.

وهكذا نرى مجتمعاً متفككاً متبلبلاً، متنازعاً ومتقسّماً، تسوده الفوضى، ويعمّ الاضطراب كل مظهر وناحية منه.

قوم ابتلاهم الله بالجدل والتناكر، والأطماع والتنابذ!!

في هذا العصر، بل في هذا البحران السياسي نشأ المكزون وعاش، ومارس طاقاته الفكرية والسياسية، وكتب شعره، وأودعه آراءه وأفكاره، وأحكامه في كل قضايا عصره.

إذا علمت هذا زال استغرابك، وانجلت أمامك الحقيقة، وامّحت الشبهة والتشكّك اللذان راوداك، واستبـان لك القصـد وحسن النية اللذان دفعـاني لتقصّي هذه الآراء، واستخـلاص هذه الأفكـار من مئـات المـراجع والمظانّ، وعرضها أمام ناظريك في هذا الكتاب، وعقد المقارنات بينها، ليتسنى لك الحكم الصائب لها، أو عليها.

وإني لأعلم مسبقاً أن هناك أسئلة كثيرة سيطرحها القراء عقب صدور هذا الكتاب، ووصوله إليهم، بعضها جدير بالإجابة، وبعضها خليق بالاطراح والإهمال.

فمن قائل: ما الغرض، وما القصد والغاية من كتاب يضعه مؤلفه في مباحث الروح والتصوّف في منتصف النصف الثاني من القرن العشرين قرن المادة والذرّة، وارتياد الكواكب؟؟

وقد لا أعدم من يقول: لماذا خرقت الجدار، وهدمت الأسوار، وأخرجتنا من ظلام الليل إلى ضوء النهار؟ فأين التقية؟؟

وسـيرى قوم فيه تأكيداً على القـوى «الغيبية» وشغلاً للأذهان والأقلام بخفاياها، ومجاهيلها، وهي التي غلفت هذا الشرق قروناً وقروناً حتى اختلطت فيه الحقيقة بالخرافة، والتبس الواقع بالأوهام، وان دخان التصوّف مازال يعمي أبصار الشرقيين عن رؤية الحقائق العلمية، لأنـه أسلوب حدسي تخميني، يفسر الـواقـع بالشعر والخيال، ويخضع الحقيقة والواقع للحالات الوجدانية، ويعتبر العقل عاجزاً عن فهم الكون.

وجوابي لهؤلاء وأولئك: .

اولاً:

إن سيطرة المادة في هذا العصر على الروح والمشاعر والعواطف الإنسانية، وتحكّمها بتصرفات الفرد والجماعة، وطبعها بطابع المادة الصرف الجاف القاسي، سيقود الإنسانية في طريق الويلات، والبكاء، والدموع وصرير الأسنان.

إن استغلال الشعوب، واستعبادها، واستنزاف مواردها وطاقاتها، ما كان إلا بفعل سيطرة المادة، وتحكّمها بالميول البشرية، وعدم تقديرها للقيم الإنسانية.

إن مؤسسات الشر على تعدّدها من السجن الصّغير إلى المجازر الرهيبة. ومن الخنجر، إلى القنبلة الذرية المدمرة، ومن الجوع الفردي، إلى تشريد الجماعات، كلها مرتبطة ارتباطاً حميمياً بالنزعة المادية، واستيلائها استيلاءً يكاد يكون مطلقاً على ميول وعقل الإنسان المعاصر، وتمردها على أحكام الضمير ونوازع الوجدان، وقوانين الأخلاق.

قد يقال: إنها قوام الحياة، وعصب الحضارة، وسر حركيتها... هذا صحيح!! ولكنها بحاجة إلى الصقل والتهذيب، والتنسيق، وإن الإنسانية والنزعات السّامية بحاجة ماسة وملحة إلى الحماية من جرائمها، وطغيان وبائها.

لهذا كله ولأغراض أخرى مبسوطة في المقدمة مقدمة الكتاب ـ جئنا بهذه النفحات الروحية لتسهم ـ ولو بقدر يسير ـ في تلطيف جو المادة اللاهب. ولتنثر رشاشاً روحياً على سعير النفوس، وتمد ظلالاً ندية على الصحاري العطشى الملظاة.

ما أحوجنا إلى ما ينشر في النفوس، وفي المجتمعات أنداء الرحمة، ويبسط عليها أفياء العطف والإحسان، والتسامح، ويوشحها بغلائل الحب والتعاطف بدلاً من حميم الظلام والأكداء والأحقاد، والتباغض.

ما أحوج المرء ـ كل امرىءٍ ـ إلى ما يهدهد أحلامه وآماله، ويصقل مشاعره، ويهذب ميوله الطاغية، وعواطفه المتحجرة، وضميره المتمرّد، ويشعره بتلك «الرقابة العليا» التي تطلّ من فوق رقابة الأنظمة والقوانين، ليسير وفق نظام الأخلاق، وضمن قواعد السلوك، وشروط مثالية الفرد، ليخلق، أو ليساهم في خلق المجتمع المناضل المثالي الذي تغمره السعادة وتسوده الفضيلة، وترفرف عليه الطمأنينة، ويحقق فيه الإنسان إنسانيته.

ثانياً:

وأما الذين يخافون الظهور والصراحة والوضوح، ويؤثرون القبوع في الظلام، ويرون التستر والتخفي والاعتصام بالتقية ملاذاً لهم، وستراً لضعفهم وأمراضهم، فنقول لهم ما قاله السيد المسيح: ليس أحد يوقد سراجاً، ويغطيه بإناء، أو يضعه تحت سرير، بل يضعه على المنارة لينظر الداخلون النور. لأنه ليس خفيّ لايظهر، ولا مكتوم لايعلم، ويُعلن، فانظروا كيف تسمعون، لأنه من له سيُعطي، ومن ليس له فالذي يظنه له يؤخذ

منه(١)

إن التقيّة بعد أن زالت أسبابها السياسية لم تعد إلا جبناً متوارثاً، وخوفاً تاريخياً لم يبق له أي مبّرر.

ليت هؤلاء «المتّقين» علموا أو يعلمون أن «تقاهم» أعطى كتبة التاريخ حقاً، وأفسح لهم مجالاً أن يتقوّلوا عنهم وفيهم ما طاب لهم التقوّل، ويظنوا بهم الظنون، ويرموهم بشتى التُّهم، ولهم كل العذر في الكثير مما تقولوا، وظنوا، واتّهموا، فالمجهول عرضة لكل افتراض، والخفيّ موضع كل احتمال، والمتلبس مأخوذ بتهمة الالتباس!!

وماذا وراء هذا التخفي والإتقاء؟؟ هل وراءه إلا الإفراط والمغالاة في الحزبية السياسية؟؟ وهل كان أحد الطرفين أقلّ إفراطاً من الطرف الآخر؟؟

كل ذلك كان من جراء «التمذهب» السياسي، وقول كل طرف من الأطراف المتنازعة في صدر الإسلام أن صاحبه أحق بالخلافة من سواه، أو أولى بالتقدم على من تقدمه، وهل يخرج كل هذا عما هو جار في هذا الزمن، وفي كل زمن، بين الفئات التي تتنازع على السلطة والنفوذ!!؟؟

لقد تصرم ذلك الزمان، ومضى المتنازعون إلى ربهم، فلماذا نبقي النزاع؟؟ لماذا تبقى «التقية» امتداداً ودليلاً على ذلك النزاع؟؟

لماذا نبقيها عنواناً على الخوف والاضطهاد، بعد زوال الخوف والاضطهاد؟؟

إن فساد الهواء لا يأتي إلا من النوافذ المغلقة!!

والجفاف لا يأتي إلا من الانغلاق على الذات.

والانفتاح على التجارب الإنسانية يثري التجربة الإنسانية ويغنيها.

وما كان للبشرية أن تطل على مشارف حضارية جديدة من فكرية وأخلاقية وسياسية لولا هذا الانفتاح.

---

(١) انجيل لوقا الاصحاح الثامن ١٦

إن التردّد، والجزع، والعُقد المتراكمة، والدجل، والتوتر العصبي، ليست إلا سياطاً لاهبة تسوط التفتح النفسي.

علينـا أن نرفض اليوم كل أسلوب تقليدي يفرض الظن بأن البعض يملك الحقيقة، كل الحقيقة، وأن الآخرين لايملكون إلا قبض الريح.

هذا ظن آثم يضر بالحياة، ويقضي على روح المواخاة والمعايشة.

علينا أن نرفض بكبرياء كل انغلاق يسمّم الحوار المفتوح، ويتعارض مع الأخذ والردّ والعطاء.

وعلينا ـ وقبل كل شيء ـ أن نذكر دائمًا أن كل انحراف والتواء في سير أمتنا التاريخي لم يكن نابعـاً من طبيعتهـا الإنسانية. وإنما عملت له، وهيأته الشعوبية الحانقة الحاقدة المترصدة، فقسمت الأمة إلى معسكراتٍ متصارعة، فسهل عليها بذلك تمزيق وحدتها، ولم تكتف بكل هذا بل صبغت كل أعمالها بصبغة دينية، لتجعل لها طابعاً شرعياً، إمعاناً في الكيد، وترسيخاً للخلاف، وتعميقاً للتفرقة، وتكريساً للانقسام!!

فعلينا أن نغسل نفوسنا وتاريخنا من أدران الشعوبية، ومن كل ما يتصل برواسب تلك الحقبة التاريخية التي تجاوزها الزمن، وتنكر لها العقل الواعي.

هذا!! وأراني مضطراً إلى القول: بأن هناك فئة من ضعاف المعرفة تحاول أن تنتسب إلى العلم وأهله، وهي مغـرقـة في الجهـالة والأوهام، وأسوأ الناس في نظرها من يحاول تصحيح أفكارها المشلولة الآسنة الراكدة.

في زحمة تطلعات العصر لا نستطيع أن نمنع عقلنا من البحث والتفكير لأنه أشرب حب المعرفة التجريبية، وآمن بالحق والحرية.

إنك لا تستطيع أن تقول للناشىء الذي درس العلوم الحديثة: اترك هذا الرأي، أو دع تلك الفكرة، ولا تؤمن بهذه النظرية، لأنك أنت لا تقر ذلك، أو لا تؤمن به، لأنه يتعارض مع اعتقادك، وإن أول ما يجيبك به هذا الناشىء الشابّ هو سؤاله لك.. لماذا؟؟ وأنا بدوري أسألك لماذا تحاجّه فيما ليس لك به علم؟؟

إن العقل المزود بالحوافز الحضارية، والدوافع الغريزية، وحب الاستطلاع، ومحاولة

اكتناه أسرار الكون وبإصرار عجيب، لا يقف عند الحدود التي نرسمها له، أو رسمها له التاريخ البعيد!!

وليس من العلم في شيء أن نقف عند إحساس ورغبات وأخيلة من سبقنا، ولا أن نعيش في نطاق تكوينهم العقلي والفكري والفلسفي إلا بعد امتحان هذا التكوين، وعرضه على المقاييس العلمية الصحيحة، والوصول إلى النتائج التي يصح التسليم بها، والركون إليها.

إننا بالفحص العلمي لبنيتنا الفكرية والعقلية والاجتماعية نستطيع أن نستخلص من تراثنا ـ وبطريقة علمية ومنطقية ممحصة ـ حالةً فكرية واعية غير متعارضة مع العقل والمنطق والحقيقة.

وفي الوقت الذي ندعو فيه إلى مناقشة أفكارنا وتراثنا وتنقيتها من الشوائب، وتصفيتها من الأدران، نعلن أن ذلك لا يقتصر على النواحي والجوانب السلبية منها، والعمل على فرزها وتنحيتها من حياتنا الفكرية والعامة.. في الوقت ذاته ندعو وبإصرار إلى صقل الجوانب الإيجابية الوثيقة الصلة بالحقيقة، والحركة التاريخية المتطورة، وإلى العناية بنشرها، وعرضها والوقوف عندها، والمباهاة والاعتزاز بها.

ما أشبه الحقائق التي ورثناها بالجواهر التي سقطت ـ بسبب ما ـ في الأوحال، فغشى ذلك على بريقها، وخنق لمعانها ولألاءها، فما أحوجنا لصقلها وجلائها، وتخليصها وتصفيتها مما علق بها.

أما أولئك المتاجرون بالخرافة والشعوذة والأسطورة، والوهم والإيهام، الواقفون عند القشور، فنقول لهم: إن عصر الإتجار بالله، والاستغلال، والتمويه على البسطاء والسّذج، وقصار النظر، وضعاف المعرفة، وصغار العقول، قد انتهى، ودالت أيامه.

لقد تطورت الأشياء والمناهج حتى ما له صفة الاستمرار كالحق والخير والجمال.

لقد استحالت العبودية إلى إقطاعية، ثم إلى رأسمالية، ثم انتهت إلى اشتراكية، وأصبح الناس يؤكدون وجودهم، ويحققون المعرفة والعدالة بأنفسهم مباشرة، لا بالواسطة التي تدّعونها وتمارسونها.

لقد هزم الإنسان الخوف، وأصبح يبني آماله على المعقولات، لا على الأخيلة والتمنيات، ونشاط الوسطاء بينه وبين قوى الغيب.

الإنسان اكتشف طريقه إلى الله، ولم تعد به حاجة إلى الأدلاّء.

إن دارسي الكيمياء من أبنائنا يلهون بالعالم الذي ينحل ويتركب بين أيديهم، وأمام أبصارهم بدلاً من أجدادهم الذين كانوا يتلهوّن بالتمائم والتعاويذ، واستحضار الأرواح!!

وطالبي الفلسفة يفتحون عيونهم على تراث مزيج من التّرهات والواقع!!

ثالثاً:

١ ـ أن الغاية من التأكيد على القوى الغيبية هي إبراز الحقائق وتجريدها مما علق بها من الأوهام، والخرافة والأساطير، وما أكثر الأوهام والخرافات والأساطير في حياتنا العقلية.

٢ ـ العمل على تخليص الإنسان ـ إنسان هذه البقعة من العالم ـ من الزواسب التي شلّت عقله وتفكيره، وكل طاقاته.

٣ ـ ولعل من أولى الدوافع وأبرزها، وألّحها على نفسي، وأكثرها اعداداً وتهيئة لها، وأقواها دفعاً وحماساً لإنجاز هذا المشروع ـ مشروع الكتاب ـ وإظهاره من عالم الرغبة إلى عالم الواقع هو ما يعانيه مجتمعنا بصورة عامة، وناشئتنا بصورة خاصة من الفوضى الفكرية، والقلق النفسي، والتمزق الروحي، والضياع والازدواجية، ونجزئة الذات، وتوزّع الضمير والوجدان بين موروثات تقليدية تجمعت فيها الحقيقة والأسطورة، والوهم والواقع التاريخي، وبين معطيات حضارية علمية حديثة.

تلك تشدّ بنا إلى الوراء بقوة وعنف، وهذه تدفع بنا إلى الأمام بالعنف والقوة نفسيهما!!

قوتان تتصارعان في أنفسنا، وينعكس صراعهما على تفكيرنا وحياتنا وأعمالنا، واتجاه مجتمعنا، ونحن نتراجح بين هاتين القوتين، ونعاني مرارة هذا التصارع.

إن الالتفات إلى الوراء، والوقوف عند عطاء التاريخ القديم والجمود عند هذا العطاء الذي تجاوزه الزمن ـ أو تجاوز أكثره ـ إن ذلك ليعوق ركبنا عن مواكبة ركب الحضارة الحديثة، ويصيب تفكيرنا بالشلل، ومجتمعنا بالتردّي والجمود والتخلف، ويفرض علينا

العقم، وبالتالي الانقراض.

إن القناعة والرضا والاستسلام لمخلفات موروثة لم نستطع أو لم نحاول إخضاعها للتحليل المنطقي العلمي لهو السبب المباشر لتخلفنا الفكري والمادي.

هذه الموروثات والمسلّمات، وهذا الركام من التقاليد، عطلا فينا كل طاقة مبدعة خلّاقة.

هذه الموروثات التي خلّفتها عصور الجهل والغفلة والانحطاط لم نستطع مهما حاولنا أن نثبتها بشروط علمية، فهل من العلم في شيء أن نحتفظ بما لا يقره العلم؟؟

إن تفكيرنا مشلول، مقيّد مغلول لأنه ـ قبل كل شيء ـ لاهوتي محض، يفسر كل شيء تفسيراً لاهوتياً، ويعالجه علاجاً لاهوتياً غيبياً.

وخيالنا ـ نتيجة لذلك ـ إذا انطلق انحرف عن موضوعه لعجزٍ في طاقته عن تخطيّ واقعه الذاهب في أعماق التاريخ.

هذا الخيال ـ على خصبه ـ عاجز كل العجز عن اجتياز الأسوار التي تحده وتحاصره.

إنه لا يستطيع الإفلات من قيوده وأغلاله، إنه محاط بتصورات غيبية متحفزة مترصدة، ومشدود شداً محكماً إلى عالمٍ مركب تركيباً عجيباً غريباً مخيفاً، يذخر برغبات وصور متعددة متباينة.

هذا العالم ـ على ما وصفت ـ هو الذي يصنع تفكيرنا، وبالتالي يصنعنا، ويصوغ شخصيتنا القلقة المعذبة.

إن تفكيرنا الموروث، ـ وإذا تساهلنا قلنا: الكثير من هذا التفكير ـ لايمنحنا إلا أفكاراً تاريخية ثابتة، لا تتحرك بالسرعة التي تتطلبها الحياة المعاصرة، وطبيعة الزمن، فالأحكام الفكرية والعقلية التي انتهينا إليها منذ أبعد الأزمان لم تزل هي نفس الأحكام التي نحيا عليها اليوم.

إننا ونحن في وداع القرن العشرين نشد جميع وحدات هذا الكون وحقائقه إلى تفسيرات نهائية لا نتحول عنها.

نحن ـ لسوء الفهم ـ لا نتصور التاريخ والأمم، والحقائق الكبرى الكونية والإجتماعية حركة دائبة مستمرة خاضعة لناموس التطور العام. بل نتصورها تصوّراً غيبياً، وهذا ما يجعلنا في غربة فكرية، وعزلة عقلية مريرة موحشة.

الجمود التقليدي يقضي على حيويتنا، ومعركتنا مع الحياة تقتضيها الحركة والوضوح، فلماذا وإلى متى يظل تفكيرنا وتاريخنا خارج القانون العام؟؟

لماذا يظل تفكيرنا جموداً بلا حركة؟؟ فهل تفردّنا بوجود خاص يتحدى الطبيعة؟؟

إلى متى يظل تفكيرنا اتكالياً هارباً من نفسه؟ أو يسير سيراً آلياً جبرياً ضمن حدود فرض عليه أن لا يتجاوزها؟؟

لماذا نريد أن نؤمن، ولا نريد أن نفكر؟؟؟

وهل كان الإنسان «الحق» إلا نتيجة التفكير الحر؟ أو لم يتفكروا في خلق السماوات والأرض وخلق أنفسهم.

أما الإيمان التقليدي فهو قائم على مبدأ «عطل حواسك وآمن».

لماذا نهرب من مواجهة الحقائق إذا كنا نملك سلاح المواجهة؟؟ إن «المتابعة المستمرة» والتفكير بعقلية جامدة لا يكونان إلا عند قومٍ لا يؤمنون بالخلق والإبداع، قوم عقيمين اتكاليين.

إن كل ارتباك في تفكيرنا يعود أساساً ـ كما سبق وقلنا ـ إلى بقايا نُظُمٍ وأفكار اجتماعية تقليدية، ومجموعة من الأوهام بين الحقائق الثابتة المقطوع بها.

إننا نعوم بالشك، ولدينا القليل من الحقائق الواضحة.

لذلك كله رأيت أننا بأمس الحاجة لإجراء عملية فرز وتقييم وتمحيص وريازة لهذه المخلّفات والنظريات، والمسلمات التقليدية التاريخية.

وكما قلت في منهجية البحث: إنني أعرضها عرضاً تاريخياً، وأقارن بينها مقارنة علمية منطقية، ثم أدع الحكم للقارىء ليقرر بدوره أين تكمن الحقيقة، وأين تعشش الخرافة.

ليس للقارىء أن يطالبني بالأحكام القاطعة النهائية، فذلك ما أعتبره خروجاً على منهجي الذي قيدت نفسي به والذي يرتكز على عقد المقارنات و «المحايدة» لأن الرأي

الشخصي مهما كان منصفاً ومجرداً من أثر «الأنا» فهو عرضه للنقد والتجريح، والمظنة والاتهام.

لقد حاولت جاهداً أن أجانب كل هذا، وابتعد ما استطعت عنه، وإني أراقب نفسي مراقبة تامّة متيقظة خوف جنوحها إلى «الحزبية اللاشعورية».

قد يمتلك الفرد منا الهوى، ويستيقظ في أعماقه الحقد على من يخالفه في الرأي، فيضع في سبيل وخدمة هذا الحقد كل قدرته على الإبداع الجدلي العقلي، وهذا هو الجهل المخجل.

ولكن ليطمئن القارىء أن جميع الآراء والنظريات الصوفية والمذهبية والفلسفية التي أعرضها في كتابي هذا مشبعة بالبحث والتتبع التاريخي المنهجي، واضحة ومجردة بطريقة المقارنة والموازنة، والمقايسة، وبذلك تبدو له جليّة معراة تأخذ محلّها من سلسلة القيمة والتقدير، فيضيفها إلى حصيلة الأفكار التي يؤمن بها، أو يطرحها وينبذها.

وأنا موقن أنه سيجد تفاهات تثير الدهشة والاشمئزاز، وهذه يمكن عزلها، بيسر وسهولة، كما سيجد حقائق بالغة القيمة في عَالَمَيْ الحقيقة والعقل، وهذه يمكن اعتبارها مقوّماً عقائدياً، ونظاماً خلقياً، ومنهاجاً حياتياً ينير آفاقنا العقلية، والاجتماعية والإنسانية.

هذا بمجموعه ما حدا بي إلى التركيز والتأكيد، وتسليط الأضواء على القوى الغيبية، لأنني أريد أن تجرّد هذه القوى من كل ما علق بها، وصيغ حولها من الأوهام، وما ارتبط بها من أساطير، ليكون العلم والإيمان بها صحيحَيْن.

لقد أفرطنا في الركض وراء القيم الروحية حتى ضمرت فينا وانضمحلّت قيم المادة.

أغرقنا أنفسنا وتاريخنا «بالماورائيات» حتى غدونا نعيش في «الغيب» ونحن على الأرض، فتنكرت لنا الأرض.

والحق أن في وسعنا الوصول إلى نتائج لا جدال فيها إذا نحن وضعنا الوقائع التي نقلها إلينا التاريخ على محك النقد.

إنا ندعو إلى تعادل القيم الروحية والمادية «اعمل لدنياك كأنك تعيش سرمداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

والـذين دفعـوا بسقراط إلى تناول السمّ، وسمّروا المسيح على الصّليب، واحرقوا «بـرنو» حياً، وعذبوا «غاليلو» واضطهدوا المصلحين لأنهم بشروا بحرية الفكر، واطلقوا العقـل من عقـالـه، وتمـردوا على التقاليد البالية، وعاشوا «الإنسان». إن هؤلاء لم يعد باستطاعتهم أن يحضروا السموم القاتلة الناقعة، ويهيئوا خشبات الصليب، ويسعروا النار المؤججة للقتل والصلب والإحراق.. هؤلاء لم يعد بإمكانهم التحكم بمصير الإنسان والإنسانية.

لثـورة الـفـكـر تاريـخ يحدثـنـا بأن الـف مسـيـحٍ دونها صُلِبَـا

وبعد!! فهذه الدراسة ـ دراسة المكزون ـ تستعرض بصورة مباشرة، أو غير مباشرة المراحل «الحادة» التي مرّ بها هذا الشرق العربي ـ والإسلامي منذ ثمانية قرون، والتي لم تزل آثارها مستمرة، وعصاها اللاهبة الراعفة لم تزل تسوط فكرنا وعقلنا حتى اليوم.

إنها مرحلة عنيفة من الجدل الفلسفي، والتّشبّث المذهبي، والتّزمت الديني تميزت عما سبقها، وأثرت فيما تلاها من مراحل التاريخ.

تلك الحقبة التي قال فيها أحد الزنادقة ـ وقد جيء به للقتل ـ: أمهلوني إلى غداة غد؛ والله لقد وضعت من الأحاديث ما حللت فيها الحرام، وحرمت الحلال، لقد فطرتكم يوم صومكم، وصومتكم يوم فطركم.

فهل يتسنى لنا ـ في هذه الدراسة ـ أن نميز الغث من السمين، ونفرز الصحيح من الزائف، ونصوم ونفطر في الأيام المعدودات لا كما أراد لنا ذلك الزنديق؟؟

إن الكثير من المحاجّات والمشارّات، والآراء الجدلية التي حفلت بها تلك الحقبة التاريخية، سنعرضها بأمانة ووضوح أمام القارىء منذ نشوئها حتى زمن المكزون، فكل ما تجاوزه الزمن بالنسبة للقارىء المعاصر يستطيع أن يحيله إلى متحف التاريخ، وما هو أصيل وعميق في طبيعة الفكر، والإنسان والحياة فعليه أن يتناوله جوهراً نقياً نفيساً يتحلى به.

الزبد يذهب جفاءً، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

إنها ـ كما قلنا ـ نفحات من دنيا الروح، عرفها هذا الشرق في عصوره الحالمة، نقدمها في هذا العصر المحموم، المتقلب على جمر المادة، ولهيب الأطماع، ونأمل أن تلطّف من هجير النفوس، وتهدهد من صحراء القلوب، وتنطف ظلالاً وأنداءً على دروب الحياة، ويجد فيها شبابنا الظامئون جُرَعاً من معين الروح تطفيء المواجيد الظمأى، وتريح الأنفس التعبَى، وتعيد إلى الأذهان صورة مشرقة وضاءة من فلسفة الشرق الروحية... صورة منتقاة مصفّاة من الشوائب والأكدار خالصة لوجه الحق والخير والحياة والإنسان.

دمشق في ١/٤/١٩٧٠

حامد حسن

مقدّمة
الجزء الثاني

الأسوة الحسنة

يا رسول الله.
يا ابن عبد الله.
لقد أدبك ربك فأحسن تأديبك.
خذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين.
جئت قومك بالهداية.
وفرشت في دروبهم النور.
وحملت اليهم السماء.
فكذبوك.
واغروا بك سفاءَهم.
فرجموك.
وأشرق الله في قلبك حباً وغفراناً فهتفت:
ربي اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.
ولنا بك يا رسول الإنسانية أسوة حسنة.

ح.ح

المنهج

اولاً: التبسط في مقدمات الابحاث.
ليسهل الوصول الى النتائج[1]
ثانياً: عقد المقارنة بين الاشباه والنظائر.
وأثر السابق في اللاحق[2]
ثالثاً: الاحتكام الى العقل عند اضطراب النقل[3]
رابعاً: التتبع التاريخي.[4]
خامساً: استعمال المصطلحات الفلسفية كاطلاق: الواجب الوجود، أو الموجود بذاته، على الله.
واطلاق: الموجود الثاني، أو الموجود بغيره على العقل الفعال.

سادساً: عقد المقارنة وإيراد أقوال التاريخ في قضايا الخلاف، والتزام الحياد، وترك الحكم للقراء.

ويظهر ذلك في:
١ ـ مباحث التصوف في الجزء الأول ومدارسه حتى تم لنا تحديد تصوف المكزون.
٢ ـ المدخل الى الأدب واللغة في الجزء الثاني. توصلاً الى أدب المكزون.
(٣) مباحث الحديث والاجماع.
(٤) ـ مباحث الالوهة والدين في الجزء الثالث تدرجاً للوصول الى الفلسفة الإلهية عند المكزون.
والمقارنة بين أديان التاريخ والكتب المقدسة.

الفصل الأول

الانسان والاله

من أين نبدأ؟؟

للإجابة على هذا السؤال، أو التساؤل، لابدّ من وضع مخطّط لمراحل الفكر الإنساني، وتعيين مدى تطوره عبر عصور التاريخ.

ويمكن أن نعتبر أن الفكر الإنساني مرّ بثلاث مراحل:

أ ـ مرحلة ما قبل التاريخ، أو مرحلة الأساطير، ونستدل عليها بالمكتشفات والأحافير، وما تقرر علمياً على ضوء هذه المكتشفات.

٢ء ـ مرحلة التاريخ المدوّن، ونعتمد الكتب المقدسة بدءاً من العهد القديم ـ التوراة ـ في تقصي وتتبع فكرة الألوهة في هذه المرحلة اللاحقة.

٣ء ـ مرحلة العصور الحديثة، والأدلة علمية منطقية وعقلية.

واذن: فلابد للعقل الإنساني في حركيته المستمرة، وتجاه هذا المسألة خاصةً ـ مسألة الألوهة ـ من التحرك في اتجاهات ثلاثة:

أولاً: اتجاه ديني معتمداً بالدرجة الأولى الكتب المقدسة، والفلسفة أحياناً، ولكنها في هذا الطور من التاريخ خاضعة للدين.

ثانياً: الإتجاه الفلسفي مستعيناً بالأقيسة المنطقية، والبراهين العقلية، والإنشاءات الذهنية.

ثالثاً: الإتجاه العلمي متكئاً على المنطق الرياضي، والمكتشفات، ونظرية التطور.

وإذا بدأنا من المرحلتين ـ مرحلة ما قبل التاريخ المدوّن، ومرحلة التاريخ ـ ظهر لنا أن مسألة الألوهة والدين تشكلان حلقتين مرتبطتين لاتنفصلان، ولا تنفصمان في كل مراحل الحياة عبر هذه الحقبة الطويلة، فالدين هو المظهر العملي لإرادة الآله، وهو المحرك لإنسان تلك الأحقاب، كما يظهر لنا بما لايقبل الجدل، ولا الشك، أن المرحلة السابقة أثرت بالمرحلة اللاحقة تأثيراً يكاد يكون من الصعب فصلها عن بعضها لما بينها من

التداخل والتشابك والتشابه، بل يدفعنا إلى القول: بأن ما ندعوه بالخرافة أو الأسطورة التي تقوم عليها المرحلة الأولى ـ مرحلة ما قبل التاريخ المكتوب ـ أصبحت في المرحلة اللاحقة حقيقة راسخة.

ومن المسلم به أن الأسطورة، أو الخرافة أسبق من الفلسفة في تاريخ الإنسان، لأن الأسطورة هي من معطيات العقل البشري في مرحلة طفولته، بينما الفلسفة هي من معطياته في مراحل تفتحه ونموه ونضجه.

وقد شملت الأسطورة أكثر ـ إن لم نقل كل العصور القديمة ـ حتى ليمكن القول: ان كل أديان ومعتقدات أمم وشعوب تلك العصور تقوم على الأساطير، بل هي أساطير.

فتعدد الآلهة، وتعدد اختصاصاتها بتنوع مظاهر الطبيعة دليل على مدى سيطرة الأسطورة على الإنسان ـ إنسان ذلك الزمن ـ الموغل في القدم، وشاهد على سلوكه وتفكيره.

ونستطيع القول: بأن الأسطورة والخرافة اللّتَيْن سيطرتا على عقل وتفكير إنسان العصور القديمة، وانتظمت حياته، وأنماط معيشته، وطرق تفكيره لم تقتصرا عليه فحسب بل تجاوزتاه وامتدتا حتى شملتا عصورنا التي ندعوها بالحديثة.

إننا نزعم أننا تخلصنا من رواسب البدائية، وأصبحنا ننحو منحىً علمياً خالصاً متحرراً من مخلفات التاريخ فكراً واعتقاداً وسلوكاً.

إذا كنا نؤمن بهذا الزعم فإننا كاذبون، أو مخدوعون جاهلون.

إننا برغم وسائلنا العلمية والثقافية والحضارية لم نكتشف أنفسنا، ولم ننقّها، ونحررّها من قيود الماضي وأغلاله، وأطره الفكرية.

إن التراث الأسطوري لم يزل جزءاً من ذواتنا، ومكوّناتنا العقلية يفعل أفاعيله في مشاعرنا، ويستبطن لاشعورنا، ويوّجه ـ إلى مدى بعيد ـ سلوكنا.

إننا حتى الآن لم نُعطَ وسائل المراقبة على مشاعرنا، وتحديد تصرفاتنا، وفق منظور علمي صحيح.

إن ما نلمسه ونحسّه، ونشاهده ونعيشه، ونتحققه في الكثير من جوانب حياتنا الفكرية والاعتقادية من تغلغل الأسطورة، ونموّها، واستمراريتها في مجمل حياتنا، لا يدع

مجالاً للشك، ولا المكابرة، في القول: اننا لم نتحرر من الأساطير والأوهام. والحقيقة أننا لانكاد نجد خرافة من خرافات العصور القديمة إلا ولها لون من الحياة القائمة بيننا اليوم.

إن الكثير الكثير من «المسلمات» التاريخية والاعتقادية ليست سالمة نقية خالصة من الشوائب والأوهام، ويجب إخضاعها للمعايير العلمية للتأكد من صحتها[1] أو للشك في هذه الصحة ثم عزلها من حياتنا الفكرية.

إذا كان لبعض هذه «المسلمات» صفة «القداسة» فلا يجوز أن تمنعنا هذه القداسة من إخضاعها لمقاييس العقل والعلم، فإذا ثبت أنها جديرة بالقداسة والتسليم، سلمنا بصحتها على ضوء العلم والعقل، وأخذت طريقها إلى مجموعة الحقائق التي صاغها العقل ومحصّها.

إن نظرية الإله عند السومريين والبابليين، وقدماء الهنود والمصريين، واليونانيين لاتختلف من حيث الغاية والنزوع عما هي عليه في بعض الكتب المقدسة، وإن اختلفت في الوسيلة بالنسبة للزمان والمكان.

إن تصور آله «ضابط الكل» مايرى، ومالايرى، هو تصوّر مشترك بين الأديان، وأن الوسيلة لمعرفة هذا الإله، والزلفى إليه هو الدين

فما هو الدين؟؟

للدين مجموعة تعاريف، لعل أقربها للفهم العام أنه عبادة القوى الكائنة فوق الطبيعة. أو «ما يحدّد سلوك الإنسان تجاه الإله». أو أنه جميع الممارسات التي ترضي الإله. ومنشأ الدين هو الخوف من جبروت هذه القوى والممارسات الطقسية هي طلب لإرضائها ودفع لهذا الخوف!! وقد تطور هذا الخوف فانقلب حبّاً كما هي الحال عند المتصوفة!!

وتختلف هذه الممارسات باختلاف الأديان، وطبائع الأمم والشعوب. ولكن الدين على إختلاف مظاهره عبر التاريخ أصبح تراثاً وجدانياً وعقلياً وإجتماعياً.

ويعلمنا الدين أن الإنسان هذا الكائن الحي الذي يعيش ويشغل فراغاً على هذا الكوكب السيار ـ الأرض ـ هو أرقى الكوائن الحية التي تعيش عليه، وهو مخلوق على صورة

(١) راجع مقدمة الجزء الأول المنشورة في هذا الجزء.

الإله[1] وهو خليفة هذا الإله في الأرض[2].

أما العلم فيرى أن الإنسان أصبح بتطوره الجسمي المتعاقب عبر العصور من أرقى الكوائن الحية.

والتاريخ رغم قدمه، وسعة مكتشفاته، لم يستطيع تحديد نشاه الإنسان إلا بطريقة الظن والتخمين، والإفتراض، واعتماد المكتشف من آثاره وبقاياه.

يعلمنا العلم بوسائله العديدة أن عمر الأرض لايقاس بعشرات الآلوف من السنين، ولا بالمئات من الألوف، بل بالملايين، حتى أن بعض العلماء قدروه بـ ٥٠٠٠ مليون سنة، كما قدروا ظهور الحياة الأولى في البحار بصورة الطحالب والرخويات، وأن الإنسان وجد على هذه الأرض منذ ١٠٠.٠٠٠٠ عام وبعضهم أرجعه إلى٤٠٠٠٠ عام مستدلين بالإنسان المكتشف بالنياندرتال، ولكن ليس من المحتم أن يكون إنسان النياندرتال هو الإنسان الأول.

والهيكلان المكتشفان مؤخراً في بلدة انطلياس اللبنانية، وفي قرب حلب السورية جزم العلماء المختصون انهما يعودان إلى ٧٠٠٠٠ ألفاً من السنين.

وبعض العلماء يرجعون الإنسان الأعلى أي الإنسان كما هو اليوم إلى ٣٠٠٠٠ عام استناداً على مخلفاته وآثاره في العصرين الوسطي والحديث.

ويقول العلماء: ان الإنسان عبر تطوره خلال عصوره ـ الحجري ـ البدائي ـ القديم ـ الوسيط ـ الحديث، تكاد تكون مكتشفاته متشابهة متقاربة، لم يتأثر كثيراً بالفواصل الزمنية.

هذا هو رأي العلم في عمر الأرض، وعمر الإنسان فما هو رأي الدين؟؟

لنستنطق الكتب المقدسة عماد الدين، ولنر رأيها في هذا الموضوع، وأولها التوراة.

---

(١) سفر التكوين

(٢) القرآن

الكتب المقدسة

قبل أن نتلمس عمر الأرض، وعمر الإنسان، ونشأة الكون والحياة، في الكتب المقدسة، نرى لزاماً علينا، وتعزيزاً للبحث أن نأتي بكلمة مختصرة عن الكتب المقدسة.

١ ـ صحف ابراهيم ذكرها القرآن ولكنها غير موجودة.

٢ ـ صحف موسى وهي العهد القديم = التوراة ـ وعدد أسفارها ٣٩ سفراً، وعدد اصحاحاتها ٩٢٩، أولها سفر التكوين، وآخرها سفر ملاخي، وهو أصغر الأسفار حجماً، إذ لايتجاوز أربع صفحات.

وقد أثبت الباحثون أن موسى جاء بالأسفار الخمسة الأولى وهي: التكوين ـ الخروج ـ التثنية ـ الملوك الأول ـ الملوك الثاني.

أما الأسفار الباقية وعددها ٣٤ سفراً فقد كتبت على فترات متقطعة خلال مدد طويلة قبل النزوح إلى مصر، وبعد الخروج منها، وبعد الأسر البالي، وخلال هذا الأسر.

وقد كان موسى واحداً من كهنة «آتون» ورجلاً بارزاً في البلاط المصري، وبعد موت «اخناتون» سنة ١٣٧٥ ـ ١٣٥٨ق. م أخرج رجال الدين بعده ديانة مشتركة فرأى موسى أن يفتش لأتباعه من المصريين، وبقايا الهكسوس عن ديانة توحيدية في مكان جديد فاتجه صوب أرض سيناء[1]

٣ ـ الأناجيل، أو العهد الجديد، وتشتمل:

أولاً: على الأناجيل الأربعة المعترف بها من الكنيسة وهي: متى ـ مرقص ـ لوقا ـ يوحنا.

ثانياً: على ٢٣ سفراً أخر. أولها: أعمال الرسل وآخرها رؤيا يوحنا.

وهناك أناجيل لم تعترف بها الكنيسة مثل انجيل «برنابا» وانجيل الحواري يعقوب،

(١) خزعل ـ ماجدي

وانجيل الحواري توماس، وانجيل القديس نيكوديم، وقد لقي السيد المسيح، وأجرى معه مناقشات في الشؤون الدينية، ثم آمن به، وكتب انجيله هذا باليونانية.

وهنـاك انجيل يقال له السبعين، وانجيل الإثني عشر، وانجيل التذكرة، وانجيل العبريين، وانجيل الناصريين ـ نسبة إلى الناصرة، وهناك انجيل المصريين، وكان لكل من أتباع ديصان وماني، ومرقيون، وابيون انجيل خاص يختلف كثيراً، أو قليلاً عما عداه[1]

وتختلف هذه الأناجيل أحياناً في تاريخ حياة السيدة القدسية مريم، فبعضها يقول: انها كانت مخطوبة ليوسف النجار، والبعض الآخر يقول: إنها لم تكن مخطوبة، وإنها كانت من العذارى المنذورات لخدمة المعبد، وهذا مطابق لما جاء في القرآن:

وإذ قالت امرأة عمران: ربي إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم، فلما وضعتها قالت ربي إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى، واني سميتها مريم، وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم. فتقبلها ربها بقبول حَسَن، وانبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً كثيراً قال: يا مريم أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب.

فالقرآن يثبت انها كانت منذورة للمعبد، وأنها كانت ملازمة للمحراب، والمنذورات لايتزوجن، ولكن القرآن يحكي بلسان أمها: اني أعيذها بك و «ذريتها» من الشيطان الرجيم.

ولقـد استبعدت الكنيسة كل هذه الأناجيل المذكورة، وأقرت أربعة فقط، متى، مرقص، لوقا، يوحنا كما ذكرنا.

في سنة ٢٠٩ للميلاد قرر القديس «ارينيه» أن هذه الأناجيل الأربعة هي واحد.

ثم جاء القديس «كليمان» الاسكندري سنة ٢١٦م وقرر أن واجب المسيحي التسليم بصحة هذه الأناجيل.

(١) خزعل ـ ماجدي

أما انجيل الابيونين فهو باللغة الآرامية، ويقر جميع شريعة موسى، ويعتبر المسيح هو «المنتظر» الذي تحدثت عنه أسفار العهد القديم، وأنه مجرّد بشر رسول، وهذا ينطبق على العقيدة الإسلامية في المسيح.

وقد أطلق الكتاب المقدس اسم المسيح على عاهل الفرس الذي هزم مملكة بابل وأطلق من كان بها من أسارى اليهود: «وهكذا يقول الرب لمسيحه كورش»[1]

وأما انجيل «برنابا» فيحتوي على روايات تقربه من العقيدة الإسلامية، على أن هناك من ينكره إنكاراً قاطعاً، ويرى أنه كتب بعد الإسلام، ولكن التاريخ يحدثنا أن البابا «جلاسيوس» الأول الذي تولى بابوية الكنيسة الكاثوليكية بروما من عام ٤٩٢ ب. م إلى ٤٩٦ ب. م أصدر قراراً عدد فيه الكتب المنهى عن قراءتها وبينها انجيل «برنابا» وهذا يعني أنه كان معروفاً قبل الإسلام.. وفي هذا الإنجيل مواضيع تدل على أنها موضوعة، وليس لها دليل تاريخي مما يشير إلى الحاق زيادات عليه في أزمنة متأخرة.

٤ ـ القرآن:

لايوجد إلا قرآن واحد، ولم يختلف فيه أحد من المسلمين، ولكن توجد قراءات سبع، ولذلك يذكرون مصحف علي، وحفصه، وعثمان، وابن مسعود، وعاصم، وغيرهم.

يحتوي المصحف على ١١٤ سورة، أولها الفاتحة، وآخرها سورة الناس، وتقسم سور القرآن إلى مكية، ومدنية، نسبة إلى نزولها في مكة، أو المدينة، وتمتاز السور المكية بالإنذار، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، أما السور المدنية، فهي مصدر التشريع، وتنظيم المجتمع الإسلامي، وتختلف سور القرآن طولاً وقصراً، فسورتا الإخلاص والكوثر لاتتجاوز الواحدة منهما السطر وبعض السطر، في حين تبلغ سورة البقرة عشرات الصفحات.

---

(١) الدكتور أحمد شلبي: مقارنة الأديان.

(١) اشعيا ١/٤٥

الفصل الثاني

القواسم المشتركة بين الاديان

من دراسة التاريخ العام مدوّناً ومكتشفاً ومفترضاً نجد أن الإنسان بالنسبة لتصوّر الإله قد مرّ بمرحلتين اثنتين:

أولاً: مرحلة التعدّد، أي الآلهة المتعددة التي فرضتها عليه مظاهر الطبيعة المتعددة، إذ افترض، أو تصوّر أن لكل ظاهرة طبيعية الهاً، فللسماء إله، وللأرض إله، وللبحر والعاصفة، والصاعقة والخصب، والجدب، والأمطار والرياح، آلهة، وهذه هي المرحلة البدائية، وهي تعبير عن طفولة العقل والفكر لدى إنسان تلك المرحلة.

ثانياً. مرحلة التوحيد، أو الإله الواحد، وهي مرحلة تفتّح العقل البشري ونموّه بالإتجاه الصاعد، وتكوين منطق المحاكمة عنده.

الإنسان البدائي ما كان ليستطيع تصوّر آلهٍ مجرّد عن المادة، لاتدركه الأبصار، ولا تحيط به العقول، ولاتحده الأزمنة والأمكنة، فكان لابدّ له أن يجسم هذا الآله، أو يشير إليه برسم مجسّم يقرّبه من إدراكه، ويدْنيه من تصوّره، ليستقر في وعيه، ويتمثل في ذهنه، وتطمئن به وإليه نفسه، ويطلق عليه اسمًا يدعوه به، ويميزه عن غيره، فعشتار، وأدونيس، وحدد، وبعل، ويهوه، وبرهما، وفشنو، ومينرفا، واهورا مزدا، والآب، والذي ليس كمثله شيء، كلها أسماء ورموز تحقق غاية الإنسان في الإله، وفي تصوّره، ورؤيته، ورؤياه، وتدعوه بأسمائه.

وعبر التاريخ وأدواره المتعاقبة، المغرقة في القدم، وفي الزمن الوسيط والحديث تتضح لنا قواسم مشتركة، أو نقاط تلاقٍ بين الأديان، وتصوُّرها للإله.

١ ـ أن لكل أمة إلهاً، أو آلهة متعددة.

٢ ـ هذا الإله أو الآلهة، إما مجسمة، وإما مجردّة.

٣ ـ هذا التجسيد إما على صورة الأحياء، وإما على صورة تختلف عنها.

٤ ـ هذا الإله أو الآلهة تسكن السماء، أو الأرض، أو تهبط أحياناً من السماء إلى الأرض، أو تصعد أحياناً من الأرض إلى السماء، أو تسكن العالم الأسفل ـ عالم الظلام ـ.

٥ ـ لبعض هذه الآلهة بيوت في السماء، أو مقرّ في الأرض(١)

٦ ـ كلها صنعت الإنسان والكون لغاية.

٧ ـ كلها تتمتع بالجبروت والكبرياء، والملكوت.

٨ ـ كلها تريد من الإنسان أن يتعبّد لها، ويمجدها، ويرفع إليها الصلوات والقرابين.

٩ ـ كلها تحب وتكره، وترضى وتغضب، وتعطي وتمنع، وترحم وتنتقم.

١٠ ـ كلها ترسل رُسلاً تؤدي عنها ما تريده، وتبعث أنبياء يبشرون ويمهدون السَبيل لتعاليمها، وتنفيذ أحكامها.

١١ ـ هؤلاء الرسل والأنبياء يحملون الشريعة والنظام، وينظمون علائق الإنسان بالآلهة، والأفراد، والأسر، والجماعات.

١٢ ـ هذه الشرائع والأنظمة تختلف من أمة لأمة، وزمان ومكان، وتتفق في بعض المقاصد العامة.

١٣ ـ هؤلاء الرسل والأنبياء يتصلون بالإله أو الآلهة مباشرة، أو بالواسطة.

١٤ ـ لكل أمة قوىً غيبية من الآلهة، أو جنود الآلهة، غير منظورة حيناً (جنوداً لم تروها) ومنظورة حيناً كالملائكة تسكن السماء، وتهبط إلى الأرض.

ومن الاختلاف بين هذه الشرائع التي جاءت بها الآلهة بواسطة وسطائها، أو من التباين في فهم وادراك مقاصدها نشأت المذاهب، وتعدّدت المشارب، وتفرقت السُّبل، وتباعدت الأهداف، وتنافر الإنسان والإنسان.

وإذا كانت الكتب المقدسة موحاة من الله مباشرة، ومبلغة للناس بواسطة الرسل، فإن المذاهب قامت ونشأت وانتشرت بفعل الاختلاف والأهواء بين الأمة الواحدة.

---

(١) وحتى الكتب المقدسة تتفق مع المعتقدات البدائية بأن للإله بيتاً في الأرض فإله التوراة يتخذ بيتاً مرافقاً لشعبه وينتقل معه في الحروب وهيكل اورشليم بيت ثابت للرب وحفاظ شريعته وتابوت عهده. والمسيح يقول عندما دخل الهيكل: مكتوب بيتي بيت للصلاة يُدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص، وفي القرآن: وان المساجد لله. ويقول ابراهيم: ربي ان أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم.

الأهـواء، وتعـدّد الإتجـاهـات كانت منذ فجر التاريخ. ومازالت حتى اليوم أداة تفريق، ووسيلة نزاع، وعامل صراع، ومصدر شقاء وتعاسة للنوع الإنساني، جلبت له شتى أنواع المآسي، وجرّت عليه أشنع الويلات، وصبغت حياته وتاريخه بالحروب.

اقتتال في الأرض على السماء لترضى الآلهة.. والأهواء.

خضع الإنسان أولاً للدين، وألزم نفسه به ابتغاء مرضاة الإله، ولكنه أخيراً أخضع الـدين لمآربـه ورغبـاتـه، واتخذ منه وسيلة للاستعداء على أخيه الإنسان، وأداة لتحقيق مطامعه، وحوّله إلى أداة استثمار وابتزاز.

قد يكـابـر البعض وينكـر أو يتنكر لهذه الحقائق الصارخة، ولكن التاريخ شاهد صـدق، ووثيقة إثبات، ودلالة واضحة، وبرهان قاطع على صحتها وواقعيتها.

التوراة والعلم

التوراة، أو العهد القديم، ماذا يفيدنا عن عمر الأرض، وخلق الإنسان، ومتى؟ وكيف؟؟

لنفتح سفر التكوين، وهو ـ كما يفهم من تسميه ـ المخبر الأول ـ بالنسبة للكتب المقدسة ـ عن بدء الأرض ـ الكون ـ وما فيه، وعليه.

إن سفر التكوين هذا يتحدث بتفصيل واسترسال، ويحدد بالسنين والأرقام، بدءُ الخليقة والكون، سماءً، وأرضاً، وبحاراً، وكواكب، وشموساً، وأقماراً، أشجاراً، ونباتاً، وطيوراً، وحتى الأسماك والزحافات.

ثم يحدثنا بعد ذلك عن خلق الإنسان على مثال صورة الرب وشبهه.

«في البدء خلق الله السموات والأرض، وكانت الأرض خربة خالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه، فقال الله: ليكن نور، فكان نور، ورأى الله النور أنه حَسَن!!»

ويستلفت النظر المعاصر النزاع إلى الدقة والتمحيص أن السفر يبدأ القول: في البدء «خلق» الله السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية. ويتابع قائلاً: ثم كان اليوم الثاني.. وفي اليوم الثالث «خلق» الأرض.

فالأرض في البدء كانت مخلوقة مع السماوات ثم كانت خربة خالية وخالية كما يقول السفر، ثم يقول انها خلقت في اليوم الثالث. لا في اليوم الثاني، ولا الأول.

وهكذا تتابع الخلق والتكوين في الأيام الرابع والخامس، والسادس، فأنهى الله الخلق، وفي اليوم السابع استراح، «وبارك الله اليوم السابع، وقدّسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمله خالقاً».

فإله التوراة، أو إله موسى يتعب ثم يستريح من تعبه في اليوم السابع بخلاف اله

القرآن «ولقد خلقنا السماوات والأرض في ستة أيام وما مسّنا من لغوب».

لقد اتفق القرآن والتوراة على مدّة زمن الخلق ـ ستة أيام ـ واختلفا في أن إله التوراة تعب ثم استراح، أما اله القرآن فلم يمسه اللغوب، أي التعب.

هذا وحي الله لكليمه عن خلق السماوات والأرض، وما فيها، وعليها، ثم بدأ خلق الإنسان:

«وقال الله: نعمل إنساناً على صورتنا كشبهنا»

«وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حية».

إله القرآن: «ليس كمثله شيء» أما إله التوراة فآدم الإنسان على صورته وشبهه.

«وغرس الرب الإله جنة عدن شرقاً» يقول السفر، ووضع هناك آدم الذي جبله.

وقال الربّ الإله: «ليس جيداً أن يكون آدم وحده، فأصنع له معيناً نظيره، فأوقع الربّ الإله سباتاً على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه، وملأ مكانها لحماً، وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة، واحضرها إلى آدم».

هذا ملخص بدء الكون والكائنات، وخلق الإنسان الأول في التوراة أقدم الكتب المقدسة المتداولة.

وماذا عن آدم وحواء في جنة عدن؟؟

هناك شجرة معرفة الخير والشر، في الجنة نهى الله آدم عن الأكل منها!!! ولكن المرأة حواء ـ كما دعاها آدم لأنها أمّ كل حيّ ـ عصت أمر الرب الإله بتحريض من الحية المحتالة وأكلت منها، وأطعمت زوجها آدم فبدأآ عاريين.

المرأة أكلت، وأطعمت زوجها، فالتبعة اذن عليها، «تكثيراً أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولاداً، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك»[1]

وفي القرآن: «فأزلهما الشيطان بغرور فأكلا منها فبدت لهما سوأتهما»

في التوراة: الحية كانت في الجنة!!

(١) سفر التكوين.

وفي القرآن: الشيطان كان في الجنة!!

اسم امرأة آدم في التوراة حواء!

أما في القرآن فلا يشير إليها إلا بالزوج!!

في التوراة المرأة أكلت ثم أطعمت زوجها!

أما في القرآن فلم يحدّد المسؤولية على واحد منهما، وإنما على الاثنين معاً «فأكلا منها».

جنة عدن تقع شرقاً في التوراة!!

أما في القرآن فلم يتعين مكانها!!

في التوراة يطرد الله آدم وزوجته والحية من الجنة طرداً.

أما في القرآن فيهبط الله آدم وزوجته والشيطان هبوطاً

«قلنا اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو.

هذه لمحة ومقارنة عن بداية الكون، وخلق الإنسان، وخطيئته ومصيره بعد الخطيئة، تبسطت التوراة في سردها، وأوجز القرآن في ذكر بعضها، ولم يشر إلى أكثرها.

ولكن بعض علماء المسلمين ومؤلفيهم لم يقفوا عندما جاء به القرآن بل تجاوزوه إلى أساطير وخرافات لم يأت بها كتاب المسلمين، ولم تشر إليها السنة الصحيحة، ولا يطمئن إليها العقل السليم.

١- جاء في كتاب «عرائس المجالس» لأبي اسحاق الثعالبي ٤٢٧ هـ قوله: لما أراد الله تعالى أن يخلق السماوات والأرض خلق جوهرة خضراء حجمها أضعاف طباق السماوات والأرض، ثم نظر إليها نظرة هيبة فصارت ماءً، ثم نظر إلى الماء فغلي، وارتفع منه بخار، ودخان وزبد، فخلق اله من ذلك الدخان السماء، ومن ذلك الزبد الأرض.

٢ - يقول الطبري المتوفى ٣١٠ هـ في كتابه «تاريخ الرسل والملوك»: إن الله تعالى خلق الماء على متن الريح، ووضع عليه عرشه، ثم خلق البيت العتيق فوق الماء، ثم قبض قبضة من حجارة، ثم فتح القبضة فتنفس الماء وارتفع دخاناً، وإذا بسبع سموات في كل سماء ملائكتها، ثم خلق الحوت، ودحا الأرض على ظهره!!!

٣ - يقول محي الدين بن عربي المعروف بالشيخ الأكبر في الجزء الأول من كتابه

«الفتوحات المكية» وهو من أشهر كتبه عن خلق العالم: «فخلق سبحانه الماء بردة جامدة كالجوهرة في الاستدارة والبياض، وأودع فيها بالقوة ذوات الأجسام، وذوات الأعراض، ثم خلق العرش واستوى عليه اسم الرحمن، فنظر بعين الجلال إلى تلك الجوهرة فذابت حياءً وتحللت أجزاؤها فسالت ماءً، وكان عرشه على ذلك الماء، قبل وجود الأرض والسماء، وليس في الوجود إذ ذاك إلا حقائق المستوى عليه، والمستوي، والأستواء، فأرسل الله النَفَس فتموج الماء وأزبد، وترك زبده بالساحل الذي أنتجه... فأنشأ الله سبحانه من ذلك الزّبد الأرض، ثم أنشأ الدخان من نار احتكاك الأرض عند فتقها، ففتق فيه السماواتِ والأرض.

لا أريد هنا أن أناقش هذه الأقوال، واحلّل هذه الترهات لسذاجتها، وبعدها عن آفاق العقل والمنطق، ولما فيها من الحط من عظمة الخالق المبدع الذي «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون». ولكن أريد أن ألفت نظر القارىء إلى أن جوهرة الثعالبي خضراء وكبيرة جداً بحجم أضعاف السماوات والأرض. وأن جوهرة الشيخ الأكبر بردة مستديرة و... بيضاء، وأن الأولى ذابت من الهيبة، والثانية من الحياء، قل ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض، ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذاً المضلين عضداً.

إن أتباع ومريدي هؤلاء الأعلام يسخرون ـ لامحالة ـ عندما يقرأون أسفار تكوين السماوات والأرض عند الشعوب القديمة كبابل، وسومر وغيرهما. ولكن أيّ الفريقين أجدر بالسخرية؟؟ أولئك؟ أم هؤلاء؟؟

أما الإنجيل فلم يتعرض لمسألة الخلق والكون، ولعل كتبة الأناجيل اكتفوا بما ورد في «العهد القديم» بهذا الموضوع فلم ترد عندهم في «العهد الجديد». ولكن:

هل التوراة أول كتاب زوّد العقل البشري، وأغناه وأثراه في هذا الموضوع؟؟ موضوع الخلق والتكوين.

سنة ٦٠٠٠ ق م

لنرجع إلى سنة ٦٠٠٠ ق. م.

حول الشواطىء العليا للخليج العربي، وفي الجزء الأسفل من حوض دجلة والفرات حوالي ذلك التاريخ أنشأ السومريون حضارة وثقافة تركتا أثرهما على الحضارات التي جاءت بعدهما.

فكرة بدء الكون والحياة والإنسان شغلت ذهن إنسان تلك الحضارة الأولى، كما شغلت ذهن إنسان العهد الوسيط، وذهن إنسان العصر الحديث.

كما لايوجد عصر من عصور الإنسانية، ولا شعب من الشعوب إلا وشغلته تلك المسألة، ولونت تاريخه وتفكيره.

هناك فكرتان رئيسيتان تكاد تجمع عليهما الأساطير والكتب والأديان،

أولاهما: حالة من العماء والظلمة والسكون.

وثانيهما: حالة من الحركة والنموّ والحياة انبثقت عن الحالة الأولى[1]

وفي القرآن: ان السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي فتبارك الله أحسن الخالقين.

وتجمع الكتب والأديان على أن الماء أصل الحياة، ففي التوراة: «وقال الله: لتفض المياه زحافات ذات نفس حية»[2] وتقدم قول القرآن وجعلنا من الماء كل شيء حي، أما في ما سوى هاتين الفكرتين الأساسيتين فتلتقي الأساطير والكتب والأديان وتفترق.

فماذا عن خلق السماوات والأرض وآدم والإنسان والخطيئة وابليس في معتقدات الشعوب القديمة أو عصور ما قبل التاريخ المكتوب؟؟ بعدما عرفنا الكثير عن هذه المواضيع في الكتب المقدسة!!

---

(١) وفي الأساطير الإغريقية: أن العالم احتاج في تكوينه إلى ثلاثة: أولاً: الكاووس أي الخواء عديم التشكل، ثانياً: جيا، أي الأرض التي كانت غير مستقرة، ثالثاً: ايروس: القوة الكونية التي تلتقي بها الأشياء وتتوالد وتندمج.

(٢) سفر التكوين.

التكوين السومري

١ ـ التكوين السومري

في بعض الألواح المكتشفة التي تروي قصة التكوين عند السومريين والتي تداولها العلماء، وتناقلها العالم أمماً وشعوباً، وقطع العلم بصحتها، جاء ما يلي:

«في البدء كانت الآلهة «نمو» ونمو في المعتقدات السومرية هي المياه الأولى التي انبثق منها وعنها كل حيّ».

«نمو» هذه أنجبت «آن» إله السماء و «كي» آلهة الأرض.

وهاذان الآلهان أنجبا «انليل» وانليل فصل السماء عن الأرض بواسطة الهواء، وأنجب النور «نانا» و «اوتو» ثم اتم المظاهر الأخرى.(٣).

والفكر هنا ـ كما يرى القارىء ـ فكر حسي مادي لا أثر فيه للتجريد.

وجاء في بعض تلك الألواح أيضاً:

الاله الذي أخرج كل شيء نافع.

الاله الذي لا مبدل لكلماته.

إنليل الذي انبت الحب والمرعى

أبعد السماء عن الأرض.

وأبعد الأرض عن السماء.

نلاحظ تعابير لامبدل لكلماته وأنبت الحب والمرعى وموقعها المعنوي والحرفي في الفكر الإسلامي.

ونلاحظ التثليث في آن وكي، وانليل، أي الآب، والأم، والابن.

ونلاحظ ان «نمو» أي الماء كانت ولا أحد معها، ثم أنجبت «آن» و «كي» أي الذكر

---

(٣) نانا اسم القمر واوتو اسم الشمس عند السومريين.

والأنثى، وهذان أنجبا «انليل» فأتم المظاهر الأخرى.[1].

ونلاحظ أن «نمو» أنجبت «أ ن» و «كي» بعمل الهي مجرّد، بخلاف إنجاب «انليل» من ذكر وأنثى.

وفي القرآن: وهو الذي خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى، وأن عليه النشأة الأخرى.

التكوين البابلي

٢ ـ التكوين البابلي

خلال الحفريات التي كشفت عن قصر «آشوربانيبال» وألواحها، والتي يعود تاريخها إلى أوائل الالف الثاني قبل الميلاد أي ١٥٠٠ عام قبل تدوين أسفار موسى ظهرت قصة التكوين عند البابليين، وملحمة معتقداتهم، وقد أطلق العلماء عليها اسم «الاينوما ايليش» واعتبرها العلماء أهم وثيقة لمعتقدات أولئك الأقوام، وهي من جهة المقارنة يلتقي معها الاصحاحان الأول والثاني من سفر التكوين التوراتي. وتعبير «اينوما ايليش» يعني «عندما في الأعالي».

تبدأ هذه الأسطورة ـ الملحمة ـ: عندما في الأعالي لم يكن هناك سماء، وفي الأسفل لم يكن هناك أرض، ولم يكن في الوجود إلا المياه الأولى، ممثلة بالآلهة الثلاثة «ابسو» و«تعامة» و«ممو»[2].

وهذه هي آلهة العماء والسكينة، وكانت تعيش في حالة سرمدية من الصمت والسكون ممتزجة في خالة هيولية.

---

(١) الأساطير القديمة، وداثرة معارف القرن العشرين.

(٢) أبسو: الماء العذب، وتعامة زوجه الماء المالح، وممو الأمواج المتلاطمة أو الضباب.

الاساطير الكنعانية

من مكتشفات وأحافير وألواح الحضارة الكنعانية ـ الاوغاريتية ـ وجدت أساطير عن التكوين والنشأة الأولى، لا تختلف ـ من حيث الأساس ـ عن الأساطير السومرية والبابلية إلا بالأسماء، وكلها تجمع على أن الماء أصل الحياة، وتلتقي كلها بصيغة واحدة. أو تكاد تكون واحدة في القول بتكوين السماء والأرض والإنسان والموجودات. ولا تختلف من حيث النص والترتيب عن سفر التكوين التوراتي أو بتعبير أصح لم يختلفّ عنها سفر التكوين، الأمر الذي لم يدع مجالاً للشك ولا الجدل والارتياب، أو التردد في القول: إن ما جاء في سفر التكوين التوراتي عن النشأة الأولى كان معروفاً ومتداولاً بين شعوب المنطقة، والأمم التي سبقت تدوين أسفار موسى، ومنها سفر التكوين، وإن هذه المعتقدات التي نطلق عليها اسم الأساطير والخرافة هي نفس المعتقدات التي جاء بها «العهد القديم» في أول أسفاره، والتي آمن ويؤمن بها الكثيرون من الناس في عصرنا على أنها وحي من الله.

التكوين الهندي

في البدء كان الكون مغموراً بالظلام، ولايمكن إدراكه، وخالياً من كل وصف تميز (حالة سكون وعماء) لايستطاع تصوره بالعقل، ولا بالوحي، كأنه في سُبات عميق، فلما انقضى أمد هذا الانحلال، تعلقت ارادة المولى الموجود بذاته التي لاتدركها الأبصار، فجعل هذا العالم مرئياً هو وعناصره الخمسة، وأصوله الأخرى،متلألئاً بالنور الأقدس، قاشعاً الظلام الحالك، فاقتضت حكمة «برهما» الذي لايدركه إلا بالعقل أن يبرز مادة المخلوقات المختلفة، فأوجد الماء أولاً ووضع فيه جرثومة فصارت الجرثومة بيضة لامعة لمعان الذهب، وعاشت داخلها الذات الصلبة في صورة «برهما» وهو جد لجميع الكائنات (يلاحظ هنا وحدة الموجودات) فبعد أن لبث «برهما» في البيضة سنة برهمية وهي تعادل ملايين السنين البشرية، قسّم المولى بمحض إرادته هذه البيضة إلى قسمين، وصنع منهما

السماء والأرض والكائنات وعين لكل كائن اسمه، وخلق عدداً من الآلهة، وخلق طائفة غير مرئية من الجن، وخلق الزمان وأقسامه، والكواكب والبحار، والأنهار والجبال[1].

وقالوا: أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا[2] ألا يعني هذا أن مشركي قريش من العرب كانوا يدركون ويعلمون أن سابقيهم الأولين تركوا لهم من المعتقدات ما أطلقوا هم عليه اسم الأساطير لأنه مخالف لما اعتقدوه!!

لاجديد تحت الشمس هذا!! هذا ما قاله حكماء الصين القدماء، وإذن فلا يجوز - والحالة هكذا - أن ندل، أو نغالي بما نؤمن، أو نعتقد.

ليست الحقيقة مقيدة، أو محصورة، في زمان، أو مكان، ولا مقتصرة، على أمة، دون أخرى، ولا على قوم دون أقوام، ولا على جيل وقبيل، دون جيل آخر وقبيل.

الحقيقة واحدة ومطلقة، لا تتعدد، ولاتتقيّد، وإطلاقها يرتفع بها عن الحصر، ووحدانيتها تمتنع بها عن المشاركة، وطلابها يشتركون في الإيمان بوحدانيتها.

ولنعد الآن إلى سفر التكوين، ونتلمس عنده الفترة الزمنية التي يحددها لعمرالكون والحياة والإنسان بعد أن تركت لنا المكتشفات وثائق وبراهين عن عمر الأرض هذا الكون.

بعد خلق السماوات والأرض وما فيهما وما عليهما، وبعد أن أتم الله كل ذلك، وبعد استراحته في اليوم السابع المبارك المقدس قال الرب الإله: «نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا»[3].

لم يحدد سفر التكوين التوراتي مدة الزمن بين خلق السماء والأرض وبين خلق الأنسان - آدم كما لم يحدد لنا زمن استراحة الرب!! وهل طالت!! أم كانت قصيرة!! كما لم يحدد الزمن بين خلق آدم، وخلق حواء، ولم يعلمنا كم بقي آدم وحيداً في جنة عدن!! حتى قال الرب الاله: «ليس جيداً أن يكون آدم وحده فاصنع له معيناً نظيره»[4].

---

(١) الأساطير الهندية، وقوانين منو، ودائرة معارف القرن العشرين.

(٢) القرآن. سورة الفرقان (٥)

(٣) (٤) سفر التكوين

آدم هو المخلوق الأول بعد خلق السماوات والأرض والأسماك والزحافات، وحواء هي المخلوق الثاني بعده. هذا ما يعلمنا سفر التكوين التوراتي.

ويعين هذا السفر عمر السلالة البشرية بدءاً من آدم وحتى زمن موسى كاتب السفر تحديداً زمنياً وبالسنوات، كما لايغفل تاريخ ميلاد كل جدّ من أجداد البشرية.

إن حرص هذا السفر على هذه الدقة يجعلنا نستطيع أن نحدد، أو نعين، أو نحصر عمر الأرض والسلالة البشرية التي درجت عليها، ولكن كم هي المسافة بعيدة بين تحديد سفر التكوين وبين تحديد العلم ومعطياته؟؟!!

والى القراء الجدول التالي:

الاسم	عمره	عمره عندما ولد له	
آدم	٩٣٠ عاما	١٣٠ عندما ولد له	شيث
شيث	٩١٢ عاما	١٠٥ عندما ولد له	انوش
انوش	٩٠٥ عاما	٠٩٠ عندما ولد له	قينان
قينان	٩١٠ عاما	٠٧٠ عندما ولد له	مهللئيل
مهلئيل	٨٩٥ عاما	٠٦٥ عندما ولد له	يارد
يارد	٩٦٢ عاما	١٦٢ عندما ولد له	اخنوخ
اخنوخ	٣٦٥ عاما	٠٦٥ عندما ولد له	متوشالح
متوشالح	٩٦٩ عاما	١٨٧ عندما ولد له	لامك
لامك	٧٧٧ عاما	١٨٢ عندما ولد له	نوح
نوح	٩٥٠ عاما	٥٠٠ عندما ولد له	سام
سام	٦٠٠ عاما	١٠٠ عندما ولد له	ارفكشاد
ارفكشاد	٤٠٠ عاما	٠٣٥ عندما ولد له	شالح
شالح	٤٠٣ عاما	٠٣٠ عندما ولد له	عابر
عابر	٤٣٠ عاما	٠٣٤ عندما ولد له	فالح
فالح	٢٠٩ عاما	٠٣٠ عندما ولد له	رعو
رعو	٢٠٧ عاما	٠٣٢ عندما ولد له	سروج
سروج	٢٠٠ عاما	٠٣٠ عندما ولد له	ناحور
ناحور	١١٩ عاما	٠٢٩ عندما ولد له	تارح
تارح	٢٠٠ عاما	٠٧٠ عندما ولد له	ابرام وناحور وهاران (هرون)
١٩	١١٣٣٢		١٩

وإذا أضفنا إلى هذا الرقم عمر ابرام ـ ابراهيم ـ وقدره ١٧٥ عاماً وعمر اسحاق ١٣٧ عاماً، وعمر يوسف ١١٠ أعوام يصبح لدينا ١١٣٣٢ + ١٧٥ + ١٣٧ + ١١٠ = ١١٧٥٤ عاماً

ونحن نعلم أن إبراهيم نزح من «أور» في جنوب العراق سنة ١٨٠٠ ق. م إلى بلاد كنعان ـ فلسطين ـ فإذا أضفنا إلى تاريخ هذا النزوح المدة من ميلاد المسيح إلى يومنا هذا فيكون لدينا المجموع التالي ١٨٠٠ + ١٩٨٥ = ٣٧٨٥ عاماً[1] فإذا أضفنا إليها أرقام أعمار أجداد التوراة من آدم حتى تاريخ أبي إبراهيم كان لدينا الحصيلة التالية ٣٧٨٥ + ١١٣٣٢= ١٥١١٧ عاماً . وهذا رقم ضئيل جداً بالنسبة لعمر الأرض والإنسان والحياة الذي ترفعه الوثائق المكتشفة، والتي أثبتها وأقرها العلم إلى أضعاف أضعاف هذا الرقم.

وهناك تحديد آخر لعمر الكون تشترك فيه التوراة والإنجيل:

جاء في انجيل متى في الأصحاح الأول، وبعد أن يعدد مواليد إسرائيل قوله: «فجميع الأجيال من إبراهيم إلى داوود أربعة عشر جيلاً، ومن داوود إلى سبي بابل، أربعة عشر جيلاً، ومن سبي بلبل إلى المسيح أربعة عشر جيلاً».

فإذا اعتبرنا الجيل مئة عام كما هو مقرر ومعروف فيكون لدينا ٣ × ١٤٠٠ عاماً= ٤٢٠٠ سنة فإذا أضفنا إليها أرقام أعمار أنبياء إسرائيل قبل إبراهيم فنحصل على المجموع التالي: ٤٢٠٠ + ١١٣٣٢ = ١٧,٥١٧ عاماً.

ونلاحظ أن الفارق بين رواية التوراة وبين الرواية المشتركة بين التوراة والإنجيل هي ١٧٥١٧ - ١٥١١٧ = ٢٤٠٠ عاماً.

وجاء تحديد لعمر الإنسان في التوراة كما يلي:

من آدم إلى الطوفان ١٥٥٦ سنة

ومن نوح إلى إبراهيم ٠٨٩٠ سنة

ومن إبراهيم إلى المسيح ١٨٠٠ سنة

ومن المسيح إلى اليوم ١٩٨٧ سنة

والمجموع ٦٢٣٣ وهذا الحساب بعيد عن الدقة والتحقيق

وهو مجموع عمر الإنسان حتى اليوم بينما الرقم العلمي هو ٢٢٠٠٠٠٠ سنة وبه يسقط التقويم التوراتي بصورة مطلقة[1].

(١) بين نزوح ابراهيم من العراق حتى خروج موسى والاسرائيليين من مصر مايقارب ٥٠٠ عام وبين موسى والمسيح ١٣٠٠ عام

(١) مجلة الثقافة ص ٦٠ عدد تموز ١٩٨٧ مفيد عرنوق

وهناك أمور تستلفت الأنظار وتقتضي البحث عنها ومنها:

أولاً: أن أعمار الأنبياء ـ أنبياء التوراة ـ أو الأجداد كانت طويلة قبل الطوفان، وهذه النسبة ـ نسبة الأعمار ـ تناقصت بعد الطوفان بشكل عجيب. فعمر نوح بطل الطوفان بلغ ٩٥٠ عاماً، وعمر سام وهو ممن شاهد الطوفان بلغ ٦٠٠ عام بينما تناقص عند ارفكشاد إلى ٤٠٠ عام، وبلغ عند يوسف ١١٠ عام.

ثانياً: يلاحظ السن المبكرة للزواج بعد الطوفان فقد تراوح قبل الطوفان بين ٥٠٠ عام عند نوح و٧٠ عاماً عند قينان، بينما هبط من ٧٠ سنة عند تارح إلى ٢٩ سنة عند ناحور. فهل طرأ تغيير على المناخ، وبالتالي على النضج والأجسام بعد الطوفان؟؟؟

ثالثاً: في الأصحاح السادس من سفر التكوين جاء مايلي: قال الرب: لايدين روحي في الإنسان إلى الأبد لزيغانه، هو بشر، وتكون أيامه مئة وعشرين سنة. وهذا الوعيد بجعل أيامه مئة وعشرين سنة لم ينفذ إلا بيوسف فقط من بين كل مواليد آدم، والذي لم يتجاوز عمره المائة والعشر سنوات. فهل طرأ «تعديل على قرار الرب الإله؟؟ هذا ما لايجيب عليه كتبة السفر المقدس!!

رابعاً: في التوراة ورد اسم أب إبراهيم «تارح» أما في القرآن فقد ورد اسمه «آزر» وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر[1]

خامساً: أورد القرآن كثيراً من أسماء أنبياء التوراة. ولكنه لم يحدّد أعمارهم إلا نوحاً فقد أخبر عنه أنه لبث في قومه الف سنة إلا خمسين عاماً[2] وهو رقم مطابق لما ورد في التوراة.

(١) القرآن سورة الانعام ٧٤

(٢) القرآن سورة العنكبوت ١٤

الفصل الثالث

الطوفان

إذا كان «إنشاء» الخلق، وإيجاد الوجود أهم ما يشغل عقل الإنسان قديمًا وحديثاً، فإن عملية «إفناء» الخلق لها نفس الأهمية، وقد عرفنا كيف أنشأ الله السماوات والأرض، والحياة والإنسان، في مجموعة من التصورات التي ابتدعها عقل الإنسان البدائي، أو افترضها أو تخيّلها، أو التي جاءت بها الكتب المقدسة، التي تستمد قوتها وسلطانها من «الوحي» الإلهي.

فماذا عن عملية «الإفناء» التي استعملت الآلهة المتعددة أو الإله الواحد الطوفان وسيلة لتنفيذها؟ جزاءً وعقاباً لانحراف الإنسان عن طريق الآله الخالق، أو اغضابه، أو إحماء هذا الغضب، وقد استوى الإله الواحد، والآلهة المتعددة في الأسباب والدوافع كما توضح الوثائق والمكتشفات، والكتب المنزلة والموحاة.

والطوفانات في الأساطير والتاريخ والأديان متعددة، فهناك طوفان في عهد الأمة البابلية القديمة، وطوفان نصت عليه ملحمة «اتراحيس» ولعله النص الثالث المكتشف للطوفان البابلي، وطوفان التوراة الذي حدث في عهد نوح والطوفان الذي يزعم اليزيديون أنه وقع في جبل سنجار، وفاض من قرية «عين شمسي» لاغراق المعتدين على الأمة اليزيدية[1].

وقد وجد العقل البشري في هذه الطوفانات وسيلة لعقوبة الإنسان تقوم بها الآلهة كلما طاب لها أن تنتقم، وهي أسوأ عقوبة رادعة تقوم بها آلهة غضبى، أو غضاب، آلهة قساة تشبه إلى حدّ ما ينتظر البشرية من همجية ووحشية السلاح الذري النووي.

وسنقصر بحثنا على الطوفان السومري والبابلي كما ورد في الألواح والرقمُ المكتشفة. والتوراتي كما ورد في سفر التكوين.

وسنعقد مقارنة بين هذه الطوفانات التي تفصل بينها فواصل زمنية كبيرة وبعيدة، والتي تقوم بها آلهة متعددة، وسنرى بنتيجة هذه المقارنة أن الغاية منها كلها واحدة، والدوافع

(١) كتاب عبدة الشيطان

واحـدة، والوسائل أيضاً واحدة، وحتى التعابير التي وردت في النصوص الأولى القديمة جداً، ونصوص التوراة واحدة، أو تكاد تكون واحدة.

وهذا كله لايدع مجالاً للشك أو الإرتياب بأن اللاحق من هذه النصوص أخذ عن السابق. وإليك الأمثلة.

الطوفان السومري

١ ـ الطوفان السومري

تقول إحدى الوثائق التي تعرض حوادث الطوفان السومري:

١ ـ قوض بيتك، وابن سفينة!!

اهجر ممتلكاتك، وانج بنفسك.

اترك متاعك، وانقذ حياتك.

واحمل بذرة كل حياة.

٢ ـ قف قرب الجدار على يساري، واسمع.

سأقول كلاماً، فاتبع كلامي.

إنا مرسلون طوفاناً من المطر، فنقضي على بني الإنسان.

ذلك حكم وقضاء مجمع الآلهة.

أمر «آنو» و «انليل».

فسنضع حدّاً لملكوت بني البشر.

٣ ـ هبت العـاصفة كلها دفعة واحدة، ومعها انداحت سيول الطوفان فوق وجه الأرض ولمدة سبع ليال، وسبعة أيام.

غمرت الأمطار وجه الأرض، ودفعت العواصف المركب العملاق فوق المياه الضخمة(١)

(١) مغامرة العقل الأولى، والأساطير القديمة.

فماذا نفهم من هذه الوثيقة؟؟

أولاً: مجمع الآلهة قرّر برئاسة الإلهين «آنو» و «انليل» القضاء على بني البشر، ووضع حد لملكوتهم.

ثانياً: قرب الجدار وعلى اليسار يتكلم بعض الآلهة مخاطباً بعض بني البشر منبئاً ومنذراً بالطوفان. طالباً إليه أن يبني سفينة لينجو، وأن يحمل فيها بذرة كل ذي حياة لتستأنف الحياة من جديد بواسطة هذه البذرة.

ثالثاً: الطوفان يقع، ويغمر كل وجه الأرض، ويحمل على غوار به المركب العملاق، ولكن هذه الوثيقة لا تذكر سبب غضب الآلهة على بني البشر مباشرة إلا ما يفهم من طغيانهم، فوضعت حدّاً لملكوتهم!!

الطوفان البابلي

ب ـ الطوفان البابلي

الحضارة البابلية قامت بعد الحضارة السومرية، ولعل ملحمة «جلجامش» الشهيرة وفي اللوح الحادي عشر منها خير وصف للطوفان البابلي، فلنستمع إلى ما يقوله «اوتونابشتيم» رجل الخلود لجلجامش[1]:

سأكشف لك أمراً كان مخبوءاً، وأبوح لك بسر من أسرار الآلهة.

شورييباك مدينة أنت تعرفها تقع على شاطىء الفرات.

هذه المدينة شاخت، والالهة في وسطها، فحدثتهم أنفسهم أن يرسلوا طوفاناً.

كان هناك «آنو» أبوهم وكان.. و «ننجيكو» كان حاضراً وهو «أيا» فنقل حديثهم إلى كوخ القصب.

ياكوخ القصب، يا كوخ القصب، جدار يا جدار[2]

---

(١) مغامرة العقل الأولى، والأساطير القديمة، والفولكور في العهد القديم.

(٢) ورد في نفس الإنذار والتعابير في الطوفان السومري مما يدل على تأثر وأثر الحضارة السابقة باللاحقة كما نرى هذا في الطوفان التوراتي ومدى أخذه عن السومريين والبابليين.

رجل شورباك يا ابن اوبارا ـ توتو

قوض بيتك، وابن سفينة، اهجر ممتلكاتك، وانج بنفسك، اترك متاعك، وانقذ حياتك، واعمل على حمل كل بذرة حياة.

والسفينة التي أنت بانيها ستكون وفقاً لمقاسات مضبوطة فيكون عرضها معادلاً لطولها، وغطها كما هي المياه السفلى.

عندما فهمت هذا يقول «اتونابشتيم»[1] فلت لـ «أيا»: مولاي سأضع نصب عينيّ ما أمرتني به.

جلب الأطفال القار، بينما جلب الكبار كل ذي فائدة.

وفي اليوم الخامس أنهيت السفينة.

كانت أرضيتها «انكو» واحداً[2] وارتفاع جدرانها مئة، وطول كل جانب من جوانب سطحها مئة وعشرين ذراعاً.

حددت شكلها الخارجي، وشكلّته.

وستة سطوح سفلية بنيت فيها.

وبذلك قسمتها إلى سبعة أقسام. طوابق.

كما قمت بتقسيم أرضيتها إلى تسعة أقسام.

وثبتُّ على جوانبها مصدّات المياه.

زودتها بالمؤن والذخيرة.

وسكبت في الفرن ست وزنات من القار، وثلاث وزنات من الإسفلت.

ثلاث وزنات من الزيت أتى بها حاملو السلال.

واحدة استهلكها نقع مصدات المياه.

واثنتان قام ملاح السفينة بخزنها.

كل ما أملكه من ذهب وفضة حملته إليها.

(١) في بعض الترجمات اثنا بشتيم.

(٢) نوع من المقاييس.

(١) اله الرعد والعاصفة.

كل ما لديّ من بذور كل حيّ حملت إليها.

وبعد أن أدخلت أهلي وأقاربي جميعاً، وطرائد البّرية، ووحوشها، وكل أصحاب الحرف، عين لي الإله «شمش» وقتاً محدّداً.

عندما يرسل سيد العاصفة مطراً مدمراً في المساء.

قلبت وجهي في السماء، كان الجو مرعباً.

دخلت السفينة، وأغلقت بابي، وأسلمت قيادها للملّاح «بوزور ـ أموري ـ أسلمته الهيكل العظيم بكل ما فيه.

وما أن لاحت تباشير الصبّاح حتى علت الأفق غيمة عظيمة كبيرة سوداء، يجلجل فيها صوت حدد[1]

ستة أيام، وست ليالٍ.

أخذ البحر يهدأ، والعاصفة تسكت، والطوفان يتوقف.

واستقرت السفينة على جبل «نصير»

ومضى اليوم الأول.. إلى اليوم السابع، والجبل ممسك بالسفينة.

واطلقت حمامة وعادت لأنها لم تجد مستقراً.

وأطلقت سنونوة.. وأطلقت غراباً ولم يعد.

عندئذ أطلقت الجميع، وقدمت أضحية.

سكبت خمر القربان على قمة الجبل.

أقمت سبعة قدور، وسبعة أخر، وجمعت تحتها قصب السكر الحلو، وخشب الأرز والآس. فتشمم الآلهة الرائحة الزكية.

وفي الملحمة أن الآلهة ندمت على ما فعلت.

صرخت عشتار كامرأة في المخاض.

ناحت سيدة الآلهة ذات الصوت العذب.

(١) آلة العاصفة.

كيف استطعت أن آمر بمثل هذا الشّر؟؟.
تدمير من أعطيتهم الميلاد.
هاهم يملأون اليّم كصغار السمك.

ج- الطوفان التوراتي

لتكـون المـطابقة تامة، والمشابهة ظاهرة بين ماجاء في المعتقدات السومرية البابلية وألواحها ووثائقها المكتشفة عن الطوفان، وبين ما جاء في التوراة نرى أنفسنا ملزمين ضرورة لنقـل الإصحـاحات ٦-٧-٨ من سفر التكوين ليقف معنا القراء على ما جاء هناك، في الأحقـاب الخـوالي، وبين ما جاء هنا في التوراة، ولم نكتف بإحالة القارىء الى المراجع المختلفة، إذ ربما لم يتيسر له ذلك.

«حدث لما ابتدأ الخلق يكثرون على الأرض، وولد لهم بنات وبنون أن أبناء الله رأوا بنات الناس[1] إنهن حسناوات، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا، فقال الرب لايدين روحي في الإنسان إلى الأبد لزيغانه، هو بشر، وتكون أيامه مئة وعشرين سنة.

ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصوّر قلبه إنما هو شرير كل يوم، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه، فقال الرب: أمحو عن وجـه الأرض الـذي خلقتـه الإنسـان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأني حزنت أني عملتهم. وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب.

وقال الله لنوح: نهاية كل بشر قد أتت أمامي لأن الأرض امتلأت ظلمًا منهم. فها أنـا مهلكهم، اصنـع لنفسك فلكاً من خشب جفرٍ، تجعل الفلك مساكن، وتطليه من داخل، ومن خارج بالقار، وهكذا تصنعه.

ثلاث مئة ذراع يكون طول الفلك، وخمسين ذراعاً عرضه، وثلاثين ذراعاً ارتفاعه،

(١) يلاحظ أن الذكور أبناء الله والبنات أبناء الناس.

وتصنع كوىً للفلك، وتكمله إلى حد ذراعٍ من فوق، وتصنع باب الفلك في جانبه، مساكن سفلية وعلوية ومتوسطة تجعله، فها أنا آتٍ بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء.

كل ما في الأرض يموت، ولكن أقيم عهدي معك، فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك، ونساء بنيك معك، ومن كل حيّ من ذي جسد اثنين من كل تدخل إلى الفلك لاستبقائها معك، تكون ذكراً وأنثى من الطيور كأجناسها، ومن البهائم كأجناسها، ومن دبابات الأرض كأجناسها، اثنين اثنين تدخل معك لاستبقائها، وأنت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل، واجمعه عندك فيكون لك ولها طعاماً. ففعل نوح كل ما أمره الله به، هكذا فعل.

وقال الرب لنوح ادخل أنت وجميع بيتك إلى الفلك، لأني إياك رأيت بارّاً لديّ في هذا الجيل.

من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكراً وأنثى، ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكراً وأنثى لاستبقاء نسل على وجه الأرض. وكل قائم عملته، ففعل نوح كل ما أمره به الرب.

ولما كان نوح ابن ستمائة سنة صار طوفان الماء على الأرض، فدخل نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه الطوفان، ومن البهائم الطاهرة والبهائم غير الطاهرة، **ومن الطيور، وكل مايدّب على الأرض دخل اثنان اثنان إلى نوح في الفلك ذكراً وأنثى كما أمر الله نوحاً.**

وحدث بعد السبعة الأيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض في سنة ستمائة من حياة نوح في الشهر الثاني من اليوم السابع عشر من الشهر.

في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم، وانفتحت طاقات السماء، وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة.

وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض، وتكاثرت المياه، ورفعت الفلك فارتفع عن الأرض، وتعاظمت المياه، وتكاثرت جداً على الأرض، فكان الفلك يسير على وجه المياه.

وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الأرض فغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء خمسة عشر ذراعاً في الإرتفاع تعاظمت المياه فغطت الجبال، فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض من الطيور والوحوش والبهائم والزحافات.

فمحا الله كل قائم على وجه الأرض، الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء، وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط، وتعاظمت المياه على الأرض مئة وخمسين يوماً.

ثم ذكر الله نوحاً، وكل الوحوش، وكل البهائم التي معه في الفلك، وأجاز الله ريحاً على الأرض فهدأت المياه، وانسدت ينابيع الغمر، وطاقات السماء، فامتنع المطر من السماء، ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً، وبعد مئة وخمسين يوماً نقصت المياه، واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط، وكانت المياه تنقص نقصاً متوالياً إلى الشهر العاشر وفي العاشر من أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال.

وحدث بعد أربعين يوماً أن نوحاً فتح طاقة الفلك التي كان قد عملها، وأرسل الغراب فخرج مترداداً حتى نشفت المياه عن الأرض.

ثم أرسل حمامة من عنده ليرى هل قلت المياه عن وجه الأرض، فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها فرجعت إليه إلى الفلك لأن مياهاً كانت على وجه كل الأرض، فلبث سبعة أيام أخر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك فعادت إليه الحمامة عند المساء وفي فمها ورقة زيتون خضراء فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الأرض، فلبث أيضاً سبعة أيام أخر وأرسل الحمامة فلم تعد ترجع إليه.

وكان في السنة الواحدة والست مئة في الشهر الأول في أول الشهر أنّ المياه نشفت عن الأرض، فكشف نوح الغطاء عن الفلك فإذا وجه الأرض قد نشف، وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين من الشهر جفت الأرض.

وكلّم الله نوحاً قائلاً: اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك، وكل الحيوانات التي معك.

وبنى نوح مذبحاً للرب، وأخذ من كل البهائم الطاهرة، ومن كل الطيور الطاهرة، وأصعد محرقات على المذبح، فتنسّم الرب رائحة الرضا.

وقال الرب في قلبه؛ لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان، لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته، ولا أعود أيضاً أميت كل حيّ كما فعلت.

هذه هي قصة الطوفان في التوراة بأسبابها ووسائلها، ونتائجها، وذكر تفاصيلها، من بناء الفلك، ووضعه، وطوله وعرضه، وارتفاعه وطبقاته، ومساكنه، ونوع خشبه، وطليه بالقار.

وهناك وصف الطوفان، وارتفاع المياه، وسير الفلك، وحمولته، ومدة الطوفان، والاستكشاف، ورسوّ الفلك، وانحسار المياه، والمذبح، والمحرقات، ورضاء الرب لرائحة المحرقات، وحزنه، وتأسفه لما فعل، وقوله: لا أعود ألعن الأرض.

المقارنة بين السابق واللاحق

وهنا يظهر التشابه التام، والتماثل الصارخ بين فلك نوح، وسفينة «اوتونا بشتيم» والمطابقة بين طوفان نوح اللاحق وبين طوفان سومر وبابل السابق، وحمل الفلك والسفينة بذرة كل ذي حياة، والمسير في المياه العظيمة، والرسوّ على جبل «نصير» و «اراراط» وهما متقاربان في أعلى الخليج وشمال العراق.

هذا التوافق والتطابق، والتشابه والتماثل يجعل الباحث يحكم جازماً بأن كاتب سفر التوراة استلهم واعتمد المعتقدات التي كانت سائدة ومعروفة قبله بين أقوام المنطقة وشعوبها.

وإلى القراء هذه المقارنة:

١ ـ أن الطوفان بسومر وبابل حدث بأمر الآلهة. وفي التوراة حدث بأمر الرب الإله.

٢ ـ البشر في أساطير سومر وبابل أزعجوا الآلهة، وخالفوا أوامرها.

وفي التوراة البشر كثروا، وتزوجوا بنات الناس الحسناوات، وأصبحوا أشراراً.

٣ ـ الآلهة في سومر وبابل تندم وتبكي وتصرخ لما فعله بعضهم ـ بعض الآلهة ـ في البشر.

وفي التوراة الرب الإله يحزن ويأسف لما فعله.

٤ ـ في أساطير سومر وبابل تعهدت الآلهة أن لاتعود تدمر من أعطتهم الميلاد.

وفي التوراة يقول الرب: لا أعود ألعن الأرض.

٥ ـ في الأساطير البابلية انذار مبكر لصنع السفينة.

وفي التوراة انذار مبكر لنوح لبناء الفلك.

٦ ـ في الأساطير يتم الإنذار بواسطة الحلم، أو من وراء جدار، أو مباشرة «لاوتونابشتيم» وفي الكتاب المقدس مباشرة مع نوح.

٧ ـ السفينة البابلية ذات مقاييس وأبعاد، وكوى.

وفلك التوراة له نفس الأوصاف.

٨ ـ السفينة البابلية أداة للنجاة من الطوفان.

وكذلك فلك نوح التوراة.

٩ ـ سفينة بابل مطلية بالقار.

وكذلك فلك نوح.

١٠ ـ طول السفينة البابلية معادل لعرضها، وكل جانب من جوانب سطحها مئة وعشرون ذراعاً، وارتفاع جدرانها مئة ذراع.

وفلك التوراة طوله ٣٠٠ ذراع، وعرضه خمسون ذراعاً، وارتفاعه ثلاثون.

١١ ـ سفينة بابل ذات سبعة سطوح سفلية، ومقسومة إلى سبعة طوابق. وأرضيتها لتسعة أقسام.

وفلك نوح التوراة فيه مساكن سفلية، ومتوسطة وعلوية.

١٢ ـ حمولة السفينتين البابلية والتوراتية متطابقة تماماً:

أولاً: الموحى إليهم «اتونابشتيم» وذووه، ونوح وأهله.

ثانياً: المؤنة والذخائر.

ثالثاً: يلاحظ أن ذكر الماء لم يرد في كليهما، وربما اندرج تحت تعبير المؤنة والذخائر.

رابعاً: ومن كل زوجين اثنين من كل ذي حياة ذكراً وأنثى لاستئناف الحياة.

١٣ ـ كلا السفينتين تعوم وتسير في **المياه** العظيمة التي غمرت كل وجه الأرض.

١٤ ـ سفينة بابل ترسو على جبل **«نصير»**[1].

وسفينة التوراة ترسو على جبل «اراراط».

١٥ ـ في كلا القصتين تذبح الذبائح، وتصعّد **المحرقات** لرضى الآلهة.

١٦ ـ وفي كلتيهما تشم الآلهة الرائحة الزّكيّة ـ رائحة **الشحم واللحم** المحروق ـ فترضى.

(١) في بعض الترجمات جبل «نيسير» وهو لفظ فريت من «نصير».

المفارقات:

١ ـ سفينة نوح أو فلكه من خشب جفر.

أما سفينة «اوتونا بشتيم» فلم يذكر نوع خشبها.

٢ ـ سفينة نوح لم يذكر لها ملاح.

أما سفينة «أوتونابشتيم» فملاحها توزور ـ أموري.

٣ ـ سفينة بابل تم بناؤها في خمسة أيام.

أما سفينة التوراة فلم يتحدد الزمن الذي استغرقه بناؤها.

٤ ـ مدة هطول المطر في الأسطورة البابلية ستة أيام، وست ليالٍ، وفي بعض الألواح سبعة.

أما في السفر التوراتي فأربعون يوماً، وأربعون ليلة.

٥ ـ ظلت السفينة البابلية سبعة أيام على الجبل حتى بدأت المياه بالانحسار.

أما في سفر التكوين التوراتي فقد استمر الماء مئة وخمسين يوماً حتى بدأ بالإنحسار.

٦ ـ ملاح السفينة البابلية أرسل للاستكشاف حمامةً، فسنونوة، فغراباً، وعلى فترات.

ونوح التوراة أرسل غراباً، فحمامة أولى، فثانية، وعلى فترات حدّدها بسبعة أيام بين الأولى والثانية.

٧ ـ يلاحظ بعض الاضطراب في رواية التوراة، فحينا يأمر الله نوحاً أن يُدخل إلى السفينة من كل زوجين اثنين ذكراً وأنثى، وأحياناً يأمره أن يدخل من الحيوانات الطاهرة سبعة سبعة (راجع النص على الصفحة السابقة).

وعلى هذه فالتوراة أخذت قصة الخليقة وقصة الطوفان عن الشعوب التي أقامت حضارتها، وشكلت معتقداتها، وأساطيرها في تلك المنطقة، ولا يماري في هذه الحقيقة الصارخة إلا مكابر متعنت تعميه عصبيته عنَ رؤية الحقائق السافرة، ولا يستضيء بنور العلم.

ان اطلاق صفة «الأسطورة» على معتقدات وتقاليد الاقوام البائدة وإطلاق صفة «القداسة» على معتقدات وتقاليد الاقوام المتأخرة لايغير شيئاً من قداسة الحقيقة العلمية، ولايحول دون الأخذ بها، ونبذ ماسواها.

ان البحوث العلمية، والاكتشافات الأثرية، اظهرت لنا بما لايقبل الشك ولا التردّد والارتياب، ان الحقائق، أو بعض الحقائق التي نقرّها، وندين بها، ونعتبرها «مسلمات» لاتخرج في حقيقتها وواقعيتها عن تلك الاساطير.

ومن هنا كان القول المأثور: ان حقائق الأولين اساطير الاخرين، اما التساؤلات المفترضة، والتي لم تجب عليها «الاسطورة» ولا التوراة، الكتاب المقدس فهي كثيرة أهمها:

١ ـ كيف تسنى للسفينة ان تستوعب زوجين اثنين من كل ذي حياة؟ علمًا بأن انواع الحيوانات من الطيور والزواحف والوحوش تبلغ الملايين كما هو مشاهد ومعاين، !! (لاحظ مساحة السفينة).

٢ ـ كيف تسنى للحيوانات والزحافات السامة ان تساكن غيرها من راكبي الفلك؟؟

٣ ـ كيف امكن الحيوانات الآهلة ان تعايش الحيوانات المفترسة المتوحشة؟؟

٤ ـ لو افترضنا جدلاً ان كل صنف أو نوع متجانس أحله صاحب الفلك في طبقة من طبقات الفلك!! فكيف تيسر له ان يجمعها ـ على اختلافها ـ ويدخلها معه في السفينة وفي وقت واحد محدد ومعين راضية طائعة مستسلمة مستأنسة وفيها المفترس كالأسد، والنمر، والسّامّ كالأفعى والعقرب.

٥ ـ كيف أتيح لهُ ان يحمل طعام كل هذه الأنواع المختلفة، وفيها اللاّحمة، والقارضة، وأكلة الحشايش، ومن تتغذى على الديدان، او الحبوب، وخاصة في سفينة التوراة وقد ظل الماء يغمر كل وجه الارض من اليوم السابع عشر من الشهر الثاني لعام ٦٠٠ لولادة نوح حتى اليوم السابع والعشرين من الشهر الثاني لعام ٦٠١ لولادة نوح!! مع العلم ان المؤنة المختلفة لاعاشة هذه الحيوانات طوال هذه المدة تحتاج الى مجموعة سفن لاستيعابها.

واذا اخذنا بلغة الارقام فاننا نجد ان الطوفان ظل يغرق الارض كما يلي:

بدأ الطوفان في اليوم السابع عشر من الشهر الثاني لعام ٦٠٠ لولادة نوح.

جفت الارض في اليوم السابع والعشرين من سنة ٦٠١ لولادة نوح حيث خرج من السفينة وقدم محرقاته. وتكون لدينا الحصيلة التالية:

١٣ يوماً لبقية الشهر الثاني لعام ٦٠٠ + ٣٠٠ يوم بقية ايام عشرة شهور من سنة ٦٠٠ + ٢٧ يوماً من الشهر الاول لسنة ٦٠١ والمجموع.

١٣ + ٣٠٠ + ٢٧ = ٣٤٠ يوماً.

ولكن الغرابة تبدو للقارىء اذا ادرك ان الحمامة التي أطلقها نوح للاستكشاف عادت اليه وفي فمها ورقة زيتون خضراء.

هل لاحظ القارىء ان ورقة الزيتون.. خضراء ولم تتأثر بالعوامل الطبيعية وقد ظلت مغمورة بالمياه اكثر هذه المدة.

ان كاتب السفر لم يخطر بباله، ولم يدر بخلده اننا سنكتشف هذا الخطأ الفادح الفاضح.

هذه قصة الطوفان السومري البابلي ـ التوراتي ـ فهل هناك طوفان آخر وسفينة اخرى، وغضب آلهة، أو اله آخر؟؟

لم تحدثنا الاناجيل ـ سواء منها التي أقرتها الكنيسة، او التي لم تقرها وحرمتها واستبعدتها.

لم تحدثنا عن طوفان يفرق الارض، ويفني البشر، بل اكتفى كتبة الاناجيل من التلامذة ـ تلامذة السيد المسيح ـ وحواريه بسرد حياة معلمهم، وذكر ماأظهره من الخوارق، ومانشره من الاخلاق، وماشرعه من نظام الحب والصفاء والانسانية.

ولكن ربما اكتفى «العهد الجديد» بما جاء به «العهد القديم» في هذا الموضوع من ذكر الكون والخلق والطوفان.

اما القرآن كتاب الاسلام، ودستور المسلمين فقد اورد قصة الطوفان في اكثر من موضع في سُوَرِهِ ولكن بأسلوب يختلف عن اسلوب التوراة.

«حتى اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول، ومن آمن، وما آمن معه الا قليل. وقال: اركبوا فيها بسم الله مجراها

ومُرساها ان ربي لغفور رحيم، وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه، وكان في معزل: يابني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء قال: لاعاصم اليوم من امر الله، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين، وقيل ياأرض ابلعي ماءك، وياسماء اقلعي، وغيض الماء، وقضي الامر، واستوت على الجوديّ وقيل: بعداً للقوم الظالمين(١)

وفي القرآن ايضاً: واصنع الفلك بأعيننا ووحينا، ولاتخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون، ويصنع الفلك وكلما مر عليه رجل من قومه سخروا منه قال: ان تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون(١)

بهذا الايجاز المعجز يعرض القرآن قصة الطوفان بدون ذكر الجزئيات، فيشير الى الايحاء الى نوح بصنع الفلك، والى الغاية من الطوفان، وهي اغراق «الذين ظلموا» وانه امره ان يحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهله، ومن آمن معه، وهم قلة، كما يشير الى نداء نوح لاحد بنيه، والى اغراق هذا الابن «مع الكافرين» كما يشير الى السفينة وجريها في موج كالجبال، ثم الى ابتلاع الارض للمياه، واقلاع السماء عن الامطار، واخيراً الى استواء السفينة ـ الفلك ـ على جبل «الجودي»

لم يشر القرآن الى ان الطوفان أغرق كل الاحياء، وانما أغرق «الذين ظلموا» كما لم يحدد مدة استمرار الطوفان.. وقيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك، وامم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم.

وهنا يمكن ان نقارن بين آلة التوراة الذي ينتقم من كل ذي جسد فيه حياة، وبين آلة القرآن الذي لايعاقب الا «الذين ظلموا» وكذبوا رسوله نوح.... قال نوح ربّ اني دعوت قومي ليلاً ونهاراً، فلم يزدهم دعائي الا فراراً، واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم، واصروا واستكبروا استكباراً.

و. قال نوح ربي انهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خساراً ومكروا مكراً كباراً (٢)

(١) سورة هود

(٢) سورة نوح

وسؤال . . . هل يمكن ان نفهم الطوفان فهما رمزياً؟؟ وقد الح الشاعر المكرزون الى هذا قائلاً :

وأقـرن بالحـديـد الى قريـن عليـه بالـسـفـيـنـة ناح نوح

وهذا البيت من قصيدة رمزية سنحلل رموزها بالمجلد الرابع .

إله التوراة

وهنا لابد لنا من الاشارة الى «يهوه» آله التوراة، آله بني اسرائيل وكيف يصوره الكتاب «المقدس» .

لم يكن لليهود اله خاص قبل موسى فقد كانوا في قديمهم بدواً رُحّلاً، لهم مجموعة من الآلهة كالحمل والعجل وغيرهما حتى ان موسى لم يستطع منعهم من عبادة العجل الذهبي رغم انذار هرون وصي موسى، وكيف اعدم موسى واللاويون ثلاثة الاف منهم عقاباً على هذه العبادة .

ففي سفر الخروج الاصحاح ٣٢ يذكر كيف رقص اليهود عراة امام العجل الذهبي .

كما نجد في سفر الملوك الاول الاصحاح ١٢ وفي الآية ٢٨ وفي خرقيال ٨ : ١٠ دليلاً على عبادتهم لهذا الحيوان .

كما ان «اهاب» ملك اسرائيل عبد الابقار بعد سليمان بقرن واحد وكان بعضهم يعظم بعلاً وغيره من الآلهة الأخرى .

ثم اتخذوا «يهوه» الهاً قومياً!! فهل «يهوه» آله اسرائيل؟؟ أم أنه كان معروفاً قبلهم؟؟

من الآثار المكتشفة في أرض كنعان مايدل على ان هناك آلهاً كنعانياً يدعى «ياه» أو «ياهو» ويرجع تاريخه الى ٣٠٠٠ سنة ق.م و «يهوه» ـ كما اراد كهنة اليهود ان يكون ـ آله قومي «مبارك الرب آله اسرائيل من الازل، والى الأبد[1]

(١) مزمور ١٠٦

وذو نزعة حربية «الذي ضرب أمماً كثيرة، وقتل ملوكاً أعزاء[٢] واعطاهم اراضي الامم، وتعب الشعوب ورثوه[٣]

«يرسل الرب قضيب عزل من صهيون. . . ملأ جثثاً ارضاً واسعة، سحق رؤوسها»[٤] «محارب لايتعامل مع الشعوب الاخرى الا بالسيف».

ويقول موسى: «الرب رجل حرب».

ويقول داوود «الرب يعلم يدي القتال».

يعد اسرائيل وعوداً معسولة «سأجعل نسلك عدد رمال الصحراء، اعداؤك أجعلهم طعمة لسيفك، وأعطيك الارض التي تدرّ لبناً وعسلاً، وأعطيك جميع اعدائك».

كما انه متقلب الاطوار، وترضيه الحيل، فقد أقر يعقوب الذي احتال على أبيه وسرق بكورة. اخيه «عيصو» وكذلك مافعله مع «لابان» وهو غير عالم بالأشياء ـ كما تظهره التوراة ـ فيأمر اتباعه بأن يميزوا بيوتهم بدماء الكباش التي يذبحونها لئلا يهلكهم كغيرهم عندما يجتاز بهم منتقماً.

ويعترف بخطئه عند حموّ غضبه، ويأسف، ويندم!!!.

ويتباهى بنفسه كالجندي «اني انا الرب حين أتمجد بفرعون ومركباته وفرسانه»

ويذبح أمماً بأسرها راضياً مسروراً كما فعل مع يشوع في معاركه.

وهو غيور من الآلهة الأخرى «انا الرب الهك آله غيور افتقد ذنوب الآباء في الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع من مبغضيّ».

ويتملّقه موسى ليرجع عن عواطفه المثارة «ارجع عن حموّ غضبك، واندم على الشر بشعبك».

ويتفاقم غضبه فيلعن شعبه، ويهدّده بشتى المصائب والأوجاع، وينزل به «الضربات».

«ملعوناً تكون في الحقل، ملعونة تكون ثمرة بطنك، ثمرة أرضك، ملعوناً تكون في

(٢) مزمور ١٣٥

(٣) مزمور ١٠٥

(٤) مزمور ١١٠

دخولك، ملعوناً تكون في خروجك، يرسل الرب عليك الامن والاضطراب، والزجر في كل ماتمتـد اليه يدك لتعمله حتى تهلك وتفنى سريعاً من أجل سوء أفعالك اذ تركتني، يلصق الـرب بك الـوبـاء حتى يبيدك من الارض التي انت داخل اليها لكي تمتلكها، يضربك الربّ بالسلّ والحمّى والبرداء والالتهاب، والجفاف واللفح، والذبول فتتبعك حتى تفنيك، يضربك الرب بقرحة مصر، وبالبواسير والجرب والحكة حتى لاتستطيع الشفاء، يضربك الرب بجنون وعمى، وحيرة قلب، ايضاً كل مرض وكل ضربة لم تكتب في سفر الناموس هذا يسلطه الرب عليك حتى تهلك».

أيــن هذه القسوة، والغضب الحامي، والسخط والانتقام والتهديد والتخويف من رحمة رب الانجيل وآله القرآن التواب الغفور الذي يغفر الذنوب جميعاً الا ذنب الاشراك به، «ياعبادي الذين اسرفوا على أنفسكم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً».

لم يكن «يهوه» الاله الوحيد لشعب اسرائيل بل كانت هناك آلهة متعددة، فللمؤابيين «شمش» ولعكرون «بلزبوب» وللعمونيين ملكوم، كما كان يعبد بينهم «بعل» و «مولك» وغيرهما لأن النزعة الانفصالية كانت متأصلة فيما بينهم، والى هذا أشار آرمياً «على عدد مدنك صارت آلهتك ياهوذا».

و «يهوه» الاله القومي المحارب، المرافق لشعبه في حلّه وترحاله، والساكن بينهم لم يمنع، أو لم يستطع ان يمنع يهوذا من ان تخضع لمصر خضوع المذلة والهوان حيناً، ولبابل احياناً ولم يقدر ان يمنع «يوشيا» من سيف «نخاو» ومن القضاء على جيشه في معركة «مجدو» المعروفة في التاريخ.

و «نبوخذ نصر» يجعل يهوذا ولاية مستعبدة لبابل.

ثم يعود ثانية ويأسر «يهوياقيم» ملك اورشليم، ويهدم هيكلها، ويسبيهم الى بابل، ويجر وراءه عشرة آلاف أسير الى بلاده.

ويزحف ثالثة ويحرق أورشليم، ويهدم الهيكل، ويقع السبي الكبير.

ولكن انبياء اسرائيل يجدون اعذاراً لهذا الآله، وذلك انهم تركوه، وعبدوا آلهة غيره،

وهو آله غيور، ولأنهم تزوجوا من الشعوب الغريبة، يقول آرميا: طوفوا في شوارع اورشليم، انظروا، واعرفوا، وفتشوا في ساحاتها هل تجدون انساناً؟؟ أو يوجد عامل بالعدل؟؟ او طالب حق فأصفح عنها؟؟ لقد صار الظلم في كل مكان، وعم الفسق والفجور، ولما اشبعتهم زنوا، وفي بيت زانية تزاحموا، صاروا حصناً ملعونة، سائبة، صهلوا كل واحد على امرأة أخيه»!!

الالهة في التاريخ

هذه نماذج عن الآلهة في التاريخ ومعتقدات الشعوب، ويمكننا ان نميز منها نوعين اثنين.

١ ـ كل الآلهة القديمة بما فيها اله التوراة هي آلهة لها كل صفات الانسان، وتتمتع بكل طبائع البشر من حب وبغض، وسخط ورضاء، ورحمة ونقمة، وحقد وتسامح، وقسوة ولين لاتختلف في شيء من طبائع شعوبها ونزعاتها وميولها لان هذه الشعوب صاغت آلهتها من نفوسها وفق حبها وكرهها، وغرايزها، وتجسيداً لآمالها ومطامحها وكل مايختلج في نفوسها، ويعتلج في ضمائرها، خلقوها كما شاءوا، وقوّلوها ماارادوا، وفعّلوها مايرون.

٢ ـ المسيحية تعتبر مرحلة انتقال من التعديد الى التوحيد، كما تجمع بين التجريد والتجسيد فالأب، والابن، والروح القدس هو التثليث المسيحي والتثليث يعني التعدد ولكن هذا الثالوث اله واحد وهذا يعني التوحيد.

والطبيعتان اللاهوتية وتعني التجريد، والناسوتية وتعني التجسيد، واله الانجيل مثل أعلى للرحمة والمحبة وتوجيه الانسان نحو الكمال.

والاله في القرآن كمال مطلق، قادر على كل شيء غفور رحيم، ليس كمثله شيء.

لم يقتصر التشابه والمماثلة بين معطيات التاريخ القديم، وبين بعض الكتب المقدسة على صفات الآله وحوادث الكون والخلق، والتكوين، والطوفان، وغضب الالهة، والاساطير، والحقائق، بل تجاوز ذلك وتعداه الى التشابه والمماثلة والمشاكلة بين المصلحين والانبياء وولاداتهم، وماحاط بتلك الولادات من أساطير واعاجيب وخوارق!!.

هذا ذرادشت مثلاً ٦٦٠ ق.م تقول عنه الكتب الايرانية القديمة المقدسة: ان الله نفخ في رحم أمه العذراء من روحه، فتقمص روح الله جسداً، تجمع بين اللاهوث والناسوث، ولما ولد احاط بالدار نور قدسي، وهّاج، وهبط من السماء كوكب عظيم، ودنا من الارض، وأعلن النبأ السارّ، وانه ـ اي ذرادشت ـ ضحك عند ولادته ضحكاً عالياً سمعه الحاضرون، وان المنجمين بشروا بولادة نبي في اذربيجان حيث ولد ذرادشت.

فحمل العذراء بلا دنس، ومن النفخة من روح امه، وتقمص روح الله جسداً يجمع بين اللاهوث والناسوث، واحاطة الدار بالنور، والضحك عند الولادة، وبشارة المنجمين بميلاد نبي، كل هذا يتطابق من كل الوجوه كل التطابق مع ولادة السيد المسيح، وحمل امه مريم العذراء من نفخة الروح القدس وتجسيد روح الله جسداً جمع اللاهوث والناسوث.

ولئن ضحك ذرادشت عند ولادته وسمعه الحاضرون فان السيد المسيح تكلم عند مولده كما يذكر القرآن «فأشارت اليه قالوا: كيف نكلم من كان في المهد صبياً، قال: اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً اينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حياً. . الآيات[1] وان كانت الاناجيل لم تورد قصة التكلّم في المهد.

وتروى الكتب الايرانية المقدسة ان حاكم اذربيجان أراد ان يحرق الطفل ذرادشت خوفاً منه، ومن مستقبله، وأشار السحرة عليه ببناء بنيان كبير، ويملأه وقوداً ويشعل فيه النار، ويلقيه فيها، ففعل كل ذلك، ولكن الطفل لم يحترق، ونام في النار، وكانت النار برداً وسلاماً عليه.

وهنا تلتقي قصة ذرادشت مع قصة ابراهيم كما جاءت في القرآن، «قالوا: ابنوا له بنياناً فالقوة في الجحيم، قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم.»

ولكن قصة السيد المسيح جاءت بعد ٦٦٠ سنة من مولد ذرادشت بينما قصة ابراهيم المشابهة جاءت قبل ميلاد ذرادشت بحوالي ١٢٠٠ سنة.

لم ترد قصة حرق ابراهيم في التوراة، ولا في الاناجيل، وانما أوردها القرآن، وجاءت مشابهة ومماثلة من كل الوجوه لقصة حرق ذرادشت ونجاته. واحالة النار الى برد وسلام على

(١) سورة مريم

كليهما.

وتـروي المصـادر الايرانية: انـه عندما بلغ ذرادشت الثلاثين من عمره نزل عليه «الوحي» من السماء فرأى كائناً مضيئاً يهبط من السماء حجمه تسعة امثال الانسان يحمل في يده عصاً من اللهب، فدنا منه وأنبأه بأنه كبير الملائكة أرسله الله اليه ليعرج الى الملأ الأعلى لشرف المثول امام الله «اهورامزدا» وهناك اشرقت عليه معرفة الحق، وتكشفت له اسرار الكـون، ورفعت عن بصره وبصـيرتـه الحجب، وأوحي اليه دين تام، وكتـاب مقدس «الابستاق» وأصبح نبياً مرسلاً[1]

وراد بلاده، وقاسى آلاماً، ولم يجد مستجيباً، ورحل الى بلاد الطورانيين، ولم يجد عندهم خيراً، وتعرض للهلاك اكثر من مرة، ولم يصبر صبره الا اولو العزم من الرسل، ثم أرسله الله الى ملك «بلخ» ولما سمع بعض الآيات من كتابه المقدس لان قلبه، ثم ظهرت له عجائب ومعجزات فأبرأ الأعمى فآمن به الملك وحاشيته[2]

والفصل الأخير من قصة ذرادشت تشبه من أكثر جوانبها ماوقع للرسول العربي محمد بن عبد الله من نزول جبرائيل عليه، وعروجه الى السّماء الى سدرة المنتهى، ونزول القرآن، وعناد قومه من مشركي قريش، وعدم استجابتهم دعوته، ومحاولة قتله، وهجرته الى المدينة، كما ان ايمان ملك «بلخ» بذرادشت بعد سماع بعض الايات من كتابه المقدس تشبه قصة عمر بن الخطاب عندما سمع بعض آيات من القرآن تتلى في بيت اخته فآمن وأسلم.

ويحمل الينا التاريخ اسماء كثيرين من الذين رفعهم اتباعهم الى مراتب الالهة والانبياء وتشبه ولادتهم وسيرتهم في كثير من وجوهها سيرة السيد المسيح.

١ ـ افلاطون، امه عذراء حملت به من الاله ابولو لامن ارستين الذي كانت على وشك ان تزف اليه.

٢ ـ الاسكندر المكدوني وقد نفى والده فيليب امه فحملت به في المنفى من الاله

---

(١) الابستاق يشتمل على ٢١ سفراً تحوي الشريعة الزرادشتية.

(٢) مقارنة الاديان للدكتور أحمد شلبي.. اما قتل ذرادشت على يد الطورانيين عام ٨٥٣ ق.م كما يقول الدكتور شلبي فهو خطأ فاضح لان ميلاد ذرادشت كان سنة ٦٦٠ ق.م

زيوس.

٣ـ فيثاغورس وقد حملت به امه سنة ٥٥٠ ق.م من روح الاله ابولو «الروح القدس»

ووصف بأنه ابن الله، والفار قليط، وان امه عذراء مقدسة وكان يمشي على الماء، وعلى متن الهواء، ويخمد العواصف، ويطرد الشياطين، ويحي الاموات، ويحب الفقراء، ويدعو الى مصافاة الاعداء، واطاعة الوالدين، ويحرم الخمر.

٤ ـ كرشنا: وقد صلب في الهند ١٢٠٠ ق.م وقصته مشابهة من كل جوانبها لقصة يسوع وتكاد لاتختلف عنها.

٥ ـ مترا: امه عذراء وقد ولد في ٢٥ ديسمبر في كهف وصلب تكفيراً عن اثام البشر.

٦ ـ بوذا، امه عذراء مقدسة. ولما ولد انتصب واقفاً، وقد حاول ابليس ان يغرّر به، ويهبه مافي العالم (كما تم ليسوع) ثم صلب تكفيراً عن خطايا البشر.

٧ ـ كوجز يكوت، وقد صلب في المكسيك سنة ٥٨٧ ق.م امه عذراء تجرب من ابليس، امتطى جحشاً، تسمر على الصليب بين لصين، قام في اليوم الثالث وصعد الى السماء.

٨ ـ برمثيوس صلب في القوقاز سنة ٥٤٧ ق.م وقام من الاموات.

٩ ـ كيرينوس، صلب في روما سنة ٥٠٦ ق.م حملت به امه العذراء بلا دنس قام من الموت وهناك مورس، وباخوس، وهرمس، ولا وتسي، واوزيريس وغيرهم.

الفصل الرابع

الحضارة اليونانية

هذه النظرة العجلى تعطينا فكرة عامة عن آلهة الشرق الأوسط والأدنى، كسومر وبابل وفارس والهند وفلسطين، أو أرض كنعان كما كانت قديمًا.

والآن.. ماذا عن الحضارة اليونانية، وفكرة الآله؟؟

نحن نعلم استناداً على معطيات التاريخ ان مجموعة الحضارة الأولى نشأت على ضفاف الأنهار، في مصر، ومابين النهرين، والهند.

والمجموعة الثانية قامت على شواطىء المتوسط.

وازدهرت المجموعة الثالثة على شواطىء الاطلنطي.

ويحتمل ان تقوم المجموعة الرابعة على شواطىء المحيط الهادي.

ولسنا بحاجة لدراسة العوامل المناخية والاقتصادية التي هيأت لهذه الامكنة اسباب قيام الحضارات بها، وعوامل نموها وازدهارها، فهذا كله ليس من غرضنا وكل مايهمنا ان نتلمس الخصائص ونربط بين السلسلة الممتدة بين هذه الحضارات بما يختص بتصور الآله وطقوس الدين، ومايتعلق بهما عند أولئك الشعوب ومدى تأثير سابقة هذه الحضارات بلاحقتها في هذا الموضوع.

واللمحات التاريخية التي نوردها، لانوردها لذاتها بل بقدر ماتخدم غرضنا المشار اليه، ولاتعدو كونها وسيلة للوصول الى تلك الغاية ـ غاية تتبع الفكر والعقل الانساني في تلك العصور تدرجاً حتى عصورنا الحديثة في مجال تصور الآله والتدين له، والطقوس المتعلقة بذلك.

لقد عرفنا ـ مستر شدين باكتشاف العلم وتحقيق العلماء وبما جاء به الكتاب المقدس ـ التوراة ـ ان الانسان الأول نشأ في هذا الشرق وفي منطقة مابين النهرين ـ دجلة والفرات ـ وقد حدّد العلماء والمؤرخون، والمنقبون هذه البقعة بالذات، وشهدت بذلك المكتشفات، والأديان السماوية.

وحضارات هذا الشرق هاجرت غرباً عن طريق آسيا الصغرى وبعضها عبر فارس، الى كريت والبحر الايجي، وكونت الحضارة الكريتية، الايجية، وقد كان لها أوثق الصلات بالحضارة الأوغاريتية القائمة على الضفة الشرقية من البحر الابيض المتوسط المقابلة للأرخبيل الايجي اليوناني.

حوالي ٣٥٠ ـ ١٠٠ ق. م توصلت كريت وجزر بحر ايجي الى لون متميز من الحضارة استمد نسغه من حضارة مابين النهرين، ثم أعطت هذه الحضارة ـ الحضارة الكريتية ـ بذوراً وأسساً للحضارة اليونانية، وأمدتها بوسائل التكوين والنمو.

وحضارة اليونان هذه ـ كما يصورها لنا التاريخ ـ بلغت الذروة العليا بين الحضارات التي سبقتها، وتركت آثارها البارزة الواضحة على الحضارات التي لحقتها، فقد حملت ثمارها الناضجة شرقاً مع فتوحات الاسكندر المكدوني حتى شملت آسيا ومصر، كما امتدت غرباً بعد ان اقتبسها الرومان حتى شملت كل أوربا.

هذه الحضارة حملت للعالم الكثير الكثير، وأعطته الغزير الوفير من فيض النور، وحكمة العقل ونعم الحياة وفلسفة الدين والآله.

فالمدارس والملاعب، والمسارح، والمعابد، وعلوم الحساب، والهندسة والتاريخ، والبلاغة، وعلوم الطبيعة، والاحياء والتشريح والصحة والرياضة، وفن التجميل، والشعر والموسيقى، والمسالي، والفلسفة، والدين، واللاادرية والتشكيك، والمثالية، والرواقية، والابيقورية، وعلم الأخلاق، والسياسة، وحب الانسانية، والاستبداد، والبلوتوقراطية، والديمقراطية وغيرها وغيرها. كلها عرفها اليونانيون قبل ان يعرفها الكثير من العالم، وكلها صور لحضارة وثقافة نشأت وترعرت ونضجت لدى اليونانيين ونقلها العالم عنهم حتى في الفاظها اليونانية الى كل لغات العالم. ولكنها لم تتنكر لبذورها الواردة من الشرق كما اشرنا.

ماذا عن الله والفلسفة في الحضارة اليونانية؟؟

لئن تميز اليونانيون عن غيرهم من الشعوب في تلك المرحلة بكثير من العلوم والفنون والمعارف فان آلهتهم ظلت متعددة بتعدد مظاهر الطبيعة وتأثراً بحضارات الشرق وآلهته المتعددة، ومثلت نزعاتهم وميولهم وغرائزهم ومقتضيات حياتهم فهناك اله للمطر، واله للخصب، ومثله للجدب، والحكمة والشعر، والحب والجمال والحرب[1] والخمر و.و.و الخ.

ورغم تعدد الالهة عند اليونان فقد كانت فكرة النزوع الى «التوحيد» تذاعب تصوراتهم وتظهر في فلسفتهم، وترقت عندهم فكرة تصور الآله من التجسيد الى التجريد، وهذا ماندعوه اليوم بالتصور الفلسفي للآله.

أجل لقد تطورت فكرة الآله عند اليونانيين ودخلت مجال الفلسفة وأصبح لدى فلاسفتهم معنى فكرياً مترفعاً في التصور من المادية والحسية.

قلنا: انهم اعطوا آلهتهم كل طبائعهم، والوان رغباتهم، لكنهم ميزوا الآلهة باعطائها «المثل الاعلى» في تصوراتهم، وأغنوها بأحلامهم، ووصفوها بالتفوق والخوارق.

وآلهة اليونان كغيرها من آلهة شعوب تلك المرحلة التاريخية القديمة، تشكل ثلاث مجموعات.

١ ـ آلهة السماء.

٢ ـ الهة الارض

٣ ـ آلهة العالم السفلي، او مايعبرون عنه بآلهة الظلام، او الجحيم وتطور الحضارة اليونانية فكرياً اكسب المعنى الالهي تصوراً ارتفع به عن المادية والحسية الى معنى سام بلغ حد التجريد، وهذا ماجاء من رقيهم العقلي واغراقهم في الفلسفة ورياضة العقل،

---

(١) الهة الحكمة ميزفا، والشعر آبولون، والحرب مارس، والحب كيوبيد. والجمال أفروديت، والخمر باخوس.. الخ

واعتمادهم المنطق الذي بلغ على يد «ارسطو» احد اكابر فلاسفتهم درجة كبرى من السعة والتكامل.

ان دراسة الطبيعة دراسة عقلانية تربط الاسباب بمسبباتها تؤدي حتمًا الى الايمان بأن العلة الاولى اساس المعلولات، وهي الفاعلة وكل ماسواها منفعل بها وعنها وهي الله.

الفلاسفة اليونانيون

أهم الفلاسفة اليونانيين

١ ـ طاليس، ويلقب بأبي الحكماء: الماء أصل الاشياء، والروح يحرك المادة[1].

٢ ـ انكسماندر: الاشياء كلها تخرج من مادة أولية، ليست الماء، ولا النار، ولا الهواء، ولا التراب، انما هي قوة تجعل كل ما في الكون يدور دورات متعاقبة.

٣ ـ اكسنيوفان: ان حقيقة الاله من وراء خيال الانسان.

٤ ـ سقراط: اعرف نفسك بنفسك، قيل: انه أنزل الفلسفة من السماء الى الارض، فلسفة الاخلاق والسياسة، آمن بخلود الروح، وعودتها الى مصدرها الاول، نزه الاله عن الخلائق البشرية.

٥ ـ فيثاغورس: آمن بتقمص الارواح، وتجدد الدورات الكونية وان لاحقيقة في الوجود الا الحقيقة الالهية.

٦ ـ انكسفوراس: العقل جوهر مجرد، خالد، واحد لايتعدد، مصدر كل حركة، هو الله، والعقل صلة بين الله والعالم.

٧ ـ أفلاطون تلميذ سقراط: النفس أزلية، جوهر روحي قائم بذاته، تأثر بفيثاغورس بالتقمص والتناسخ، الوجود ينطوي على العقل المطلق، وعلى المادة الاولية، أو الهيولي، والصور المادية تتلون وتتغير، والقدرة للعقل، والله أبدي، ولا أول له، ولا آخر، لا يتحول، ولا يتقلب، والمعرفة تقتصر على الجزئيات، والوجود وجودبالقوة (المُثُل) ووجود

(١) وتقول الاسطورة البابلية: في البدء وقبل أن تسمى السماء، أو يعرف للارض اسم كان المحيط وكان البحر.

بالفعل، السعادة باللذة، واللذة بالفضيلة، والفضيلة وسط بين افراط وتفريط.

٨ ـ ويقول سقراط أيضاً: الله هو العلة الاولى، والمحرك الاول، سابق العالم، صوة بلا مادة، يحرك العالم بحركة دائمة، لا يتبدل، لا يتغير.

هؤلاء أشهر فلاسفة اليونان، وهذه بعض المنطلقات الفلسفية التي توصل اليها العقل والفلسفة في اليونان.

وهناك فلسفات أخر كالحلولية، والرواقية، والابيقورية.

١ ـ بارمنيدس: لا وجود لغير الواحد، لا تغيير، لا أضداد، كيف يتأتى أن الشيء الذي كان يفقد الكينونة؟ كيف يتأتي أن يكون بعد ان لم يكن؟؟ العالم قديم لم يحدث، والواحد الذي يؤمن به ليس خالق الكون بل هو الكون.

٢ ـ ارسيد كليس: دليله الخيال، الله حب، العناصر أربعة: النار، التراب، الهواء، الماء.

المدرسة الحلولية: Panthisme وتعني أن الله حال في كل شيء، وكل شيء حال في الله، ومنشأ الحلولية بلاد الهند، فأنبياؤهم تخيلوا كائناً أزلياً هو «براهما» يحتوي كل خواص القوة، والعالم منبثق عنه، وهو امتداد له، وسوف يذوب فيه بعد دورات متعاقبة بحيث لايبقى الا الله.

والبوذية قامت على أساس «البراهمية» وتنكر استقلال الروح، والانسان يولد مرات ومرات. ويلبس أجساداً بعد أجساد، حتى يدخل في «النرفانا» ويتلاشى في الله.

وهناك صلة بين الحلولية والفيثاغورسية القائلة بخلود الروح الالهية في الانسان حتى يصبح أكثر من انسان، وأقل من الله.

وتعني Panthisme بانتيسيم لا شيء سوى الله، والاشياء مظاهره المختلفة.

ولقد انتشرت الحلولية في كل العالم: المادة الازلية غير المحدودة، المعلن عنها بخواص وصور مختلفة هي الله، والانسان من الله، والى الله!!.

المدرسة الرواقية: تفرعت الرواقية من الحلولية ونشأتها في بلاد اليونان قبل المسيح بثلاثة قرون، ومؤسسها زينون الكيتومي المولود في كيتيم بقبرص قبالة «فينيقيا».

وتنسب الرواقية الى الرواق الذي كانت تلقى فيه المحاضرات. وعرّفت الرواقية الفلسفة: بأنها علم الاشياء الالهية والانسانية. والاشياء الالهية عندهم هي الطبيعة.

والرواقية مذهب أخلاقي يقوم على أن الفلسفة هي ناموس حياة جميلة فاضلة.

وتقسم الفلفسة عندهم الى منطق، وعلم طبيعة وأخلاق.

وعرّف الرواقيون «الكائن» بأنه فراغ ليس له وجود في ذاته، بل وجوده في الاجسام، والزمان هو أحد اللاجسميات، فليس له وجود في ذاته، بل وجوده في حركة الجسم.

ويقولون: بقدم العالم، وبالتداخل: ان كل جسم كائن في جميع الاجسام الاخرى، وماثل في العالم بأسره، والعالم كله حاضر في كل واحد، والطبيعة كلها شيء واحد، وهي كائن حي، نفسه الله، وجسمه العالم، والعقل عند الرواقيين هو الله الذي أبدع الاشياء، وخلق العالم، والعالم جوهر الله.

والقضاء والقدر عند الرواقيين هما فكر الله الذي سلسل العلل والاسباب تسلسلاً يستلزم، أن يكون كل حادث نتيجة لما قبله الى غير نهاية، فالليل علة النهار، والشتاء علة لصيف، وماهو واقع في الحال، هو نتيجة لما وقع في الماضي، وعلّة لما يقع في المستقبل، والانسان مسيّر، لا مخيّر، يسيره الله الذي جعل لكل شيء علّة، والانسان مدار الطبيعة، ومركزها، والعالم وما فيه ليس له غاية الا الانسان، والله روح العالم الكائن في الانسان.

امتدت الرواقية الى الرومان، وأثرت في الاخلاق، فظهرت في القانون الروماني حيث لغي الرق.

وتأثرت المسيحية بالرواقيية، وامتدت الى بعض الآراء في الاسلام!! فقد قال البعض بالتجسيم، وقال آخرون بالصورة، وقال فريق: أنه شيء أي جسم، والتقت الاشعرية مع الرواقية بالقول بالقضاء والقدر فقالت: ان القضاء يقدره الله.

وفيلون الاسكندري ٢٠ ق.م يؤمن بأن الله عقل مطلق، مجرد عن ملابسات المادة، أوسع من الزمان والمكان لانه يحيط بهما.

افلوطين:

تأثر افلوطين بالرواقية، وبافلاطون: الله فوق الاشياء، وفوق الصفات، فهو واحد، وهذا الواحد خلق العقل، والعقل خلق الروح، والروح خلق ما دونه من الموجودات، والمادة صورة النفس، فاضت عنها فيض النفس عن العقل، كما يفيض النور عن الشمس، ويؤمن افلوطين بالتقمص والثواب والعقاب.

والافلاطونية الحديثة ظهرت عند الكثيرين من فلاسفة الاسلام والمكزون واحد منهم، فقد ظهرت في شعره الفلسفي أحياناً، ولكنه تنكر لبعضها، مما سيمر معنا فيما يلي:

يقول افلوطين: أن لهذا العالم ظواهر جمة، وهو دائم التغيير، ولم يوجد بنفسه، بل لابد له من علة سابقة هي السبب في وجوده.

وهذا الذي صدر عنه العالم «واحد» غير متعدد، وهو أزلي، أبدي، قائم بنفسه، ولسنا نعلم عن طبيعة هذا الخالق الا أنه يخالف كل شيء، ويسمو على كل شيء، ولما كان فوق العالم وهو غير محدود فلا يمكنه أن يخلق العالم مباشرة، والا اضطر للاتصال به، مع أنه بعيد عنه، لا ينزل الى مستواه، ولما كان «واحداً» فلا يمكن أن يصدر عنه العالم «المتعدد» ولا يستطيع أن «يخلق» العالم، لان الخلق «عمل» أو انشاء شيء لم يكن، وذلك يستدعي التغير في ذات الله. والله لايتغير.

وهذه النظرية تقر أمور أهمها أمران:

١ ـ أن الله علة العالم وسبب وجوده.

٢ ـ أن الله لايستطيع أن يتصل بالعالم لانه فوقه، ولا أن يخلقه خلقاً مباشراً، ولكنه يقول:

ان تفكير الله في نفسه وكماله نشأ عنه «فيض» وهذا «الفيض» سار، وهو العالم، وقد انبعث «من» الله شعاعاً فكان العالم، كما ينبعث اللهيب ضوءاً، والثلج برداً.

وكل ما تفرع «من» الواحد «فيضاً» يميل بفطرته الى العودة اليه، وأول شيء «انبثق» من الواحد هو «العقل».

ونفس العالم المنبثقة من العقل لها ميلان: علواً الى «الواحد» وسفلاً الى الطبيعة.

يلتقي المكزون مع الافلاطونية الحديثة:

١ ـ بأن الله علة الوجود، أو علة العلل كما يدعوها أفلاطون استاذ أفلوطين.

يقول المكزون:

ليس بمسبوق الوجود جوده ... نداك لاينفده مرُّ الدَّهرْ

٢ ـ بأنه أزلي، أبدي، غير محدد، لايتغير:

جل عنْ «التحويل والحلول في الأ ... بن، وعن هجر مقال من هجر

٣ ـ بالابداع والفيض:

قضى جودها «فيض» الوجود فأظهرت ... مشيئتها قدما حجاب المشيئة

٤ ـ بأن «الواحد» صدرت عنه «الاعداد» أي أعيان الموجود.

«واحدة» الحسن الي «عن» حسنها ... سرت تفاصيل الجمال والجملْ

٥ ـ في نظرية «شوق» الاعيان الى منشئها ومصدرها:

هو «الكل» لاغيره كله فكل به مغرم مستهام

ويختلف مع النظرية الافلوطينية:

١ ـ بالقول بعدم امكانية الخلق المباشر.

٢ ـ بعدم الاستطاعة على الخلق.

٣ ـ بأن الواحد لا يصدر عنه التعدد.

اخوان الصفاء:

يقول اخوان الصفاء: لما كان الله تام الوجود، كامل الفضائل عالماً بالكائنات قبل كونها، قادراً على ايجادها متى شاء فأقتضت حكمته « افاضة» الوجود كما يفيض النور والضياء من عين الشمس، وظل ذاك «الفيض» متواتراً غير منقطع. ويسمى ذلك «الفيض» العقل الفعال، وفاض من العقل الفعال العقل المنفعل وهو دونه في الرتبة وهي النفس الكلية، وهذه أفاضت الهيولى القابلة للصور.

والمكزون يشير الى التفاضل بين «الصّدورات» المتتابعة بقوله:

اجر ما أجرى عليه لا، ولا ساواه في الرتبة ما عنه صَدَر

ويقول اخوان الصفاء:

ان وجود العالم «عن» الله كوجود الكلام من المتكلم، وكضوء الشمس من الشمس أو وجود العدد من «الواحد».

وكما أن الكلام ليس جزءاً من المتكلم، بل هو «فعل» له، وضوء الشمس ليس جزءاً من الشمس بل «فيض» فكذلك وجود العالم «عن» الله ليس جزءاً منه بل «فيض» افاضة وفعل تفضّل به.

وقلنا: ان المكزون أشار الى هذا «الفيض».

قضى وجودها «فيضة الوجود فأظهرت مشيئتها قدماً حجاب المشيئة

عند المكزون هو العقل الكلي، الفعال الذي أبدعه الخالق، وأفاضه، فهو حجاب المشيئة الخالقة الفاطرة.

شاء فأبدى للبدا مشيئة فاطرة بأمره، أصل الفطر

وجاء لابي منصور اليماني الشادلي قوله[1]:

«الواحد» هو «اشراق» الكلمة الكينونية، وهو الوجود السابق، وهو مبتدا الوجود، وابداع المنزه المعبود، لا كثرة في هويته، بل «الكثرة» ابتدأت من اشراق جوهريته، وهو ابتداء العدد، والموجود الاول، والمبتدع الاكمل، محدث البداية، أزلي النهاية، وهو الحجاب الاعظم، والاسم المعظم، مجمع الاسماء والصفات، وهو العقل الفعال، ينبوع الوجود، وابداع المنزه المعبود.

وأشار المكزون الى عذا المعنى:

وتدّعي «وحدته» في «كثرة» لا تنحصر
وتنحل الافعال للا سم- الذي «عنه» صدر

وفي الفلسفة وحدتان:

١ ـ وحدة الوجود التي قامت عليها المدرسة الحلولية Panthisme وتعني كل شيء في الله، والله في كل شيء.

وفرع منها فلاسفة الاسلام ومتصوفوهم «الاتحاد»، والاتحاد نوعان:

الاول: اتحاد مع وجود «الاثنينية» و «الأنية».

الثاني: اتحاد مع نفي الأنية والاثنينية.

ومن أركانها ابن عربي، وابن الفارض، والحلاج والنسيمي، والجيلي.

٢ ـ وحدة شهود وتعني أن العارف اذا تجاوز «المقامات» والعقبات والاحوال وبلغ «الكشف» و«التجلي» يتخلص من كثيفه، ورغباته المادية ويقوم مع الله بروحه بدون حلول، أو وحدة، أو اتحاد، وتبقى «الاثنينية» و«الانية»... تبقى «الفرجة» ولا تحصل «المزجة» ومن أركانها الجنيد، والسري السقطي، وأبو جحدر الشبلي، ومعروف الكرخي، وماهان الإبلي،

(١) هو الداعية الإسماعيلي صاحب كتاب مباحث الاخوان.

والمكزون السنجاري.

يقول المكزون:

وكيف يصح «الاتحاد» وشاهد العيان هلى «الاضداد» بعض الادلة.

ولي، ولها بين الظلال «تواصل» بغير «مزاج» والجسوم تراب

وسركم في «الكل» سارٍ، وانما على كل قلب ضل عن فهمه قفل

والسر الساري الذي أشار اليه المكزون هو افاضة المدد، واشراق الفيض تفضلاً ورحمة.

وجاء لعلي بن أبي طالب في هذا المعنى ما فيه فصل الخطاب عقلاً، ونقلاً، قال في احدى مناجاته:

يا قريباً من الاشياء بلا ملامسة وبعيداً عنها بلا مباينة. لست في الاشياء بوالج، ولا عنها بخارج.

والله عند المكزون:

منفرد، منزه، مجرد عن الاسامي والصفات والصور جل عن التحويل، والحلول في ا بن، وعن هجر مقال من هجر ومن أراد زيادة في نظرية الفيض والابداع فليرجع الى المجلد الاول من المكزون صفحة ٣١٩ ـ ٣٦٥ ـ ٣٦٦ ـ ٣٧٠ ـ ٣٧٥.

الفلسفة العربية انبثقت من عدد من المصادر، والروافدالفكرية أهمها:

أولاً: القرآن الذي وضع قواعد وحلولاً لاعضل المشاكل الفكرية الطبيعية، والاجتماعية ـ وما وراء الطبيعة، كوجود الكون، ومن أوجده، وكيف نشأ وخلق الانسان، والغاية من الخلق.

ثانياً: الفلسفة اليونانية والهندية بواسطة الترجمة.

ثالثاً: بواسطة الفتوحات، والاختلاط بالامم والشعوب التي خضعت للاسلام، أو

دانت به.

رابعاً: بواسطة تلك المدارس التي كانت منتشرة قبل الفتح الاسلامي كمدرسة الرها، ونصيبين، وجنديسابور، ومدرستي الاسكندرية وبغداد.

أشهر فلاسفة العرب في المشرق، علي بن أبي طالب، والكندي، والفارابي، وابن سينا، والغزالي، والمعري.

وفي المغرب: ابن باجه، وابن الطفيل، وابن رشد، وابن خلدون.

ولكن:

كلا فلاسفة العرب نهلوا من ينابيع الفلسفة التي تقدم ذكرها، وأكثرهم عاش عليها، وبعضهم أضاف إليها معطات الفكر الاسلامي الا علي بن أبي طالب فقد انفرد بفلسفة عملية أخلاقية متميزة، مستخلصة من القرآن. تشمل الكون علويه وسفليه.

وهذه الفلسفة كما قلنا مرتبطة بالاخلاق، والسلوك الاجتماعي، ولم يدعها ـ كغيره من الفلاسفة ـ الذين جاءوا بعده محصورة ضمن حيز القول، مقصورة على النظر، بل جعلها مرتبطة بالعمل والسلوك. فهي فلسفة طبقها على حياته نظاماً، وجسدها في أفعاله وأعماله سلوكاً، وربطها بالسبب الواحد تمكيناً لها وترسيخاً في النفوس، ومع ربطها بالسبب الواحد ـ الله ـ فانه لم ينف استطاعة العبد، وقدرته على العمل لما في ذلك من الحرية الموجبة للثواب والعقاب.

ومن الغريب والغرابة والمستغرب أن لايذكر علي بن أبي طالب ـ فيلسوف الحكمة فيلسوف القول والعمل ـ بين فلاسفة الاسلام، هذاالحكيم الذي لمس أغوار النفس البشرية، وحدد نوازعها، وجعل الاخلاق مقياساً لميولها ونوازعها.

وفي الجزء الرابع سنستعرض فلسفة الامام، وزهده النا بعين من القرآن ـ دستور الاسلام ـ بل دستور الحياة ـ تلك الفلسفة التي لم تتكيء على ما عرف من فلسفات، بل أقامها الامام على التجربة واستكناه النفس البشرية، وأسرار الحياة والكون.

ولم يزل الفكر الفلسفي المعاصر يغرف من معين فلسفة اليونان ويدرج على خطاها، ويتبع مسارها فكيف يتصور سقراط الاله؟؟

إلّه سقراط

سقراط وافلاطون ينفيان الحركة عن الاله، وكل منهما يسوق براهينه العقلية المنطقية. يقول سقراط يجب الاعتراف بأن الاله غير متحرك لسببين:

الاول: لو كان متحركاً لاحتاج الى محرك يحركه فيحصل لا محالة «الدور» والتسلسل ولابد من الوقوف عند حدّ، والاعتراف بانتهاء كل الحركات الى محرك غير متحرك وهو مبدأ الحركة.

الثاني: كل مايتحرك ناقص اذ ليست الحركة الا الانتقال من حال الى حال لغرض يقصده المحرك لاستكمال ذاته.

فلو فرضنا وجود الحركة في المبدأ الاول لكان ذلك انحطاطاً من كماله، وانتقالاً من الخير الكامل الى ماهو انقص منه لامحالة، اذ ليس هناك خير يناله، ولا رتبة الا وهي دون رتبته، فما القصد اذن من حركته؟؟

واذن فان لهذا الكون الهاً واحداً منزهاً عن الزمان والمكان، والتغير والنقص، والتأثر بغيره، وان كل العلل الغائية تتجه اليه، وتتعلق به، وهو لايتجه الى شيء، ولايتعلق بشيء، وهو المحرك الاول، وجوهر الكمال، وهو عقل محض، لايجوز ان يداخله شيء مما هو بالقوة، اذ لو كان ذلك لاحتاج الى فاعل آخر يخرجه من القوة الى الفعل، فيكون وجوده والوجود الأول هو السبب الأول لوجود سائر الموجودات، وهو بريء من كل نقص، ووجوده أفضل وأقدم الوجود، ولكن لايمكن أن يكون أفضل ولا أقدم من وجوده هو.

٤ - إلّه ابن سينا ٣٧٠-٤٢٥هـ

إن واجب الوجود هو الموجود الذي متى فرض غير موجود، عرض منه محال.

والممكن الوجود هو الذي متى فرض غير موجود، أو موجوداً لم يعرض منه محال.

والواجب الوجود، هو الضروري الوجود.

والممكن الوجود هو الذي لاضرورة فيه بوجه، أي لافي وجوده، ولاعدمه. هذا! وبعد أن عرفنا طبيعتي الممكن والواجب لزمنا القول: إن الآله واجب الوجود لذاته. وهو علّة كل ماعداه من علوي الوجود وسفليه.

مستفاداً من غيره، وهو واحد من كل الوجوه، ويدل على وحدته انتظام الوجود، والعالم، وتناسب الحركات، بعضها ببعض، فان ذلك لايتصور الا اذا كان المحرك واحداً.

وهو بسيط لاتداخله الكثرة بوجه، اذ لو فرضنا فيه شيء من الكثرة لداخله شيء من المادة والتغير، وامكان الوجود، وجواز الانحلال، اذ كل مركب صائر الى الانحلال، متوقف على وجود أجزائه لبقاء وجوده فلا يكون الواحد الا بسيطاً.

إلّه افلاطون

يرى افلاطون كما يرى استاذه. سقراط ان الله غير متحرك لان الحركة انتقال من حال الى حال، والحالة الجديدة اما ان تكون أسوأ من الأولى، او مماثلة لها، أو خيراً منها فان كانت أسوأ فقد اتصف الاله بالنقص، وان كانت مماثلة فهي عبث لانها لم تنتج شيئاً، وان كانت خيراً منها جاز على الاله الاستكمال وهو مناف للالوهة.

ارسطو وعلم الاله بالكون

يقول ارسطو: لايناسب مقام المبدأ الاول ـ الاله ـ ان يدخل عقله ماهو أدنى منه رتبة في الوجود!! كيف يعلم من هو منزّه عن المادة مافي العالم من الاكدار، والادناس؟؟ والفواحش والجزئيات الجنسية من غير ان ينقص من صفاته شيء.

ثم لو قلنا: ان له علمًا بالاشياء الخارجة عن ذاته لوجب ان يكون علمه مستفاداً منها، وانه لايكون عالماً الا بسبب وجود تلك الاشياء، فصار المبدأ الأول محتاجاً الى غيره ليكون عالماً، وهذا لايتناسب مع جلال ذاته مع مافيه من ادخال المادة في ذات الاله[1]

ان المادة هي الامكان فلو احتاج المبدأ الاول الى الاشياء الخارجة لحصول العلم لكان قابلاً للتغير، والاستحالة، وذلك عبارة عن الامكان، والاولى ان يقال: ليس للاله

(١) تاريخ المذاهب الفلسفية

علم بغيره، فعلمه لايتعلق الا بذاته، ولا علم له بالمفردات الحسية، ولا بالجواهر الحسية، ولا بالجواهر العقلية المركب منها عالم المفارقات(٢)

وينسب الى سقراط: ان ترتيب نظام الكون لايرجع الى عناية المبدأ الأول بل هو شوق الافراد اليه، وان كل عين من الأعيان مشغوف به، ساعٍ الى الاتصال بمبدئه.

تدبير الكون عند ارسطو

يرى ارسطو ايضاً: ان أصل هذا النظام الغريب، والترتيب العجيب ليس هو عناية المبدأ الأول بل هو شوق الاعيان ـ أعيان الوجود ـ اليه، فهذا الشوق هو سبب ترقي الموجودات من محور الى محور.

فالنظام الحكيم المشاهد لهذاالعالم، علته ذاك الشوق الطبيعي المودع الموجود في كل كبير وصغير من افراد عالم المادة يحركه نحو الصورة الغائية وان هذه الحركات المدفوعة بالعشق ليس للارادة، ولا العلم الالهيين فيهما أي تدبير!!! بل هي حركات منشؤها الاستعداد الطبيعي الموجود في اجزاء المادة، وشوقها القاهر الذي يدفعها دائمًا من القوة الى الفعل.

تلامذة ارسطو

نقد تلامذة ارسطو آراء معلمهم هذه لحياده عن المبادىء العقلية، ووجهوا اليه اعتراضاتهم فقالوا: جعلت المحرك الأول لايعقل الّا ذاته بدعوى انه لايليق به وبجلاله علم مافي الامور الدنيوية من الجزئيات الدنيئة، ومثّلته بقائد الجيش، ولكن كيف يقود الامير جيشاً لم يبصره، ولم يخطر له في بال، وكيف يصح تدبير العالم من متحيّز في نفسه، مقصور على علم ذاته، لايجاوزها واذا جحدنا تدبيره العالم فمن اين وجوده ـ وجود العالم ـ في بدء

(٢) تاريخ الفلسفة، والفلسفة الحديثة

نشأته؟؟ ويتابعون قائلين: وانت انتقدت افلاطون حيث جعل عالمين: عالم الحس، وعالم المعاني واليقين ـ المثال ـ ثم عجز عن بيان الاتصال بينهما.

وانت وضعت العالم، ثم وضعت الاله مقابلاً له، فعجزت عن بيان ماهية العالم، وماهية الآله بما يزيل الشك، ويدرأ الشبهة حتى بقيا متقابلين لا اتصال بينهما، ولا تأثير، فاذا تحققنا وسبرنا معناك وجدنا انه لاحاجة للعالم بالآله، ولا حاجة للآله بالعالم(١)

في اليونـان هذه المكتظة بشتى العلوم والفنون والآلهة والفلاسفة والنظريات نشب صراع عنيف بين الدين والفلسفة!! بين الدين الموروث المغلق على تمجيد الآلهة المتعددة توججه حرارة العاطفة التي تقيم الجماهير وتعقدها، وبين الفلسفة المنفتحة على عالم العقل والبحث عن الآله الاكمل الجدير بعبودية الانسان وعبادته وتقديسه . . بين الفكر الفلسفي النزاع الى الحقيقة والذي يعتنقه وينشره الفلاسفة في المجتمع اليوناني، وبين الفكر الديني الساذج البسيط الذي يرى في مظاهر الطبيعة كل آلهته الواجبة التقديس والعبادة!!

الفكـر والعقل اللذان يبحثان عن آله يرتفع عن مادية الانسان ومحدودية الكون، وفكر بدائي لايرى الآله الا صورة مجسمة لاحلامه ومحققة لرغباته، آله محدود يصوغ حوله كل خيالاته، ويسبغ عليه كل ألوان الأساطير.

آله واحد أزلي أبدي ليس كمثله شيء.

وآله مجسد يولد ويموت، ويماثل الانسان في كل شيء!!

آله ابدع الانسان والاشياء:

وآله أبدعه الانسان!!!

لم يقتصر هذا الصراع العنيف بين الفلسفة والدين بل قام بين الفلاسفة انفسهم بحثا عن الاله «الحقيقة» عن الآله «الكمال المطلق».

---

(١) يقول فرادشت: ان للعالم قوة آلهية هي المدبرة لجميع مافي العالم المنتهية مبادئها الى كمالاتها وهذه القوة تسمى «مشاسبند» وهي بلسان الصابئة تعني «المدبر الاقرب» وعلى لسان الفلاسفة «العقل الفعال» ومنه الفيض الالهي والعناية الالهية، وعلى لسان المانوية، «الارواح الطيبة»، وعلى لسان العرب «الملائكة»، وعلى لسان الكتاب والشرع «الروح» تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم.

لقد تعددت الآراء، وتنوعت طرق البحث، وكثرت أساليب الجدل، وايراد البراهين، ولعل ابرز ألوان هذا الصراع واعنفها ذلك الذي قام ـ ومايزال قائمًا ـ بين مادية الفلسفة ومثاليتها، وهو استمرار لتصور الآله الذي رافق الانسانية منذ وجودها، وان اتخذ اليوم طابع مادية الحياة، ومثالية الأفكار!!

المثالية التي ترى انه لايوجد في الكون ولا وراء الكون الا حقيقة واحدة هي الله والعالم.

والمادية التي لاترى شيئاً خارج المادة يمكن معرفته، أو يصح الايمان بوجوده.

وهناك العديد من المذاهب الفلسفية ولكنها ـ على اختلافها ـ تنطوي تحت هاتين النظريتين السابقتين.

هذه الحصائل والفصائل من الآراء والمذاهب الفلسفية المؤتلفة المختلفة، المتنازعة المتصارعة، المتقاربة المتضاربة انتقلت من دار ميلادها، ومقر نشأتها، ومراح نموها الى الشرق الادنى مواكبة جيوش الاسكندر المكدوني وفتوحاته.

الاسكندر الغازي الزاحف على آسيا الصغرى، فبلاد فارس وحتى الهند شرقاً، ومصر غرباً، مروراً بدمشق وصيدا، وصور واورشليم، وغزة، مخترقاً صحراء سيناء، ورجوعاً الى آسيا حيث قضى على جيوش «دارا» وتقبل خضوع بابل، واخترق جبال الهملايا.

اصطحب الاسكندر في هذه المغامرة الكبرى الفلاسفة ليرشدوه، والمؤرخين ليدونوا اسفار انتصاراته، ويخلدوا ذكراه واخضاعه العالم لسلطانه، وينشروا فلسفة امته اليونان وثقافتهم وعلومهم في كل اصقاع المعمورة التي وطأتها جيوشه.

واعقب هذه الفتوحات الظافرة الواسعة هجرات متتالية من اليونانيين الى بلدان الشرق حاملين معهم خصائص امتهم العلمية والفنية والدينية، فامتزجت حضارة اليونان وثقافتها وفلسفتها بثقافات الامم والشعوب، وتغلغلت في حياتهم الدينية والاجتماعية.

في العصر الوسيط والحديث لم تعد صلة الآله بالعالم كما كانت في التصور القديم والفلسفة القديمة. فمنذ عام ٤٥٠ ق.م وحتى ٥٠٠ ب.م وهي فترة العهد الوسيط فقد أصبح مفهوم الآله مبدأ «تعقّل» اكثر منه مبدأ «وجود» صنع نظام العالم، لا العالم نفسه.

فآله افلاطون كان مهندساً منظمًا، جسّد مافي ذاته من «المُثُل» نظاماً وخلقاً، او بتعبير فلسفي أخرجه من «القوة» الى «الفعل».

وآله ارسطو لم يكن سوى «محرّك أول» او غاية أخيرة يشتاق اليها كل ماعداها من اعيان الوجود المتعددة، فتتحرك نحوه بهذا «الشوق» والاستعداد الكائن في طبائعها.

في حين ان آله النظر والفلسفة في العصور الوسطى والحديثة «هو خالق منشيء، صنع العالم من لا شيء، أوجده من العدم المطلق كما يقول القديس توماس» وان الفعل الالهي الدائم ضروري لحفظ العالم كما كان ضرورياً لانشائه من العدم.

أكثر فلاسفة العصر الوسيط يرون أن العالم نشأ عن الإله نشوء المخلوق عن خالقه، وأن الإله هو الموجود الأول الأوحد الذي لايفتقر في وجوده إلى سواه، وهو الموجود بذاته، وهو علة ذاته، وهو مطلق من كل قيد، ولا يخضع لأية ضرورة، لامتناهٍ من كل وجه، وكامل كمالاً مطلقاً في القدرة والحكمة والخير[1].

وحول نشوء العالم عن الآله ـ كما تقرر الفلسفة الوسيطة ـ نشأت مجموعة مذاهب الفلسفة الحديثة أهمها:

١ ـ أن الله يستطيع أن يفعل خيراً مما فعل لأن كمالاته لاتتناهى.

٢ ـ أن الله اختار خير ما يمكن من العوالم والأنظمة.

٣ ـ أن قدرة الله على فعل الخير لاتحدّ، ومن الجهل أن نقول: أن العالم الحاضر أرقى ما تريد القدرة **الإلهية أن تصنعه!!!**

٤ ـ أن الله يستطيع أن يخلق كائنات لايمكن أن ينزل بها الشقاء وكيف نتصوّر أنه لم يخلقها!!!

وتدور الأسئلة التالية:

ا ـ إذا كان يستطيع ذلك ولم يفعله فكيف يكون رحماناً رحيمًا!!؟

ب ـ إذا كان لايستطيع ذلك فكيف يكون كلّي الارادة!!؟

ج ـ إذا كان رحماناً رحيمًا فكيف يكون شديد العقاب؟!!

(١) الفلسفة الحديثة.

د ـ إذا كان عفوّاً غفوراً فكيف يكون عادلاً؟!!

هـ ـ إذا كان شديد العقاب فكيف يكون واسع المغفرة؟!! (١)

ولكن جميع هذه الأسئلة يجاب عنها بما يلي:

١ ـ إن الله كلّي العلم، كلّي الارادة، كلّي الحكمة ليس كمثله شيء.

٢ ـ كل ما خلقه وأبدعه فبحكمة ولا يجوز السؤال عنها «بكيف» لايسأل عما يفعل وهم يُسألون وهذا يليق بكماله، ويليق بتصوّر الفيلسوف المعاصر.

٣ ـ إلّه الفارابي ٢٩٠-٣٩٩هـ

آله الفيلسوف الفارابي آله منطقيّ إن صح التعبير أي يعتمد في الدلالة عليه بأقيسة وبراهين المنطق الأرسطي، يسوق مقدمات بدهية، ثم يتدرّج بها بتلك الروابط المعروفة في صناعة منطق أرسطو.

كل معلوم إما موجود، أو معدوم، والموجود إما ممكن الوجود، وإما واجب الوجود وهذه الأقسام الأربعة لايخرج شيء من المعقولات عنها، والباري ضرورة موجود، والوجود إما ممكن الوجود وهو ما نشأ عن غيره، ولا يلزم من عدمه محال.

وإما واجب الوجود، وهو الموجود لذاته، وليس معلولاً، ولا مؤلفاً من أي نوع من التأليف الحسي، أو العقلي، أو المنطقي، ولزم المحال من عدمه لزوماً ذاتياً.

وإذن لو فرضنا الباري من الممكنات لزم ان يكون ناشئاً عن غيره وهذا الغير إمّا ممكناً، أو واجباً، فإذا كان ممكناً تسلسل الدور بلا نهاية.

وإذا فرضناه واجباً فعلينا أن نعرف أي قسمي الواجب هو، فإذا كان من الواجب بغيره، وهو المعلول كان مفتقراً الى علة، وهذه العلة تفتقر إلى علتها وهكذا... وإذن لم يبق إلا أن يكون واجباً لذاته.

(١) القديس توماس الاكويني ١٢٢٥-١٢٧٤ راهب دومينكاني ولد في ايطاليا، وعلّم في جامعة باريس، معلّم الكنيسة وحجّتها في اللاهوت والفلسفة المدرسية اطلّع على آراء ابن سينا والغزالي وابن رشد عن طريق الترجمات ومن مؤلفاته «الخلاصة في اللاهوت».

العودة الى المكزون

وأخيراً . . . وبعد هذا التطواف المرهق في عصورالتاريخ ، وما قبل التاريخ بدءاً من شعوب سومر، وبابل، والهند وفارس، واليونان وغيرها منذ ٦٠٠٠ سنة ق.م حتى ٤٥٠ سنة ق.م و ٥٠٠ سنة ب.م وانتهاءً بـ ٤٢٥ سنة عند الفارابي وابن سينا.

بعد كل هذا، وبعد إعطاء صورة يقتنع بها العقل الباحث المنقّب عما توصّلت اليه الأمم والشعوب من أساطير وعلوم وفلسفة في مجاليْ الألوهة والدين والحضارة، فهل لنا أن نقول: إننا حقّقنا غرضنا، وبلغنا الغاية في خلق تصّور عام مترابط طوال هذه الحقب الخوالي عن المعتقدات والآلهة والدين والحضارة في هذه الأصقاع من العالم؟؟

لقد أصبح باستطاعتنا ـ على ضوء ما توصلنا إليه ـ أن نتكلم عن الآله في الفلسفة العربية، وعند فلاسفة العرب، ونتحدث عنه من المنظور الاسلامي وخاصة عند أحد فلاسفة القرن السابع الهجري ألا وهو:

المكزون السنجاري

سنحاول أن نعرض آراء هذا الشاعر الفيلسوف في الآله والدين وعقد مقارنة بينه وبين من سبقه من فلاسفة اليونان، والعرب المسلمين، ونحدّد نقاط التقارب والتباعد والتلاقي:

سنعرض في هذا الجزء ـ كما عرضنا في الجزءين الأول والثاني ـ بعضاً من آرائه في القضايا العقائدية والفلسفية والاجتماعية، ونبين ـ جهد الامكان موقفه من آراء الآخرين، وموقعه بين مفكري الإسلام، ونظرته الفلسفية والعقائدية إلى الألوهة من وجهة نظر فلسفية اسلامية. ثم نحتكم إلى العقل المعاصر ومعطياته الفكرية العلمية فيما اتفق عليه، وفيما اختلف به.

هذا هو غرضنا في كتابنا هذا، وهذه هي غايتنا، وتلك هي الوسيلة.

فإذا استطعنا بلوغ هذا الهدف، وتحقيق هذه الأمنية، فلا يضنّ القارىء الكريم علينا بالعذر والتبرير لهذه المرحلة الطويلة في مجاهل التاريخ والتي نعتبرها توطئة ومدخلاً يسهلان علينا الوصول إلى غايتنا.

هذه الرحلة وإن اقتضت من القارىء وقتاً وصبراً فإنها استرعت مني جهداً، وفرضت على سهداً وسهراً، وأضعفت مني بصراً وجلداً، وأنهكت صحة وقوة، وطوت أياماً وسنين وعمراً مردداً قول المكزون:

ولست بذاك مكترثاً فكيف وأنت معتمدي

وآمل أن تعوّض على القارىء راحة النفس، وفائدة الدرس.

في الجزئين الأول والثاني من كتابي «المكزون السنجاري» تناولت بعضاً من حياة المكزون الأمير ـ الشاعر ـ الغازي ـ المتصوف ـ الفيلسوف ـ ولمست بعض الجوانب الأدبية والفكرية لهذه الشخصية المتميزة. والتي أهملها التاريخ اهمالاً متعمداً، فظلت قروناً وقروناً في زوايا النسيان، وخبايا الاهمال، شأن الكثير من الكنوز الأدبية والفكرية المخبأة.

وجئت اليوم أستكمل ما بدأته، وأسلط الأضواء على مافاتني، أو تجاوزته، أو أهملته وأغفلته، معيداً النظر فيما أخطأته، مستدركاً ما استعرضته ولم أوفّه حقه، ولم أُحط بكل جوانبه.

والمكزون كمفكر إسلامي ـ شيعي، حرّ التفكير، يعتمد أفكاره الدينية، وآراءه من الفكر الاسلامي، ومن مصدريه: الكتاب والسنة، وهو القائل:

أمّي الشريعة والمقيم لها أبي ... وبنو بنيها كلهم اخواني
أأعق والدتي؟ وأنكر والدي ... وإلى العدو أفرّ من أعواني؟
وأفرّ من أنسي إلى وحش الفلا ... إن كنت ذاك فلست بالانسان!!

ويقول:

كل ماأوردته شاهده أي الكتاب، أو حديث، أو أثر

ولكنه يتميّز بأنه لايحكّم النقل بالعقل، كما يفعل السلفيون. ولا يسلط سيف العقل على ما تواتر وصح من النقل كما يفعل المعتزلة وبعض الفلاسفة. ويرى أن كلا الفريقين اشتطّ وغالى في رأيه، فالنص في المحكم من الأقوال والآراء لايختلف مع حكم العقل، والمتشابه من القول لابدّ فيه من اللجوء إلى العقل لازالة الشبهة، ورفع الاحتمال إذا لم يتوفر النص ويتضح المراد..

أما الفلسفة فيخضعها للدين في مبحث العقائد، وأما ماعدا هذا المجال ـ مجال العقائد ـ فالفلسفة عنده تقود الفكر مستنيرة بنور العقل، معتمداً منطق أرسطو وبراهينه وأقيسته.

إنه في هذا الجانب ـ جانب الفلسفة والمنطق يناقش الكثير من آراء ونظريات الفلاسفة العرب المسلمين واليونان.

الفلسفة العربية ـ على مانعلم ـ تشكلت من امتزاج الثقافات الهندية والفارسية واليونانية، وتلاقت في البيئة العربية، وتلاقحت مع الفكر الاسلامي، ونضجت في بيئة الحضارة العربية الاسلامية، وازدهرت في القرون الثالث والرابع والخامس للهجرة حيث تكوّن فكر اسلامي فلسفي، انتقائي أعطى للتاريخ الفارابي وابن سينا، وابن الطفيل، وابن رشد والكندي والمعري، والمعتزلة، وعلم الكلام، والتصوف، والفقه.

هذا الفكر الفلسفي استقبلته جماهير الأمة الاسلامية بالتحفّظ والحذر، والارتياب حيناً، وبالقبول والرغبة والحماس حيناً آخر.

والصراع بين الفلسفة والدين معروف قديمًا وحديثاً، وظهر هذا الصراع على مستوى جدلي بين الفلاسفة، ورجال الدين كما في تهافت الفلاسفة للغزالي وتهافت التهافت لابن رشد.

وكل ثقيف يعلم كيف اضطر فيلسوف كابن الطفيل أن يعرض أفكاره وآراءه الفلسفية بصور رمزية، ومثله المعري في رسالة الغفران، كما نعلم كيف ولماذا أحرقت كتب ابن رشد، وصلب الحلاج، وقتل السهروردي والنسيمي، وكيف اضطهد الكثير ممن

يعتمدون العقل، متخطّين حرفية النقل.

يقول الصلاح الشهرزوري في فتواه:

الفلسفة أسّ السفه والانحلال، ومادّة الحيرة والضلال، ومثار الزيغ، والزندقة، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المطهرة، المؤيدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة، ومن تلبّس بها تعلّمًا وتعليمًا قارنه الخذلان والحرمان، واستحوذ عليه الشيطان، وأيُّ فنّ أجزى من فن يعمي صاحبه، ويظلم قلبه عن نبوّة نبينا محمد (ص) كلما ذكره الذاكرون وكلما غفل عن ذكره غافل، مع انتشار آياته المستبينة، ومعجزاته المستنيرة، حتى لقد انتدب بعض العلماء لاستقصائها فجمع منها ألف معجزة، وعددناه مقصراً، اذ هي فوق ذلك باضعاف لاتحصى.

وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة، ومدخل الشّر شرّ، وليس الاشتغال به مما أباحه الشارع، ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين، والأئمة المجتهدين، والسلف الصالح فالواجب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شرّ هؤلاء المشائيم، ويخرجهم من المدارس، ويبعدهم، ويعاقب على الاشتغال بفنهم، ويعرض من ظهر عنده اعتقاد عقائد الفلسفة على السيف، أو الاسلام[1].

هكذا كان ينظر علماء النقل الى أصحاب العقل وأداتِهِ المنطق والفلسفة!!!.

الدين والفلسفة والعلم

العلم يتناول الكون من ناحية الوصف.

والفلسفة تتناوله من حيث المعنى.

العلم يصف الاشياء قيمتها وقدرها.

العلم يسأل كيف تحدث الحوادث وتظهر الظواهر.

والفلسفة تسأل: لماذا هذه الحوادث وهذه الظواهر؟ أما الدين فيربط كل شيء في

(١) عبد الرحمن بدوي في التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية.

الوجود بالسبب الواحد ونعني بالسبب الواحد . . . الإله .

المسلمات الأولية في الدين ـ في ذلك الزمن ـ لاتقوم على النظر الفلسفي، الفقهاء والحرفيون ـ الذين يفسرون الشريعة تفسيراً حرفياً ـ والمقلدون يتجاوزون الحوار، ويتنكرون للجدل والنقاش، ويعمدون الى التكفير واستعداء السلطان وتحريضه على التنكيل والقتل والصلب والتحريق أحياناً بأخصامهم.

والفلسفة لا تسلم تسلمياً تقليدياً اعتباطياً موروثاً بقضية من قضايا الفكر، الا من خلال مقدمات عقلية، وانشاءات ذهنية، مترابطة تنتهي الى البرهان فاليقين.

هذه الحركة العارمة التي عمت العالم الاسلامي في فترة من التاريخ أضرمها أصحاب الشرع من العلماء، وأرباب العقل من الفلاسفة والحكماء، وأصحاب المواجيد والقلوب من المتصوفة.

هذه الحركة الطاغية لئن أغنت الفكر والتاريخ بالبحث والاجتهادات والتنقيب والاستنباط، والابداع الفكري، فقد أفقرت الأمة من الحبّ والوحدة والاخاء، والتعاون، والترابط، وفرّقتها الى مذاهب، وشِيَع، وفئات ونِحَل، كل حزب بما لديهم فرحون.

واليوم نرى أن الامة الاسلامية أحوج ما تكون الى طرح تلك الخلافات التي تجاوزها الزمن، والى نبذ تلك المذاهب المتعددة المختلفة، وجمعها في مذهب واحد هو ما بين دفتي القرآن، ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون. ان هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله (١).

اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء(٢).

وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون(٣).

ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة للمسلمين(٤).

ما فرطنا في الكتاب من شيء(٥).

---

(١) الاعراف ٢
(٢) الانعام ١٥٣
(٣) الانعام ١٥٥
(٤) النحل ٨٩
(٥) الانعام ٣٨

قلنا: ان فلاسفة الاسلام اعتمدوا منطق أرسطو، واشتغلوا به، ونقلوا كتب أرسطو وأفلاطون، ولم يكتفوا بنقل آثارهما، بل حاولوا أن يوفقوا بين الكثير من آرائهما المختلفة، كما حاول كثيرون أن يوفقوا بين آراء الحكيمين وبين الدين.

ومن هنا ـ ومن محاولة التوفيق بين آراء الحكيمين اليونانيين ـ من جهة وبين آرائهما والدين الاسلامي من جهة ثانية نشأ لدى المفكرين الاسلاميين «المذهب التوفيقي».

هذا المذهب كان طريقة ووسيلة للتقريب بين المتباعدات، ومحاولة للجمع والتوفيق بين المتناقضات، وقد ظهر أثره فيما بعد في التفكير الاسلامي، ظهر في «الجائز» و«المستحب» و«المستكره» حيث وضعت القاعدة «في المسألة قولان». و«اختلاف الائمة رحمة بالامة».

المذهب التوفيقي أبقى الكثير من الآراء، وكان سبباً في استمراريتها، ولولاه ولولا اعتماده واقراره والأخذ به لقضي على كل مذهب ورأي واجتهاد يخالف الكتاب وصحيح السنة.

هذا المذهب «التوفيقي» تجذّر في فكر الامة، وتغلغل في وجدانها، وعلاقاتها الاجتماعية، وأصبح ناظمًا للجانب الاهم من حياة العرب والمسلمين، وبرز أخيراً في حياتها العقائدية والسياسية.

ولا نغالي اذا قلنا، انه أصاب التفكير الصحيح بالشلل والوهن، وألبس الحقائق برودًا من الزيف، وجمّل وجه الباطل بصباغ من الحقيقة، وقناع من الدين.

ومتى كان الاختلاف رحمة؟؟ ومتى كانت الحقيقة الواحدة «ذات وجهين»؟ لم يسلك المكزون كمفكر اسلامي هذا المسلك، ولم يتعامل مع هذا المذهب رغم شيوعه وذيوعه، وسيطرته على تفكير مجموعة كبرى من علماء المسلمين!!!.

قلت: إن المكزون لم يعتمد المذهب «التوفيقي» ولم يتكىء على الفلسفة وأقيستها وبراهينها في «المحكم» من الكتاب، والصحيح من السنة، ولكنه اعتمدها ـ أي الفلسفة ـ في «المتشابه» والقضايا الأخرى.

يقول المكزون:

الفيلسوف بعينه أنا، والذي ... يبغي اليقين بظنه متفلسف
قد أثبت التصديق نفي تصوري ... معنى، سواه بالتصور يوصف
لم يعرف العقل البسيط جماله ... لو لم إليه بوصفه يتعرف

فهو كما ترى في هذا الابيات الدقيقة المعنى، المتينة المبنى، البعيدة المراد، العميقة المقاصد، يضع أساساً ومنطلقاً لفلسفة متميزة بالاستقلالية، بعيدة عن التقليد والاتباعية، والاقتداء، والاحتذاء، قائمة على اليقين، بعيدة عن الظن والافتراض والتخمين «يثبت تصديقها «نفي تصوره» لذلك «المعنى» الذي لايوصف بالتصوّر الفلسفي، وإنما يقع التصور بسواه لا به.

وهنا تتجلى لنا خصيصة من خصائص المكزون، وحصيلة من حصائل أدبه، وميزة من مميزات لغته واسلوبه اللذين يتفرد بهما عن غيره، وهي القدرة الفائقة على الجمع بين الالفاظ والمعاني المتضادّة في سياق الفكرة الواحدة، ويظهر التأليف والمواءمة بين تلك الالفاظ والمعاني المتنافرة، وتطويعها، واستخدامها لاغراضه، وترويض معانيها الجامحة.

هل لاحظ القارىء المتمعن ان «التصديق» يثبت «بنفي» «التصور» ولكن أي تصور؟؟.. انه تصور ذلك «المعنى» الذي لايوصف بـ «التصور».

ومتى ادركت ان المقصود بـ «المعنى» هو الله أمكنك أن تدرك مقصده وسهل عليك التسليم باجتماع النقائض اللفظية، والمعاني المتضادة التي ساقها هنا.

واستقلالية الفكر عند المكزون في القضايا الفلسفية جعلته يختلف مع الفيلسوفين اليونانيين ارسطو وافلاطون في كثير مما جاء في فلسفتهما حول الاله، على ما لهذين الفيلسوفين من مركز وقيمة وتقدير وخطر، عند فلاسفة العرب والمسلمين. ففي حين نرى الفلاسفة المسلمين وأكثر علمائهم باستثناء الحنابلة والاشاعرة يحاولون جاهدين أن يوفقوا بين

ما اختلفا فيه فيما بينهما،[1] أو ما جاء مخالفاً للشرع الاسلامي[2] نجد المكزون يجهر بآرائه متخطياً آراءهما في كثير من المشاكل الفلسفية كما يلتقي معهما في الكثير منها!!.

فارسطو وافلاطون ينفيان الحركة عن الاله كما تقدّم

والمكزون يوافقهما في ذلك + التنزيه عن الانتقال من حال حالٍ + التنزيه عن الحصر في المكان + التنزيه عن احاطة الزمان.

يقول المكزون:

١ ـ جل عن «التحويل» و «الحلول» في «الأين» وعن هُجر مقال من هجر.

٢ ـ وما انتقلت عن كون «تجريد» ذاتها...

٣ ـ ونـزّهت عن كون «المكان» كيانها واوصافها عن رتبة الحدثية[3]

٤ ـ تعالت ذات مولاي عن «الحيّز» والوصف

ولما كان الوجود علويه وسفليه حركة، ولما كانت بالضرورة تحتاج إلى محرك، ولما كان الدور والتسلسل محالاً لأن مقدماته مهما طالت وتعددت لاتنتج اذن فلا بد من مبدأ للحركة، وهذا المبدأ ثابت لايتحرك، اذ لو تحرك لكان الدور والتسلسل، وهذا المبدأ ـ مبدأ الحركة الثابتة ـ هو المحرك الأول، وهو الله محرك كل حركة.

هذا ماقاله به الحكيمان، ووافق عليه المكزون.

يقول المكزون:

والـيـك «انـتـهـاء» كل وجـود فلذاك استحال مايـنـهـيـكـا

---

(١) راجع ماكتبه الفيلسوف الفارابي عن الجمع بين آراء الحكيمين

(٢) وراجع ايضاً فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال لابن رشد

(٣) ديوان المكزون تحقيق ونشر الدكتور أسعد علي.

لكنه يختلف مع ارسطو بنفي علم الخالق بالجزئيات[1] وبالقول بأن حركات العالم المدفوعة بالشوق والعشق نحو مبدعها ومبدئها ولا دخل للارداة والعلم الالهيين فيها.

١ ـ اذا كان الجلا منه محالاً ... فغيبة «علمه» عنا محال
٢ ـ وأين ترى عنكم يرى الصب مهرباً ... ولا «اين» من معنى جمالكم يخلو
٣ ـ فلا لطف الا وهو جسم للطفه ... ومعنى معاني الكل ـ في الكل معناه
٤ ـ وسركم في الكل ساري، وإنما ... على كل قلب ضل عن فهمه قفل[2]

وتتسع النظرية عند المكزون فيصبح «الأين» أي الوجود كله في الله، وليس الله في الوجود، ولكن لا على حلولية ابن الفارض، والحلاج، وابن عربي، والبسطامي، ولا اتحادهم، ولكن على مبدأ «الاحاطة» والقدرة، وتنزيهاً عن الحصر في شيء، وأنى يكون ذلك وهو مشيء الاشياء.

١ـ اين، لا أنت كي يفرّ اليه ... منك؟ بل أين أنت؟ و«الاين» فيكا
٢ ـ لاغير، من لاغيره لي إله ... إذا ما الموجود وجود سواه[3]

وفي نظرية الشوق شوق الأعيان ـ أعيان الوجود الى مبدئها الذي أنشأها، أو نشأت عنه افاضةً رحمة وابداعاً يلتقي مع ارسطو.

هو الكل لا غيره كله ... فكل به «مغرم» مستهام[4]

والله عند ارسطو «عقل» محض لايجوز أن يداخله شيء مما هو بالقوة اذ لو كان ذلك

(١) الفلسفة الحديثة لأحمد أمين.
(٢) ديوان المكزون أسعد علي.
(٣) ديوان المكزون تحقيق ونشر الدكتور أسعد علي.
(٤) ديوان المكزون حرف الكاف تحقيق اسعد علي.

لاحتاج الى فاعل آخر يخرجه من «القوة» الى «الفعل». فيكون ـ والحالة هذه ـ وجوده مستفاد من غيره. وهو عند المكزون عقل العقل، ومعنى المعاني، وروح الروح.

معنى المعاني غايةُ الغاياتِ عـ ـقلُ العقلِ قدسُ القدسِ روحُ الروحِ[٥]

ويوافق المكزون ارسطو أيضاً بأن الخالق الصانع واحد لاتدخله «الكثرة» بسيط، غير مركب واجب الوجود، لاممكنه، ولو داخلته «الكثرة» لداخلته المادة، ولم يعد «بَسيطاً» ولو لم يكن «واجب الوجود» لكان بالضرورة «ممكناً» ومسبوقاً بالوجَود.

ليس بمسبوق الوجود جوده لذاك لاينفذه مرّ الدُّهر
جل عن «التحويل» و«الحلول» في «الأين» وعن هُجر مقال من هجر[٤]

ويخالفه في القول: بأن ترتيب العالم لايرجع الى «عناية» المبدأ الأول، وانما الترتيب جاء نتيجة «الشوق» اليه فيقول:

١ـ ظهور الحق في العا لم بالقدرة، والعلم
وبالعدل وبالاحسان، والرأفة والحلم
ولم يدرك، علا عن ذا ك، بالحيّز والجسم

٢ ـ للحق في كل وجه للخلق وجه منير
خاف على كل أعمى عنه، يراه البصير

٣ ـ على كل «عين» من الخلق عين لِهِ من الحق فهو بها يبصر
وفي نطق كل لسانه لسان مخاطبه يخبر[٥]

(٥) ديوان المكزون نسخة المكتبة الظاهرية

لغيري برقك الخلب والمنذر بالطل
وفي ملكك لم أضح ولم أسق سوى الوبل
ولما صرت لي «عيناً» رأيت العينَ في الكل

وهذا يعطينا فكرة القول: بأن الوجود قائم بالله، لا ان الله مخالط الكون، بل الكون قائم برحمته، وقدرته وعنايته، فهو العين الناظرة التي تهتدى بها كل «عين» ـ ذات ـ من أعيان الوجود، وهو اللسان الناطق في كل متكلم، لا على مفهوم الحلول، وإنما على مفهوم منح القدرة، والاستطاعة للعبد «الم نجعل له عينين ولساناً وشفتين، وهديناه النجدين[1]، ولا حول ولا قوة الا بالله، وهذا لا على مبدأ «الجبر» وإنما على مبدأ القدرة والاحاطة، والملكية المطلقة، . . . نحن خلقناهم وشددنا اسرهم واذا شئنا بدّلنا امثالهم تبديلاً،[2] وهو الذي جعل لكم السمع والابصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون.[3].

ويقول:

١ـ قلت للغائبين عن مشهدي فيـ ـك وهم ينكرون معروف قيلي
اعليه تبغون عندي دليلاً؟؟ ووجودي «منه» عليه دليلي[4]

وينتهي أخيراً الى أن الباري مجرد عن كل وصف حتى عن وصفه باللطف.

اذا وصف العشاق معنى جمالكم فتجريده عن كل وصف له وصفي
وان عبروا باللطف عنه فانني أقول معيد اللّطف جلّ عن اللطف

(١) القرآن سورة البلد.
(٢) سورة.
(٣) سورة.
(٤) ديوان المكزون للدكتور اسعد علي.

وقرأت في إحدى رسائل الحكمة الخاصة بالموحدين الدروز مايلي:

ولايقال له (والضمير لله تعالى) أزل قديم لأن الأزل والقدم مخلوقان له.

ومثله:

لايدخل تحت الحروف، ولايوصف بموصوف.

وتقول احدى رسائل الحكمة ايضاً:

حقيقة لاهوته لاتدرك بالأوهام والحواس ولاتعرف بالرأي والقياس ليس له مكان معروف فيكون محصوراً فيه وتخلو منه بقية الامكنة ولايخلو منه مكان فيكون عاجز القدرة ولا أقول ان له شخصاً ولا جسماً، ولاشبحاً ولا صورة، ولا جوهراً، ولا عَرَضاً لأن كل اسم منها لابد له ضرورة من شبه ستة حدود وهي فوق وتحت ويمين وشمال وخلف وأمام وكل ما يقع عليه اسم المشبه يحتاج الى شبهه والباري سبحانه يجل عن الاعداد(٦).

ولكن جاء في الرسالة (٣٦): انه تقرب الينا بنا وآنس عقولنا لتقبله افهامنا فلا نقول: ان هذه الصورة المرئية هي هو فنجعله محصوراً محدوداً، بل نقول هو هي استتاراً وتقرباً وتأنيساً بغير حدّ ولاشبه، ولا مثل، كقول القرآن: كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده. او كمثل الناظر في المرآة يرى نظير صورته بغير لمس ولا ادراك كيفية ولا تحديد ماهية.(٧).

وهذا يتطابق مع العرفان عند المكزون القائل:

ان الـذي عايـنـتـه عيـني بمـرآة وقـتي هي هو وجـوداً ومـا هي هو في حدود ونعت

والمقصود بالصورة المرئية ما يراه الصوفي العارف في حال التجلي والكشف.

ويقول ايضاً:

تجلى لي فجـلاني لعـيـني كما لي صورتي المـرآة تجلو
ومـثّـل لي الحـقـيـقـة في خيـال كما في النـور يحكـي الـشخص ظلّ(٨)

(٦) مذهب الموحدين الدروز لعبد الله النجار ص١٢٥.

(٧) المصدر السابق ص١٢٧.

(٨) معرفة الله والمكزون السنجاري للدكتور اسعد علي ص٤٦ ج٢.

ولكن روى احمد في مسنده أن الرسول قال: اتاني ربي في أحسن صورة.

وروى الشهرستاني عن الرسول: لقيني ربي فصافحني وكافحني ووضع يده بين كتفي حتى وجدت برد أنامله.[٩].

وروى الشيخان عن أبي هريرة عن النبي (ص):

يجمع الله الناس فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبّعون ما كانوا يعبدون وتبقى هذه الأمة بمنافقيها، فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون فيقول: أنا ربكم! فيقولون نعوذ بالله تعالى منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فاذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم في الصورة التي يعرفونها فيقول: أنا ربكم فيقولون: أنت ربنا[١٠].

وهكذا تقول هذه الاحاديث بصورة مرئية والصورة التي يقول بها المكزون وتقول بها الرسالة (٣٦) لاتختلف عن الصورة التي تقول بها هذه الأحاديث الا اذا كان هناك صورتان: عيانية، ومتخيلة، وقد تلتقي بشكل ما بما جاء به التجسيد المسيحي.

ومن اراد مزيداً من هذا البحث الدقيق فليرجع الى كتابنا «المكزون السنجاري» الجزء الأول في بحث التجلي والظهور ص ٢٤٠-٢٥١ والجزء الثاني ص١٩٠-١٩٩ فهناك الصورة المتخيلة والقلبية والعيانية، وحالة الكشف والاشراق.

وفي القرآن: ووجوه يومئذ ناضرة الى ربها «ناظرة».

ولكن فيه أيضاً: لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير.

وفيه: اذ قال موسى: ربي أرني انظر اليك قال لن تراني.. الآية.

---

(٩) اضواء على السنة المحمدية ص٢٢٨.

(١٠) رواه الشيخان، والسنة المحمدية ص٢٤٦.

الفصل الخامس

العرفان الصوفي عند ابن عربي والمكزون

ي الصفحات ١٦٣-١٧٠ من الجزء الأول من هذا الكتاب نشرنا القاموس الصوفي الذي يحتوي على ألفاظ القوم الخاصة وتعابيرهم واشاراتهم ومواجيدهم التي ترد في أشعارهم كتبهم وأحاديثهم.

وقد توسع الصوفيون فأخذوا بعض المصطلحات الفلسفية وأطلقوا على الله تعبير لوجود، وواجب الوجود، والموجود بذاته ولذاته، والذات الكلية مضافاً اليها اسم «المعنى» المبدع بكسر الدال.

وأطلقوا على «الحقيقة المحمدية» اسم الوجود، أو الموجود الثاني، الموجود بغيره، لعقل، العقل الفعال، مضافاً اليها: النور المحمدي، المبدع الأول بفتح الدال.

واستعملوا الفاظ الجلال: الزمان، المكان، الكون، الكيان الفصل، الوصل، الوجود، العدم، الوهم، الأزل، الأبد، وضمنوها مقاصد صوفية خرجت بها عن المعنى اللغوي المباشر الى معان مجازية.

ودارس شعر المكزون لابد له من فهم مصطلحاته الصوفية والفلسفية والاستدلال بها على مقاصد المكزون، لأنه اعتمدها ـ وهو الصوفي الفيلسوف ـ في شعره.

يقول المكزون:

كل المحاسن جزء نور محمد ... واليه مرجعها، وعنه صدورها
يسناه لو لم يغش أنوار السماوات ... العلى لم يبد فيها نورها
ندمت مكارمه وجل ثناؤه ... اذ عز في كل الوجود نظيرها[1].

(١) ديوان المكزون تحقيق الدكتور اسعد علي، ونسخة الظاهرية.

في هذه الثلاثية يسبغ على محمد (ص) أوصافاً مستعملاً ألفاظاً وافكاراً صوفية، فالمحاسن هنا يقصد بها «اعيان» الوجود العلى، و «كلها» من نوره، وانها صدرت عنه صدور الكلام من المتكلم، ثم يقرر نظرية «الشوق» «الارسطية» بأن أعيان الوجود ترجع الى منشئها الأول مدفوعة «بالشوق».

هو الكل لا غيره كله فكل به «مغرم مستهام»

وكل فقهاء المسلمين والمتصوفة يقولون بمصطلح «النور المحمدي» وأزلية هذا «النور» بالنسبة لأعيان الوجود على تفاوت في هذا القول.

وتوسعوا في هذه المسألة حتى أصبحت أساساً في العرفان الصوفي، ولعل ابن عربي أكثرهم جرأة ومغامرة وتقحماً في هذا المجال، والحاحاً على جلاء هذا السر تلويحاً وتصريحاً.

قال في مفتتح كتابه «الاسراء الى مقام الاسرى»: بعد حمد الله والصلاة على اول «مبدَع» - بفتح الدال -، كان ولا موجود ظهر هناك، ولا نجم فسمي «مثلاً» وقد اوجده «فرداً» لاينقسم، في قوله: ليس كمثله شيء، وهو العالم الفرد المعلَم، واقامه ناظراً في مرآة الذات، فلا «اتصل» بها، ولا «انفصم» فلما بدت له صورة «المثل» آمن بها وسلم، وملّكه مقاليد ملكه واستسلم، فاذا الخطاب أنت الموجود الأكرم، والحرم الأعظم، والملتزم، والمقام والحجر المستلم، والسر الذي في زمزم.

ويقول أيضاً ابن عربي تحت عنوان: «صفة الروح الكلي»: منزّه عن «التحيّز» والانقسام، مبرأ عن الحلول في الاجسام، حامل الامانة الالهية، ومجتمع الصفات العليّة، ليس بـ «داخل» في الذات، ولا بـ «خارج» بالصفات، هو وصف معروف، والصفة لاتفارق الموصوف «مُحدَث» صدر عن «قديم» غنيّ، وهبه كل سرّ خفيّ، ليس له فيّ، ولا كمثله شيء... فالنور المحمدي اذن:

اول مبدَع

ولم يتصل بالذات ولم ينفصم.
منزّه عن «التحيّز» ـ المكان.
مبرأ عن الحلول في الاجسام. ومجتمع الصفات العلية.
ليس بـ «داخل» في الذات.
ولا بـ «خارج» بالصفات، «مُحدَث» صدر عن «قديم».

ولو لم يصفه بأنه «محدث» صدر عن «قديم» لاختلطت على القارىء الأوصاف التي أسبغها عليه بالصفات التي تطلق على الذات ـ ذات الله ـ.

ويطلق المكزون على محمد أوصافاً جاءت كلها في القرآن:

لأحمد في الذكر وصف عظيم ... رسول نبيّ، رؤوف رحيم
نذير مجير، ولّي نصير ... وساع، وداع، وراع حميم
ذكور شكور، صبور وقور ... حميد مجيد، غفور رحيم

ويسوقنا البحث في غرائب البحوث الصوفية عند ابن عربي وأضرابه الى احدى الغرائب عند المكزون، تلك الغريبة التي كانت مثار جدل، ونقاش، وتحدّ وملاحاة بين فريقين من المهتمين بهذه البحوث وهذه الغرابة لاتخرج عما جاء به ابن عربي كما تقدم.

يقول المكزون في إحدى قصائده في تنزيه «الذات»:

١ ـ ونزهت عن كون «المكان» كيانها ... وأوصافها عن رتبة الحدثية
٢ ـ وأعطيت «معناها» «التقدم» في الهوى ... على «نورها» «الموصوف» بالأزلية
٣ ـ وأفردته من غير «فصل» ولم أقل ... مع «الوصل» أن «النور» عين «المنيرة»[1]

(١) ديوان المكزون تحقيق الدكتور اسعد علي، ونسخة المكتبة الظاهرية، ومخطوطة الأسكوريال. وقد ورد البيت الثالث في هذه النسخ وغيرها هكذا:
وأفردته من غير فصل، ولم اقل مع الوصل: ان النور «غير» المنيرة بوضع لفظة «غير» مكان لفظة «عين» ومن هذا التصحيف حدث الخلاف، ونعتقد أن الصواب هو ماذهبنا اليه وهو وضع لفظة «عين» موضع لفظة «غير».

هذه الابيات لاتخرج في معانيها ومقاصدها عما ورد عند ابن عربي، كما قلنا، والذي اوردناه سابقاً.

ابن عربي يقول: منزّه عن «التحيّز» وهو الحصول في المكان.

والمكزون يقول: ونزهت عن كون «المكان» كيانها.

ويقول ابن عربي: اقامه في مرآة الذات فما «اتصل» فيها ولا «انفصم» ليس بداخل في الذات ولا بخارج بالصفات.

ويقول المكزون: و «افردته» من غير «فصل» ولم اقل مع «الوصل» ان النور «عين» المنيرة.

والى القراء تحليلاً دقيقاً للبيتين الثاني والثالث وايضاح أن لفظة «غير» الواردة في البيت الثالث هي التي خلقت الأشكال.

١ـ نقاط البيت الثاني او مرتكزاته: معنى، تقدّم، نور،

٢ ـ نقاط البيت الثالث ومرتكزاته: إفراد، فصل، وصل، نور.منيرة.

أولاً: معنى الشيء حقيقته ويقصد هنا الذات الالهية.

ثانياً: هذه الذات لها «التقدّم» على «نورها».

ثالثاً: التقدّم يعني الافضلية، أو السبق في الوجود.

رابعاً: النور ليس ازلياً، ولكنه موصوف بالأزلية، لهذا كان للذات الأزلية، «التقدم» عليه، اذ لو كان أزلياً لما جاز «التقدم» عليه، لأن الشيء لايتقدم على ذاته، او على بعض ذاته.

خامساً: الضمير في «نورها» ضمير الاضافة والملكية.

سادساً: الضمير في لفظة «أفردته» يعود الى «النور».

سابعاً: «الافراد» تمّ، أو يتمّ، أو هو تامّ بدون «فصل».

ثامناً: «الفصل» لايقع على «الذات» وانما يقع على «النور» لأن النور لايقوم الا بالذات، وليس العكس.

تاسعاً: اذا اعتبرنا لفظة «غير» فلم يبق معنى «للوصل» لأن «النور» في هذه الحالة هو «المنيرة» فكيف يوصل الشيء بذاته؟ وطالما أن «التقدم» للذات على «النور» فكيف يكونان شيئاً واحداً؟ مع ان هناك «متقدّماً» و «متقدَّماً عليه»!!

عاشراً: «المنيرة» اسم فاعل من «انار» الشيء جعله مناراً، أو جعل له نوراً، واذن فالمنيرة الفاعلة هي التي تُحدث النور، وتعطيه، ومتى كان هنالك محدِث و محدَث، ومعطٍ ومعطىً فكيف يتساويان ويكونان ذاتاً واحدة؟؟

وهنا يظهر بوضوح أن تصحيف «عين» الى «غير» هو الذي احدث البلبلة، وفتح باب الجدل والمهاراة والمشارّة، وبعد التصحيح يصبح معنى البيتين كما يلي:

ان الذات العلية أو الموجود الأول لها «التقدّم» على الموجود الثاني، وان الذات مفردة عن الذوات لاستغنائها عنها ولكن «نورها» «متّصل» بها لافتقاره الى هذا الاتصال، وان هذا «الوصل» أو الاتصال، هو اتصال افاضة، ومدد وابداع، واختراع، وتكوين. وليس اتصال مخالطة، أو ممازجة، أو حلول أو نفي اثنينيّة، كما أن «الوصل» لايكون الا بين «منفصلين» والا فلا يسمى وصلاً. وكذلك الفصل لايكون الا بين متّصلين والا فلا يسمى فصلاً.

وفي حالة «الوصل» هذه ـ وصل الافاضة والمدد ـ لايجوز القول: أن «النور» هو «المنيرة» أي «عين الذات» لأن هذا «النور» محدث عند الذات ولكنه أزليّ عند الكائنات.

دلّ عليه نوره بنوره وهو الى دليله دليل

ويعلم كل متتبّع لاشارات القوم، وعباراتهم، ورموزهم، ان تعبير «الفصل» و «الوصل» لم يرد عندهم عن «الذات» مطلقاً، لأن الذات «كل» من سائر الوجوه، و «جذر أصم» لا «فصل» فيها، ولا «وصل» أما الفصل والوصل فتعبيران خاصّان بالعقل الفعال وموقعه من موجده.

وما اقرب واسهل تصحيف «عين» الى «غير».

وما افدح الغلطة اذا نشأت عن نقطة.

وما أصعب خوض هذه المعاني على غير العارفين.

الفصل السادس

الحوار والحجاج

عند المكزون

المكزون والتقليد

يقول الشاطبي: التقليد هو أخذ القول من غير معرفة الحجة عليه، وبالتقليد أغلق باب الاجتهاد، فأدى الى تعطيل عمل العقل، والحدّ من نشاطه في مجال استنباط الأحكام(١).

ولقد أغلق باب الاجتهاد بعد سنة ٤٠٠ للهجرة.

كما أدرك كثير من العلماء خطر التقليد على الأمة، فحملوا عليه، ومن هؤلاء حافظ بلاد المغرب ابن عبد البر في كتابه «جامع بيان العلم» وابن القيّم في كتابه «اعلام الموقعين» والشاطبي في كتابيه «الموافقات» و «الاعتصام».

فمن أقوال الشاطبي في هذا الموضوع: لقد زل بسبب الاعراض عن الدليل. والاعتماد على الرجال أقوام خرجوا بذلك عن جادّة الصحابة والتابعين، واتبعوا أهواءهم بغير علم، فضلوا سواء السبيل.

وقال: تحكيم الرجال من غير الثقات الى كونهم وسائل للحكم الشرعي المطلوب شرعاً ضلال(٢).

وقال: المقلدة اذا جاءهم من بلغ درجة الاجتهاد، وتكلم في المسائل، ولم يرتبط بامامهم رموه بالكفر، وعدّوه من الخارجين، والمفارقين للجماعة.(٣)

ولقد بلغ الغلوّ والتعصب بالمقلدة حدّاً جعل الكرخي يقول: كل آية، أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول، أو منسوخ(٤).

---

(١) الشاطبي ابراهيم بن موسى ابو اسحق ٧٩٠ هـ فقيه مالكي أصولي من أهل غرناطة.

(٢) الاعتصام للشاطبي.

(٣) نفس المصدر.

(٤) فقه السنة للسيد سابق.

ومن المبالغات ما يقوله ابن القيم الجوزي: أن أبا حنيفة كان يعلم «الخضر» ولما مات أسف الخضر، وناجى ربه قائلاً: الهي اذا كان لي عندك منزلة فاذن لابي حنيفة أن يعلمني في القبر على حسب عادته حتى أتعلم شرع محمد على الكمال، فأحياه الله ـ أي أحيا ابا حنيفة ـ وتعلم منه العلم الى خمس وعشرين سنة(٥).

ويقول ابن الجوزية في كتابه «المناقب» عن علي بن اسماعيل قال: رأيت القيامة قد قامت، وجاء الناس الى قنطرة، ولايترك أحد يجوز، حتى يأتي بخاتم، ورجل جالس ناحية يختم للناس، ويعطيهم، فقلت من هذا؟؟ قالوا أحمد بن حنبل٧ .

ويقول صاحب تفسير «روح البيان» في شرح قوله تعالى: ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية: ان نصف الثمانية هم:

ابو حنيفة ومالك والشافعي، وابن حنبل.

ومن ثمرات التقليد قول علي بن المدني: ان الله أيد هذا الدين باثنين لاثالث لهما وهما: ابو بكر الصديق يوم الردة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة (ويقصد محنة القول بخلق القرآن).

ويروي الميموني عن لسانه أنه ما قام أحد بأمر الاسلام بعد محمد ما قام به أحمد بن حنبل، فقيل له: ولا ابو بكر الصديق فقال: ولا ابو بكر الصديق ٨ .

ومن المبالغات ماذكره علي بن مؤمن المعروف بأبي الحسن العابد انه قرأ أن أحمد بن حنبل حج ٦٠ حجة ومن المعروف أن أول حجة لأحمد بن حنبل كانت سنة ١٨٦ وانه مات سنة ٢٤١ هـ.

ومما جاء لاحمد بن حنبل: انظروا في امر دينكم فان التقليد لغير المعصوم مذموم(٦) وفيه عمىً للبصيرة.

---

(٥) الياقوتة لابن الجوزي، والامام الصادق لأسد حيدر ج٣ ص٤٧٠

(٦) المصدر السابق.

(٧) طبقات الحنابلة.

(٨) الاسلام الصحيح ص ٢٩٧.

وقال ابن الجوزي الحنبلي: ان في التقليد ابطال منفعة العقل، لأن العقل خلق للتدّبر والتأمل، وقبيح بمن أعطي شمعة يستضيء بها أن يطفئها، ويمشي في الظلمة.

وقال جمال الدين القاسمي في قواعد التحديث: لايفتي الا المجتهد أما المقلد فلا يسوغ له طرق هذا الباب، لانه سدّ على نفسه الأبواب، وأرخى ما أمكنه من ستر وحجاب.

وقال الغزالي في فيصل التفرقة: حق المقلد أن يَسكت ويُسكَت عنه.

وقال ابو جعفر الطحاوي: لايقلد الاّ جاهل أو غبيّ.

ولنقف هنا وقفة متأنية نسأل التاريخ عما جرّه التقليد والتعصب لمذهب بعينه على الأمة من مضار، وقاد اليها من كوارث، وألحق بها من خسار، وقتل ما بينها من إلفة، ومزّق ما تنشده من وحدة، وما غرس في نفوسها من الإحَن، ونشر بين صفوفها من الفتن!!

ذكر المؤرخ الحافظ ابن كثير ان عزيز مصر الملك الأفضل بن صلاح الدين كان قد عزم في السنة ٥٩٥ هـ وهي السنة التي توفي فيها على اخراج الحنابلة من بلده، وان يكتب الى بقية اخوته باخراجهم من البلاد.[1]

وذكر أيضاً ان فخر الدين الرازي وفد الى خراسان، فاكرمه ملك غزنة، وبنى له مدرسة في هراة، ولكن أهل البلاد الذين كانوا على مذهب ابن كرام ابغضوه، وسعوا به، وخطبوا ضدّه في الجوامع فاخرجه الملك من البلاد. ٢

وقعت في دمشق فتنة بسبب عبد الغني المقدسي الذي كان يدرس في مقصورة الحنابلة في الجامع الأموي وتعرض الى مسألة «الصفات» فغضب أتباع المذاهب الاخرى، فعقد له الأمير صارم الدين برغش مناظرة مع فقهاء المذاهب الاخرى، فلم يتفقوا، فنفاه الأمير من البلد، وجاء الاسارى من القلعة، وكسروا منبره وتعطلت الصلاة في محراب الحنابلة، ونهبت خزائنهم[3].

---

(١) البداية والنهاية ١٣/١٨ طبعة المعارف

(٢) البداية والنهاية ١٣/١٩

(٣) البداية والنهاية طبعة المعارف ١٩٦٦ ، ١٣ ـ ١٨

واستخلف القادر بالله العباسي عام ٣٩٣ أبا العباس أحمد بن محمد البازري الشافعي عن أبي محمد الاكفاني الحنفي قاضي بغداد باشارة من أبي حامد الاسفراييني، وكتب أبو حامد الى السلطان محمود بن سبكتكين وأهل خراسان، ان الخليفة نقل القضاء من الحنفية الى الشافعية، فصار أهل بغداد حزبين ثارت بينهما الفتن، فقرر الخليفة صرف البازري عن القضاء، واعاد تقليد الحنفية.(٢)

وذكر ابن الاثير في حوادث سنة ٣٢٣ يقول: في هذه السنة عظم أمر الحنابلة ببغداد فصاروا يكبسون دور القواد والعامة، فان وجدوا نبيذاً أراقوه، واذا وجدوا مغنية ضربوها، وكسروا آلة الغناء، فارهجوا بغداد، فركب صاحب الشرطة، ونادى في جانبي بغداد لايجتمع اثنان، ولايصلي منهم امام الا اذا جهر بالبسملة في صلاة الصبح والعشائين، ولكن كل هذا لم يُفد، وزادت الفتن، فخرج توقيع الخليفة ينكر عليهم فعلهم(٣).

وذكر ياقوت الحموي عن مدينة اصفهان ومجدها القديم، وكيف صارت الى الخراب عقب ذلك النهب والسلب وحرق البيوت، بين الشافعية والاحناف وشمل ذلك قراها ورساتيقها(٤).

وذكر مثل ذلك عن مدينة الري وقال: كان أهلها ثلاث طوائف: شافعية وهم قلة، وحنفية وهم الكثرة، وشيعة وهم السواد الاعظم، وقد تألب الشافعية والاحناف على الشيعة ثم ثارت العصبية المذهبية بين الشافعية والاحناف، ووقعت الحروب.

كل ذلك حدث في التاريخ واضعافه من جراء المذهبية الضيقة، والتقليد الاعمى، واستغلال السياسة لهذه الخلافات، والعمل على توسيعها، واثارتها كلما طاب لها ان تضرب الشعب ببعضه لتجعل من نفسها حكماً، وتنصر من تريد، وتقرّب من تشاء، وتبعد من تختار.

هذا وكتاب الله بين أيديهم، ولكن السياسة، وتجار الدين، ونزغات الجهل، ونزعات الشيطان فعلت فعلها في القلوب والنفوس والعقول.

---

(٢) نظرة تاريخية في حدوث المذاهب وانتشارها لأحمد تيمور.

(٣) ظهر الاسلام لاحمد أمين نقلاً عن الكامل لابن الاثير ١٠٦/٨

(٤) معجم البلدان لياقوت الحموي.

فما هو رأي الشاعر المكزون؟؟

المتتبع للمكزون في شعره يرى أن له موقفين من التقليد والمقلدين، يكادان يكونان متناقضين وإلى القراء الدليل:

أنـا في هواهـا مُشـهـد ومـغـيّـب ... فاعـجـب لكـوني واصـف ومجـرد[1]
ومـكـلـف، ومـرفّـه، ومـبصِر ... ومـبصّر، ومـقـلِدّ، ومـقـلَّد

حيّ على تصـوف بمـثـله ... فليـطُل الـعـجـب لأربـاب الـقِصر
حيّ على مورد عين عَذُبـت ... مادونها ريّ، ولا عنهـا صَدر
حيّ على معـرفـتي فانها ... عصـا هديٌ تلقـف ما الجبـت سحـر
فيـهـا بتـقـليـدي غدوت عارفـاً ... بمـضـمـر المـظهـر من آيِ السـوَر

فهو هنا يصف بأنه مقلّد ـ بكسر اللام ـ ومقلَّد بفتحها، وان هذا التقليد جعله عارفاً بالمضمر من آيات الذكر الحكيم.

ولكن لنر وجهاً آخر، وحكمًا مناقضاً، وموقفاً معارضاً، ورأياً مبايناً في التقليد.

كن مع الحـق حيـث كان عيـانـاً ... وبـه عذ من باطـل الـتـقـليـد
واتـبـع شاهـداً عليـك بما جا ... ء رسـول، تفـز بأجـر الـشـهـيـد
واطـرح في الهـوى المـراء لمن ضل ... ولا تصـحـبـنّ غير الـرشـيـد[2]

فالتقليد هنا باطل، ونقيض الحق، ويجب الاستعاذة منه بالحق، وينصح من اتباع شهادة الرجال، وليكن الشاهد عليك ما جاء به الرسول وبذلك تفوز بالأجر الاكبر، وهو أجر الشهداء.

٢ - تبصر بنـور الحـق تلق حقيـقـةً لعـين يقـين لايـداخـلهـا الـظنُّ
ولا ترض بالـتـقـلـيـد تغدُ مخلداً بحَـزن ضلال لايـفـارقـه الحُـزنُ [1]

هذه لمحة عجلى عما تركه التقليد في تاريخ الأمة الاسلامية وما الحقه بالمسلمين من ويلات ومصائب، وانزله من كوارث ونكبات فاذا دعاه المكزون باطلاً، واستغاذ بالله منه، واعتبر ان الراضي به سيخلد بحزن الضلال فهو على حق وصواب[٣] ولكن كيف نوفق بين قوليه في التقليد؟؟

والجواب سهل ميسور!! وصحيح ثابت لايتطرق اليه الشك، ولا تدانيه الريبة!!
فللتقليد وجهان، ولسلوكه حالتان.

هناك تقليد في الامور الاعتقادية، والعبادات.

وهناك تقليد في الاحكام الشرعية والمعاملات.

والمكزون يرى التقليد في الاصول الاعتقادية لأنها لاتحتاج الى اجتهاد، ولا تفتقر الى شهـادات الـرجـال، واستنباط الأدلة منهم وعنهم، ولانها جاءت عن المعصوم ما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا.

واما في الاحكام الشرعية والمعاملات فلا يرى جواز التقليد لما فيه من تعطيل العقل، وانـما يلزم نفسـه جانب الحق، ويدور معـه حيث دار، ولا يلتـزم بأقوال الرجال فكثيراً مايعوزهم الدليل، ويتخطون قويم السبيل، ويأتي تعليلهم اشبه بالعليل.

ولـسـت على غيـب أحـيـل مقـلدي فيندو الـرضـا بالقول مني على سخط [2]

---

(١) الحَزَن: بفتح الحاء الأرض الصلبة الصعبة.

٢ ديوان المكزون، ومصورة المكتبة الظاهرية.

القرآن والسنة في شعر المكزون

القرآن والسنة مصدرا التشريع الاسلامي.

القرآن دستور المسلمين العام ومصدر التشريع الأول عقائدياً واجتماعياً واخلاقياً لم يختلف فيه المسلمون على تعدد مذاهبهم لكنهم اختلفوا:

١ ـ في قراءاته حتى بلغت سبعاً، ثم اجمعوا على صحتها جميعها.

٢ ـ في تفسير المتشابه من الآيات، وتأويله، وفي الناسخ والمنسوخ من احكامه

ويورد المكزون أوصافاً للقرآن الكريم وبالطريقة الصوفية:

١ ـ كل حرف من الكتاب كتاب ... محكم مالحكمه الدهر نسخ
وبنشري مطويه لنهار الكشف ... من غيهب الغواية سلخ
ولأرواح كل من راح مرتا ... حا اليه من واهب الروح نفخ

٢ ـ وبألطافها اليها دعتني ... وارتني نزولها في سمائي
بكتاب فيه شفاء اكتئابي ... من وعيد القلى بوعد اللقاء
محكم ذو تشابه، وائتلاف ... في اختلاف الآيات والاجزاء
واليه عند الخصام احتكامي ... فلذا رحت دامغاً خصمائي

٣ ـ لم يحرم ماكان حلاً على غير ... ظلوم بذا أتانا الكتاب
مثلما يمنع الطبيب لذيذاً ... عن مريض له الكريه الشراب

٤ ـ وكيف عن محكم الايات منه أرى ... زيغاً، واتبع تباعاً لمشتبه

٥ ـ هذا وآيات الشهادة عندهم ... تتلى، وحكم القسط فيها يورد[1]

(١) كل الابيات عن مخطوطتي المكتبة الظاهرية والاسكوريال

والسنة، وهي المصدر الثاني لتنظيم المجتمع الاسلامي، وتعريفها: ماأثر عن النبي من قول وفعل وتقرير. وقال الجرجاني: السنة في اللغة الطريقة، مرضية كانت او غير مرضية، وفي الشريعة هي الطريقة المسلوكة في الدين من غير افتراض او وجوب وهي قسمان: عملية[1] وقولية، وهناك سُنن الهدى وسُنن الزوائد، والسنة العملية تلي القرآن في المرتبة اما القوليّة فتأتي في الدرجة الثالثة والقرآن مقطوع به لانه متواتر، والسنة مقطوع بها بجملتها، لابتفصيلها، لانها غير متواترة.

ولقد اختلف علماء المسلمين فيها:

١ ـ في الرواية والتعبير.

٢ ـ في الرواة والثقة بأقوالهم.

٣ ـ في عدد الاحاديث الصحيحة والموضوعة.

٤ ـ بطرق الحديث، وهل هو آحادي، أم متواتر، أم مرفوع.. الخ

وسنورد اقوال الشاعر المكزون في السنة المطهرة، وحضه على التمسك بها وانها السبيل الى الله بعد الكتاب الكريم كما سنفرد بحثاً خاصاً للحديث.

يقول المكزون:

١ ـ أميّ الشريعة، والمقيم لها أبي ... وبنو بنيها كلهم اخواني

أأعق والدتي، وأنكر والدي ... والى العداة أفرّ من أعواني؟؟

أأفر من انسي الى وحش الفلا ... ان كنت ذاك فلست بالانسان[2]

انه يرى المسلمين أخوة، أمهم الشريعة الجامعة، ومن يعقّ والدته، وينكر والده، ويجافي اخوانه، ويوالي اعداءه فليس له صفة الانسان.

(١) السنة المتواترة هي التي اجمع عليها مسلمو الصدر الأول وكل ذلك قطعيّ لايجوز جحده ولا رفضه لا بتأويل ولا اجتهاد ككون الصلاة المفروضة خمساً وكون الفجر ركعتين والمغرب ثلاثاً والبواقي اربعاً وكون كل ركعة تشتمل على قيام وقراءة وركوع وسجودين.. الخ.

(٢) المخطوطة: الاسكوريال

٢ ـ وارفض البدعة، والسُّنة لا تعدُها عدواً تلظّى بلظي

انه يدعو الى رفض البدعة ـ كل بدعة ـ والبدعة ماخالفت السنة والكتاب، ويحضّ على التقيّد بالسنة، وعدم تجاوزها، لأن تجاوزها يقود الى «لُظَىْ» تصغير لظى احدى طبقات جهنم السبع.

٣ـ شرعة وجدي مالها نسخ وعقد عهدي ماله فسخ
وسنّتي في الحب بلخية يرفضها من داره الكرخ

ويشير في البيت الثاني الى بلخ والكرخ والرفض والتسنن الذي كان قائمًا فيهما.

٤ ـ ومستنّ الزور أو رافض السنة، مقرون به السبّ

٥ ـ وشرعتي في الحب مبذولة يعرفها الوارد والصادر
وسنتي فيه لأهل النهى يرفضها من جهله الكافر

٦ ـ ورافض لسنتي بجهله يذمّ من لسعيه الله شكر

٧ ـ فمسنون التقى مني ومفروض الهدى فرضي
وما الكافر الا جا هل السنة في رفضي

٨ ـ واعمل بمسنون الهوى في ملتي وارفض فروض غيرها من الملل
ودم على فعل الصلاة تتّصل بمن اليها بالصِّلاتِ قد وصل

الحديث في شعر المكزون

رويتُ عن زيد حديثاً ظاهراً ... رأيتُه، فصدّق الخبر الخبر
عدول قومي شاهدون مشهدي ... ان غاب عنه الفاسقون لاضرر
لم ألبس الباطل بالحق كمن ... يستاك بالطيب وفي فيه بخر

ولكن، أيُّ زيدٍ هذا الذي يروي عنه المكزون ويشير اليه في قوله هذا؟؟ أزيد بن ثابت؟؟ ام زيد بن حارثة؟ وكلاهما صحابي، أم زيد بن علي؟ وهذا يعني «التمذهب»!!

ولكن المكزون يقول: «رأيتُه» وهذا يعني اشتراط الرؤية، والسّماع، والصحّبة لصحة الحديث. كما يُشترط العدل.

والحديث الذي رواه حديث ظاهر، ويعني ان المراد منه غير خفيّ.

يقول الكستلي[1] في الصفحة ١٩٠: اللّفظ اذا ظهر منه المراد يسمى «ظاهراً» بالنسبة اليه في اصطلاح الفقه، وان تأيد ذلك بشهادة السوق يسمى «نصّاً» وان انضم الى مايمنع احتمال التأويل والتخصيص يسمى «مفسّراً» وان لحقه مايدفع احتمال النسخ يسمى «محكماً» وان لم يظهر فان كان ذلك لعارض يسمى «خفياً»، وان كان لنفس اللفظ. فان كان مما يدرك عقلاً يسمى «مشكلاً» ونقلاً يسمى «متشابهاً».

والقدر المشترك بين النص والظاهر هو «المحكم» والمشترك بين المجمل والمؤول هو «المتشابه» لأن عدم الفهم حاصل في القسمين.

وقيل: النص ماكانت دلالته على معناه بدرجة من القطع لاتقبل «الاحتمال».

وقيل: الظاهر ماكان يقبل «الاحتمال».

ولكن يقابل النص والظاهر المجمل والمتشابه من اقسام المبهم.

واكثر العلماء يرون ان المتشابه مالايتضح معناه.[2]

وقال البيضاوي: ان المشترك بين الظاهر والنص هو «المحكم».

والمشترك بين المجمل والمؤول هو «المتشابه» والأحناف قسّموا اللفظ باعتبار «الوضوح»

---

(١) مصطفى القسطلاني مصطلح الدين

في دلالته على معناه إلى ظاهر، ونص، ومفسّر ومحكم.

يقابلها الخفي، والمشكل، والمجمل، والمتشابه، ولم يجعلوا المحكم والمتشابه وصفاً لقدر مشترك.

ويقول ايضاً المكزون:

وكل ماأوردته شاهده آي الكتاب او حديث، أو أثر

واذا كانت الصحبة ـ صحبة النبي ـ والرؤية، والسماع شروطاً وأصولاً مقررة لصحة الحديث، فما هو القول بالاحاديث الواردة عن التابعين، وتابعي التابعين الذين لم يصحبوا، ولم يروا، ولم يسمعوا مباشرة؟؟

هل يعني السماع ماسمع عن النبي مباشرة؟ ام ماسمع بالعنعنة؟؟

ومن المجمع عليه ان الصحابة كلهم «عدول» ولكن كان خلفاء الرسول الراشدون لايقبلون الحديث من الصحابي مهما بلغت منزلته الا اذا جاء بشاهد يشهد له انه سمعه من رسول الله.

وكان علي بن أبي طالب يستحلف الصحابي على ماسمعه من الرسول.

واشترط في الراوي ايضاً الضبط والعدالة (١)

وكيف تُحدّد الصحبة والرؤية والسماع وقد اشترك فيها المؤمنون والمنافقون؟؟ اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله... وان يقولوا تسمع لقولهم.

وهؤلاء المؤلفة قلوبهم صحبوا الرسول وسمعوا حديثه، واسهم لهم في الغنائم!

وحيث ان الموضوع ـ موضوع الحديث ـ مترامي الأبعاد، كبير السّعة، ولشعر المكزون ارتباط به، رأينا ان نتوسّع فيه قليلاً، ونعرض بعض ماطرأ عليه، وأدخل فيه، وانتهى اليه من الخلاف والاختلاف بين المسلمين، وكان سبباً في قيام المذاهب الاسلامية.

ونأمل ان لايعتبر توسّعنا في هذا الموضوع خروجاً على المنهج المقرّر لهذا الكتاب.

---

(١) محمود درويشه في مجلة نهج الاسلام السنة السادسة العدد ٢٤ ص ١٢٦

(٢) جاء في البحر المحيط ج٢ ص٣٨١.

تدوين الحديث

جاء ان النبي نهى عن كتابة الحديث، يقول احمد امين: لقد وجدنا أحاديث كثيرة تنهى عن تدوين الحديث منها مارواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله: لاتكتبوا عني، ومن كتب غير القرآن فليمحه، وحدّثوا عني ولاحرج، ومن كذب عليّ فليتبوّأ مقعده من النار.

ولم يرد في التاريخ انه اتّخذ كاتباً في هذا الشأن، ولا كان يستعرض الحديث، او يراجعه على حفظته (1)

وسأل سائل عليّاً عن أحاديث البدع وعما في ايدي الناس من اختلاف الخبر فقال: ان في ايدي الناس حقاً وباطلاً، وصدقاً وكذباً، وناسخاً ومنسوخاً، وعاماً وخاصاً، ومحكماً ومتشابهاً وحفظاً ووهماً، ولقد كذب على رسول الله على عهده حتى قام خطيباً فقال: من كذب عليّ فليتبوّأ مقعده من النار.

وانما أتاك بالحديث أربعة من الرجال ليس لهم خامس.

١ - رجل منافق مُظهر للايمان متصنّع للاسلام، لايتأثم ولايتحرّج، يكذب على رسول الله متعمداً فلو علم الناس أنه منافق كاذب لم يقبلوا منه، ولم يصدقوا قوله ولكنهم قالوا: صاحب رسول الله رآه وسمع منه، فيأخذون بقوله، ولقد اخبرك الله عن المنافقين بما اخبرك، ووصفهم بما وصفه به لك ثم بقوا بعده، فتقربوا الى ائمة الضلالة، والدّعاة الى النار، بالزور والبهتان فولوهم الأعمال وجعلوهم حكاماً على رقاب الناس، فأكلوا بهم الدنيا، وانما الناس مع الملوك والدنيا، الا من عصم الله فهذا أحد الاربعة.

ورجل سمع من رسول الله شيئاً لم يحفظه على وجهه فوهم فيه، ولم يتعمد كذباً، فهو في يديه ويرويه، ويعمل به، ويقول: انا سمعته من رسول الله فلو علم المسلمون انه وهم فيه لم يقبلوه منه، ولو علم هو كذلك لرفضه.

---

(١) تصنيف نهج البلاغة ص ٩٥ الجزء ٣ ص ١٣ - ١٤

ورجل ثالث: سمع من رسول الله شيئا يأمر به، ثم انه نهى عنه، وهو لايعلم، او سمعه نهى عن شيء ثم امر به وهو لايعلم. فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ، فلو علم انه منسوخ لرفضه، ولو علم المسلمون اذ سمعوه منه انه منسوخ لرفضوه.

ورجل رابع: لم يكذب على الله، ولا على رسوله، مبغض للكذب خوفاً من الله، وتعظيماً لرسول الله ولم يهم بل حفظ ماسمع على وجهه، فجاء به على ماسمعه لم يزد فيه ولم ينقص منه، فهو حفظ الناسخ فعمل به، وحفظ المنسوخ فجنب عنه: وعرف الخاص والعام والمحكم والمتشابه فوضع كل شيء موضعه[1]

وقال الشيرازي في اللُّمَع: اذا روى الخبر ثقة رُدّ بأمور:

اولاً: أن يخالف موجبات العقول فيعلم بطلانه لان الشرع انما يرد بمجوزات العقول، واما بخلاف العقول فلا.

ثانياً: ان يخالف نصّ كتاب، او سنة متواترة فيعلم انه لا أصل له أو منسوخ.

ثالثاً: ان يخالف الاجماع فيستدل به على انه منسوخ، او انه لااصل له لانه لايجوز له ان يكون صحيحاً غير منسوخ وتجمع الامة على خلافه.

رابعاً: ان ينفرد الواحد برو ية ما يجب على الكافة علمه فيدل على ذلك انه لااصل له، لانه لايجوز ان يكون له أصل وينفرد هو بعلمه من بين الخلق العظيم.

خامساً: ان ينفرد برواية ما جرت العادة ان ينقله اهل التواتر فلا يقبل لانه لايجوز ان ينفرد في مثل هذا بالرواية[2].

وقال الغزالي: أربعة يعلم بها كذب الاخبار.

الاول: مايعلم خلافه بضرورة العقل، او نظره، او الحس والمشاهدة، او اخبار التواتر، وبالجملة ماخالف المعلوم بالمدارك الستة. الثاني: ماخالف النص القاطع من الكتاب، والسنة المتواترة، واجماع الامة. والثالث: ماصرح بتكذيبه جمع كثير يستحيل في العادة تواطؤهم على الكذب. الرابع: ماسكت الجمع الكثير عن نقله والتحدث به.[3]

(٢) توجيه النظر ص ٨٢

(٣) المستصفى للغزالي

وكان الخليفة عمر بن الخطاب يتحرّج من رواية الحديث، وينذر المكثرين بالعقوبة، وقد أنذر أبا هريرة بالضرب والنفي الى بلاده التي جاء منها لأنه كان يكثر الحديث، فكف خوفاً من عمر عن رواية الحديث، ولكنه عاد اليها بعد وفاة عمر.

واذا كان ثاني الراشدين، لايرتاح لرواية الحديث، ويرفض كتابته، ويشكّ في الرُّواة، فما بالكم بمن اتى بعده بمئتي عام؟؟

ويحدثنا التاريخ ان عبد الله بن مسعود كان يقضي السنة بكاملها في العراق يحدّث الناس، ويقضي بينهم ولايقول: قال رسول الله، واذا قالها ارتعدت فرائصه كأن به صرعاً.

وحتى منتصف القرن الثاني الهجري لم يجمع الحديث، ولكن القرن الثالث كان عصر المحدّثين. ونشأت مدرستان: مدرسة النقل ومقرّها الحجاز، ومركزها المدينة، ويتزعمها الامام مالك. ومدرسة العقل ومقرها العراق ويرأسها ابو حنيفة.

واذا كان ابو حنيفة منذ الف ومئتي عام لم يثبت لديه من الحديث الا اقله، فمن اين جاء هذا الركام من الاحاديث، وخاصة منها ماكان قيداً للعقل، وتجميداً للجنان الأمر الذي أدى بأبي حنيفة الى وضع قاعدة «تغيُّر الاحكام بتغيُّر الزمان والمكان».

والسؤال ماذا كان يحدث للدين لو سار المسلمون بعد القرن الثاني للهجرة على ماسار عليه اسلافهم خلال القرنين السابقين من عدم جمع الحديث وتدوينه، أكان يضيع الدين كله، أو نصفه، أو بعضه؟؟ وهل نعد الصحابة مقصرين بجانب الدين وآثمين لانهم لم يفعلوا مافعله علماء الحديث من جمعه وتبويبه؟؟(٣)

لقد عني علماء المسلمين بالحديث ورجاله، وتحقيقه عناية كبرى ووضعوا الصحاح، والسُّنن، وسِيَر الرجال، والجرح والتعديل كما لم يشهده موضوع من مواضيع الفكر والتشريع:

وقد بلغ بهم حرصهم على الحديث والبحث عن صحته درجة عالية حتى انهم قسموه الى اربعة عشر قسمًا:

١ ـ الصحيح: وهو مااتصل اسناده بنقل العدل الضابط ضبطاً تاماً عن مثله الى

(٣) المصدر السابق.

منتهى السند من غير شذوذ، ولا علة قادحة:

٢ ـ المرفوع: ماأضيف الى النبي قولاً، او فعلاً، او تقريراً، او صفة، أو حكمًا.

٣ ـ الموقوف: ماأضيف الى الصحابي.

٤ ـ المقطوع: ماأضيف الى التابعي، فمن دونه.

٥ ـ الحسن: وهو مارواه عدل قل ضبطه، متصل السند، غير معل، ولا شاذ.

٦ ـ الضعيف: هو مافقد شرطاً او اكثر من شروط القبول.

٧ ـ المتواتر: وهو مارواه جمع تمنع العادة اتفاقهم على الكذب.

٨ ـ المشهور: مارواه ثلاثة فاكثر، ولو في طبقة واحدة، ولم يصل درجة التواتر.

٩ ـ الغريب: ماانفرد به راوٍ واحد.

١٠ ـ المسند: ماتصل اسناده من راوية الى النبي.

١١ ـ المبهم: هو مافي متنه، او سنده شخص لم يسمع.

١٢ ـ المعلق: هو ماسقط منه راوٍ، او اكثر على التوال من اول سنده

١٣ ـ المرسل: هو مارفعه التابعي ولو حكما الى النبي.

١٤ ـ متفق عليه: وهو مارواه مسلم والبخاري.

ولذلك قيل: علم الحديث نضج واحترق.

ولكن مادور السياسة، والعناصر الشعوبية في الحديث؟؟

ان اهل الأديان من اليهود والنصارى والفرس والزنادقة، واهل الابتداع، والتعصب للهاشمية، والاموية، والعباسية لعبت دوراً كبيراً وكبيراً جداً في وضع الاحاديث، وتلفيق الاخبار، والدس في الآثار، تنفيذاً لاهوائهم، وتحقيقاً لاغراضهم، وتبريراً لسياستهم، وكيداً للاسلام، ولقد راجت هذه الاحاديث عند الكثيرين من المسلمين واصبحت من «المسلمات».

وضّاع الاحاديث كثيرون جداً، والاحاديث الموضوعة تجاوزت ٤٠٨,٦٨٤ أربعماية وثمانية آلاف وستماية واربعة وثمانين حديثاً قام بوضعها ودسها، واذاعتها وترويجها بين

المسلمين الوضا عون الكذبة[1]

جاء في الحلية عن ابن مهدي عن ابن لهيعة ان شيخاً من الخوارج قال: ان هذه الاحاديث دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم!! اننا كنا اذا هوينا أمراً صيّرنا له حديثا.[2]

ومن الاحاديث الموضوعة للتقرب من الحكام ماجاء عن أبي البختري[3] وقد أُهديَ الى الرشيد طيور حمام وكان الرشيد يلهو ويعجب بهذا النوع من الطير. فقال ابو البختري: روى ابو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: لاسبق الا في خفّ او حافر، او جناح فزاد لفظة جناح ليرضي الرشيد الذي يحب اللهو بالطير فاعطاه جائزة سنية ولما خرج قال الرشيد: والله لقد علمت انه كذاب، ثم امر بالحمام ان يذبح. فقيل: وماذنب الحمام قال: من اجله كذب على رسول الله.

وقيل: اشهر الوضاعين اربعة: ابن ابي يحيى في المدينة، والواقدي في بغداد، ومقاتل بن سليمان في خراسان، ومحمد بن سعيد بالشام[1]

وجاء عن البخاري انه قال: انني احفظ مئتي الف حديث غير صحيح[2]

وقال شعبة بن الحجاج: ان تسعة اعشار الحديث كذب[3]

وقال الدارقطني: ان الحديث الصحيح في الحديث الكذب كالشعرة البيضاء في الثور الاسود[4]

---

(١) الاميني في كتابه الغدير ص ٢٨٨ - ٢٨٩ - ٢٩٠

(٢) ابن خلكان ج٢ ص ١١٣

(٣) ابو البختري قاضي مدينة النبي بعد بكار بن عبد الله ثم ولي قضاء بغداد بعد ابي يوسف صاحب ابي حنيفة تفسير القرطبي ج١ ص ٢٩

(٤) الاسلام الصحيح ص ٢١٥.

(١) اضواء على السنة المحمدية ص ١٤٤ وابن خلكان ج٢ ص ١١٣

(٢) شرح صحيح البخاري للقسطلاني ج١ ص ٣٣

(٣) اضواء على السنة لابي رية.

وقفة عند الحديث والتاريخ

كثرة الاحاديث أفزعت علماء المسلمين فنهضوا للكشف عن الاحاديث الموضوعة، ومن أشهر من ألّف في هذا الموضوع ابن الجوزي، والسيوطي، والصاغاني، والملّا علي القاري[1] والأميني.

قال الإمام أحمد في مسنده: هذا كتاب جمعته وانتقيته من ٧٥٠ ألف حديث.

ويلاحظ القاريء كلمة «انتقيته». والانتقاء يعني تفضيل حديث على آخر.

وقال أبو بكر محمد بن عمر الرازي: كان أبو زرعة يحفظ ٧٠٠ ألف حديث. وكان يحفظ ١٤٠ ألف حديث في التفسير.

ونقول: اذا كان المراد بالتفسير هو شرح آيات القرآن فيكون لكل آية نيف وعشرون تفسيراً، لأن مجموع آيات الذكر الحكيم على أصح الاحصاءات هو ٦٦٠٠ آية.

ولقد اختار مالك الموطأ من ١٠٠ ألف حديث.

واختار البخاري صحيحه من ٦٠٠ ألف حديث.

وكذلك مسلم انتقى صحيحه من ٦٠٠ ألف حديث.

والاحاديث الموضوعة اما سياسية، وهي ما وضعت لتمكين السلطة. واما دينية، وهي ما وضعه أهل الاديان من يهودية ونصرانية ومجوسية، واما مذهبية، وهي ما وضعته الفرق والاحزاب الاسلامية. واما كيدية، وهي ما لفقه الزنادقة.

وقال أحمد أمين: من الغريب أننا لو اتخذنا رسماً بيانياً للحديث لكان يشكل هرماً رأسه المدبب هو عهد رسول الله، ثم يأخذ في السعة حتى نصل الى القاعدة أبعد ما نكون عن عهد الرسول، مع أن المعقول يجب أن يكون العكس لأن صحابة الرسول أعرف الناس بحديثه، ثم يبدأ الحديث يقل بموتهم.

والمتتبع للحديث يرى أن أحاديث العصر الأموي أكثر بكثير من أحاديث عصر

(١) أضواء على السنة المحمدية لمحمود ابي رية.

الخلفاء الراشدين!!.

ولقد تتبع علماء المسلمين رواة الحديث وأحصوا أحاديثهم وما ثبت منها واليك المثال.

١ ـ الخليفة الاول أبو بكر روى ١٤٢ حديثاً، وقد صحب النبي طوال سني البعثة أي ٢٣ عاماً.

٢ ـ الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أسند اليه ٥٣٧ حديثاً، ولكن لم يصح منها الا خمسون حديثاً. وقد صحب النبي بعد اسلامه ١٧ عاماً.

٣ـ الخليفة الثالث عثمان بن عفان روى ١٤٦ حديثاً أخرج مسلم منها خمسة أحاديث، والبخاري تسعة أحاديث وكان زوج ابنتي الرسول رقية، وأم كلثوم[1].

٤ـ الخليفة الرابع علي بن أبي طالب روى ٥٨٦ حديثاً كما أسندها السيوطي، وقال ابن

(١) جاء في دائرة المعارف الاسلامية الشيعية المجلد الأول، الجزء الأول ط ٢ للسيد حسن الامين ما يلي:

تزوجت خديجة بنت خويلد قبل الرسول باثنين من أشراف العرب وسادتهم وهما: عتيق بن عامر المخزومي، وأبو هالة بن زرارة التميمي، وعلمنا تزوجها الرسول كان لها ثلاث بنات، وهن زينب، ورقية، وأم كلثوم، وولد واحد من زوجها أبي هالة اسمه هند، وكان هند غلاماً لم يشب عن الطوق عندما تزوج الرسول بأمه (راجع جمهرة الانساب ١٣٣ والاستيعاب ٤ ـ ١٥٤٥).

أما زينب فقد تزوجها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس وهو ابن خالتها وولدت له علياً وامامة، ومات علي صغيراً، وعندما بعث محمد أسلمت زينب حين أسلمت أمها خديجة، وبايعت محمداً هي واختاها.

وأما رقية فقد تزوجها عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب قبل الاسلام، ولما بعث محمد أمر أبو لهب ابنه بطلاقها فتزوجها عثمان بن عفان، وكان ذلك قبل الهجرة الاولى الى الحبشة لان عثمان عندما هاجر كانت رقية معه.

وأما أم كلثوم فقد تزوجها عقبة بن أبي لهب بن عبد المطلب قبل الاسلام وأسلمت حين أسلمت أمها، وفارقت زوجها في الوقت الذي فارقت فيه رقية زوجها أخاه. ثم تزوجها عثمان بعد وفاة أختها. وهكذا يظهر أن نسبة هؤلاء البنات لمحمد هو مخالف للواقع، لكنهن ربائب محمد، وهذا يتعارض مع كثير من المصادر الاسلامية، ولكن اذا ذكرنا أن محمد تزوج خديجة وعمرها ٤٠ عاماً، وانها ولدت له ثمانية أولاد بعد هذا السن أدركنا عدم تحقيق المؤرخين في هذه الظاهرة المخالفة لطبيعة انجاب المرأة ـ الا نادراً ـ بعد الاربعين، فكيف تلد بعد الخمسين؟؟.

(٢) ابن حزم ومسند بقي بن مخلد

حزم لم يصح منها الا خمسون حديثاً، ولم يرو مسلم والبخاري منها الا عشرين حديثاً[1] وقد صحب النبي منذ ولادته، وعاش في كنفه، لايفارقه في سفر، ولا حضر، وشهد معه كل المشاهد باستثناء تبوك حيث خلفه الرسول على المدينة، ومن فيها، وهو زوج ابنته فاطمة.

٤ ـ الزبير بن العوام روى ١٠ أحاديث، روى البخاري ٩ أحاديث، ومسلم واحداً، وهو ابن عمة الرسول وحواريه، ومن المبشرين بالجنة.

٥ ـ عبد الرحمن بن عوف روى تسعة أحاديث أوردها البخاري.

٦ ـ أبي بن كعب، روى نيفاً وسبعين حديثاً في الصحاح والسنن.

٧ ـ زيد بن ثابت روى ٩٢ حديثاً، اتفق الشيخان على خمسة منها، وانفرد البخاري بثمانية.

٨ ـ سلمان الفارسي جاء له ٦٠ حديثاً في مسند بقيّ بن مخلد، أخرج البخاري له ٤ أحاديث، وفيه يقول الرسول: سلمان منا أهل البيت.

٩ ـ طلحة بن عبد الله روى ٣٨ حديثاً، كما في مسند بقيّ بن مخلد.

١٠ ـ معاذ بن جبل الانصاري الخزرجي البدري روى ٦ أحاديث أوردها البخاري.

١١ ـ عائشة زوج النبي روت ٢٢١٠ أحاديث.

١٢ ـ عبد الله بن عباس روى ١٦٧٠ حديثاً.

١٣ ـ جابر بن عبد الله الانصاري روى ١٥٤٠ حديثاً.

١٤ ـ أبو سعيد مالك الخدري روى ١١٧٠ حديثاً.

١٥ ـ عبد الله بن عمر روى ٢١٣٠ حديثاً.

١٦ ـ أنس بن مالك روى ٢٢٧٦ حديثاً.

١٧ ـ أبو هريرة روى ٥٣٧٤ حديثاً[2]. !

ويظهر من مطالعة هذه الارقام أن أبا هريرة يأتي في طليعة رواة الاحاديث حتى لقد جاء له من الأحاديث أضعاف ما جاء للخلفاء الراشدين وكبار الصحابة مجتمعين بما فيهم عائشة زوج الرسول. فمن هو أبو هريرة؟؟.

(٢) يقول الدكتور مصطفى الشكعة: ان البخاري كان يجلس بين يدي عمران بن حطان شاعر الخوارج ينقل عنه الحديث، ولذلك قلت روايته عن علي بن أبي طالب. ولكن بعض المصادر تشير الى أن عمران بن حطان توفي سنة ٨٤ هـ بينما تذكر أن البخاري ولد ١٩٤ وتوفي سنة ٢٥٦ هـ.

هو صحابي أصله من قبيلة دوس اليمنية هاجر الى الحجاز وأسلم عام ٧ للهجرة يوم فتح خيبر، وصحب النبي عاماً وبعض العام على أشهر الروايات، وكان يعيش خلال هذه المدة في الصّفة مع الفقراء الذين يطعمهم الناس أو يستطعمون الناس، ثم الحقه النبي ببعث ابن الحضرمي الى البحرين عام ٨ للهجرة، ومع هذه الصحبة القصيرة فقد أحصى المحدثون له هذا الرقم الضخم من الاحاديث!!!

منها في صحيح البخاري وحده ٤٤٦ حديثاً.

قسموا الصحابة من حيث فضلهم الى اثنتي عشرة درجة وهي ـ ١ ـ قدماء السابقين الذين أسلموا بمكة ـ ٢ ـ أصحاب دار الندوة ـ ٣ ـ مهاجرة الحبشة ـ ٤ ـ أصحاب العقبة الأولى ـ ٥ ـ أصحاب العقبة الثانية ـ ٦ ـ أول المهاجرين الذين وصلوا الى النبي بقباء قبل أن يدخل المدينة ـ ٧ ـ أهل بدر ـ ٨ ـ المهاجرون بين بدر والحديبية ـ ٩ ـ أهل بيعة الرضوان ـ ١٠ ـ من هاجر بين الحديبية وفتح مكة ـ ١١ ـ مسلمة الفتح ـ ١٢ ـ صبيان وأطفال رأوا رسول الله يوم الفتح ويوم حجة الوداع[1].

وقال البخاري: الصحابي من صحب النبي أو رآه من المسلمين.

ويقول علي بن المديني: الصحابي من صحب النبي أو رآه ساعة من نهار.

والاجماع على عدالتهم. والبعض لايرى هذه العدالة مطلقة، وخاصة بعد الفتنة ـ أي مقتل عثمان ـ ومن المعروف أن الوليد بن عقبة صحب النبي ورآه ولكن نزلت به الآية (ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا.. الى آخر الآية.

ومن الصحابة من شرب الخمر كقدامة بن مظعون، ومنهم من ارتد كعيينه بن حصن، وعبد الله بن سرح وقال العجلي في عمر بن سعد بن أبي وقاص انه تابعي ثقة وهو الذي باشر قتل الحسين، ومنهم من بايع ونكث كطلحة والزبير، وقال أيضاً في عمران بن حطان انه ثقة[2] وهو الذي قال ماقال في الخليفة الراشد علي بن أبي طالب.

---

(١) الروض الباسم للوزير اليماني ص ٦٩ ـ ٧٠ ج ١.

(٢) السنة المحمدية ص ٣٥٠.

وفي القران وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون ، ولايمكن القول أن هؤلاء لم يروا النبي ويصحبوه.

وفي سورة التوبة (وممن حولكم من الاعراب منافقون، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم.)

وفي القرآن سورة خاصة بالمنافقين وكلهم رأى الرسول فكيف نحكم بصحبتهم؟ ويسأل: بمن نزلت هذه الآية واذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين (الجمعة).

ولقد تشكك كثير من العلماء في بعض الاحاديث المنسوبة روايتها الى ابي هريرة وخاصة ماله علاقة بالاسرائيليات وكعب الأحبار.

ولقد امتدح كعب الاحبار أبا هريرة بقوله: ما رأيت أحداً لم يقرأ التوراة أعلم بما فيها من أبي هريرة[1].

والسؤال الذي يطرح نفسه من أين جاء علم أبي هريرة بالتوارة. وهو الأمي الذي لا يعرف العربية، فكيف العبرانية؟؟!! لقد جاء ذلك من كعب الاحبار التي تشير الروايات أنه تتلمذ عليه.

لقد نهى الخليفة القوي الصارم عمر بن الخطاب أبا هريرة عن الرواية، وعلاه بالدرة حتى أدماه، وهدده بالنفي الى أرض دوس قائلاً له: أحر بك أن تكذب على رسول الله.

وقد قال الفقيه المحدث السيد رشيد رضا: لو طال عُمُر عُمَر حتى مات أبو هريرة لما وصلت الينا تلك الاحاديث الكثيرة مجلة المنار ج ١٠ ص ٨٥١.

وقال عن أحاديثه المشكلة: لا يتوقف على شيء منها أصل من أصول الدين مجلة المنار ج ١٩ ص ١٠٠.

وشيخ الفقه أو حنيفة وأصحابه، وهم شطر كبير من الامة الاسلامية لايثقون بأبي هريرة، ولقد قال أبو حنيفة: انني أقلد جميع الصحابة، ولا أستجيز خلافهم برأي الا ثلاثة

(١) الذهبي في طبقات الحفاظ.

نفر منهم وهم : أنس بن مالك[1] وأبو هريرة، وسمرة بن جندب [2].

وقال الكاتب الاسلامي الكبير مصطفى صادق الرافعي : ان أبا هريرة أول راوٍ اتهم في الاسلام[3] وأورد هذا ابن قتيبة ونحن اذا ألقينا نظرة فاحصة على بعض الاحاديث المنسوبة الى أبي هريرة وجدنا :

١ ـ انها مراسيل، أحادية، وأحاديث الآحاد ظنية، كما قرر علماء الحديث. ولا يوخذ بها في العقائد.

٢ ـ في الكثير منها صفة التهويل[4] والمبالغة والاستحالة[5].

٣ ـ بعضها يختلف مع القرآن[6].

٤ ـ بعضها مأخوذ من التوارة[7].

٥ ـ بعض هذه الاحاديث لها صفة سياسية[8].

٦ ـ يظهر التناقض في بعضها[9].

٧ ـ يظهر في بعضها عدم التحفظ[10].

ومن الاحاديث التي تشكك بعض العلماء فيها نورد هذه الامثلة :

١ ـ روى البخاري ومسلم والطبراني وأحمد عن أبي هريرة : أن ملك الموت جاء الى موسى وقال : أجب ربك، فلطمه موسى ففقأ عينه!! فرجع الملك الى الله.

وقال : أرسلتني الى عبد لايريد الموت ففقأ عيني، فرد الله عليه عينه، وقال : ارجع

(١) خولط في عقله اخيراً.

(٢) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٤

(٣) تاريخ اداب العرب ج ١ ص ٢٧٨ لمصطفى صادق الرافعي.

(٤) كحديث موسى والملاك.

(٥) كحديث هروب الحجر بثوب موسى وعبور جيش ابن الحضرمي البحر بدون أن يبتل له قدم.

(٦) كحديث خلق السماوات والارض.

(٧) كحديث الملاك مع موسى، وحديث خلق السموات والارض.

(٨) كحديث لكل نبي حرم وحديث مدح معاوية وموت أبي طالب كافراً.

(٩) كحديث أنا حرب لمن حاربكم وحديث لكل نبي حرم.

(١٠) كرده على عائشة زوج النبي.

الى عبدي موسى وقل له: أن يضع يده على جلد ثور، وله بكل شعرة تغطيها كفه عمر سنة.

ويظهر الطابع الاسرائيلي على هذاالحديث كما تظهر المبالغة، فاليد تغطي آلاف الشعرات من جلد الثور وعمر موسى معروف.

وأورد الثعالبي هذا الحديث في كتابه: المضاف والمنسوب وقال: هذا من أساطير الأولين، وختم قوله: اني بريء من هذه الحكاية(١).

٢ ـ روى الشيخان عن أبي هريرة قال سليمان بن داوود: لأطوفن الليلة بمئة امرأة تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقال له الملاك: قل ان شاء الله، فلم يقلها، وطاف بهن فلم تلد الا امرأة واحدة نصف انسان.

قيل: أن محمداً أوتي قوة أربعين رجلاً في الجماع(٢) ولكن سليمان تفوق عليه فقد أتى مئة امرأة في ليلة واحدة على ذمة واضع الحديث.

٣ ـ روى مسلم والنسائي وأحمد عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله بيدي وقال: خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الاحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الاربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد الظهر يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة بين العصر الى الليل.

وفي القرآن: خلق السماوات والارض في ستة أيام.

وروى الائمة ومنهم البخاري، وابن كثير: أن أبا هريرة تلقى هذا الحديث عن كعب الاحبار وهو مأخوذ من التوارة، وهكذا ورد عن البيهقي، وابن معين، وابن تيمية.

٤ ـ ومن الاحاديث المنسوبة لابي هريرة وعليها الطابع الاسرائيلي حديث هروب الحجر بثوب موسى(٣).

والى القراء بعض الاحاديث التي تحمل الطابع السياسي:

---

(١) المضاف والمنسوب ص ٤٠ ـ ٤١.

(٢) جاء في البخاري عن أنس بن مالك: أن النبي كان يطوف على نسائه في الليلة الواحدة، وعددهن تسع نسوة، وفي بعض الروايات احدى عشرة، وجاء في الجامع للسيوطي: انه أوتي قوة أربعين رجلاً في الجماع لان جبريل جاءه بقدر يقال له الكفيت فأكل منه. (الجامع للسيوطي وأضواء على السنة المحمدية ص ٢١٦).

(٣) راجع البخاري.

دخل أبو هريرة جامع الكوفة عام الجماعة، فاجتمع اليه الناس فقال: قال رسول الله: ان لكل نبيٍّ حرماً، وحرمي ما بين روضتي ومنبري، وقيل من عير الى ثور، فمن أحدث فيه فعليه لعنة الله والملائكة، والناس أجمعين، وأشهد الله أني رأيت علياً يحدث هناك(٤) فلما سمع معاوية بهذا الحديث ولاّه المدينة. ولكن روى سفيان الثوري عن عبد الرحمن بن القاسم عن عمر بن عبد الغفار أن أبا هريرة لما قدم الكوفة مع معاوية كان يجلس بالعشيات في باب كنده ويجتمع الناس اليه فجاءه شاب من الكوفة فقال: يا أبا هريرة أنشدك الله، أسمعت رسول الله يقول لعلي بن أبي طالب: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه فقال أبو هريرة: نعم فقال الشاب: أشهد بالله أنك واليت عدوه، وعاديت وليه. ثم تركه(٥).

ولأبي هريرة أحاديث كثيرة في معاوية، ومنها: انه نظر الى عائشة بنت طلحة وكانت من أجمل النساء فقال لها: لم أر أجمل من وجهك الا وجه معاوية على منبر رسول الله(٦).

كما يروي أحاديث في أفضلية علي عندما يقل عنه رفد معاوية، فقد روى قائلاً: رأيت رسول الله وقد نظر الى علي وفاطمة والحسن والحسين فقال: أنا حرب لمن حاربكم، وسلم لمن سالمكم(٧).

ونقول: كيف يتفق هذا الحديث مع حديث لكل نبي حرم الذي تقدم ايراده.

٥ ـ روى أبو هريرة: أن رسول الله قال لعمه أبي طالب: قل أشهد أن لا اله الا الله أشهد لك بها يوم القيامة، فقال أبو طالب: لو لم تعيرني بها قريش لأقررت بها عينيك، فأنزل الله انك لاتهدي من أحببت ان الله يهدي من يشاء.

وأورد المحدثون هذا الحديث عن أبي هريرة بعبارات مختلفة، وفي أوقات وأماكن متعددة ومنها تردد أبي طالب عن الشهادة عند احتضاره وقد عرضها عليه الرسول. ومات على الكفر!!!.

---

(٤) علي نبراس ومتراس لسليمان الكتاني.

(٥) المصدر السابق ص ١١٦.

(٦) العقد الفريد ج ٦ ص ١٠٩.

(٧) أبو هريرة لمحمود أبو رية.

والمعروف تاريخياً أن أبا طالب مات سنة ١٠ للبعثة ـ بعثة الرسول في مكة ـ وكانت عام ١٣ قبل الهجرة الى المدينة، وأن أبا هريرة أسلم عام ٧ للهجرة يوم فتح خيبر، وبين موت أبي طالب، واسلام أبي هريرة عشر سنين!!.

أبو طالب كافل الرسول، والحادب عليه، والمدافع عنه، والمنافح عن دعوته، والداعي الى رسالته وتصديقه، والشاد من عضده، والمغاضب قريشاً كلها. والمهاجر الى شعاب مكة بماله وأولاده، ونسائه وعشيرته، خوفاً على محمد من قريش وشرورها، قريش المتحالفة ضد بني هاشم، وضد دعوة محمد، ورسالة محمد، والمجمعة على منابذتهم ومقاطعتهم وايذائهم كرهاً بمحمد ودينه.

أبو طالب هذا يموت كافراً على ذمة رواة هذا الحديث!! هذا الحديث وأمثاله الذي وضع لارضاء السلطان والزلفى اليه.

وهنا يأتي دور شاعرنا المكزون ليقول رأيه بهذا الحديث.

أبو طالب كفل المصطفى ... وجاهد عنه، وجافى المجافي
وأنفق في نصره ماله ... وصافاه من وده كل صاف
وأظهر في الشعر تصديقه ... وعن دينه لم يكن ذا انحراف
وذا كافر؟؟ وابن هند به ... غدا مؤمناً؟؟ ذا عمىً غير خاف[1]

ومن راجع سيرة ابن هشام يرى كم أرسل أبو طالب من القصائد في امتداح محمد والايمان بدعوته والتحدي لقريش بالعتاب حيناً والمغاضبة أحياناً. وخاصة أيام المقاطعة.

ويظهر أن حديث أبي هريرة هذا وضع لرد اعتبار أبي سفيان بعد أن أصبح ابنه خليفة المسلمين وأبو سفيان شيخ الأمويين. ولايتم رد هذا الاعتبار الا بالنيل من شيخ الهاشميين.

ويأتي المكزون بحجة أخرى في الدفاع عن أبي طالب، والتعريض برواة هذا الحديث:

(١) ديوان المكزون تحقيق الدكتور أسعد علي ومصورتي المكتبة الظاهرية، والاسكوريال.

رويتم: ان نبي الهدى قال: اصطفى الله بني هاشم
وبين الاخيار، واختارني من خير بيت جاء في العالم
وبعد ذا دنتم بتكفير هم لتظهروا سب أبي القاسم
وذاك في ادخال آبائه في لعنة الكافر والظالم[1]

ومن المعلوم أن كل مسلم يجمع على أن الرسول قال: مازلت أتنقل في الارحام الطاهرة، والأصلاب الزكية حتى عبد الله وآمنة. وقوله أيضاً (ص) جاء عن سفيان الثوري يرفعه الى النبي قال: ان الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه. وجعلهم أفراقاً فجعلني في خير فرقة. وجعلهم قبائل فجعلني في خير قبيلة. وجعلهم بيوتاً فجعلني في خير بيت فأنا خيركم بيتاً وخيركم نسباً.

وقال أيضاً (ص): كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة الا سببي ونسبي.

فهل في أبي طالب خير كما يقول الرسول أم أنه كافر كما يقول رواة الحديث؟؟.

وهل أبو طالب من نسب الرسول أم أنه لايمت اليه بصلة النسب؟؟.

سؤال موجه لأولي الابصار!!.

وهل بين الكفرة ـ وأبو طالب منهم على ذمة الحديث ـ أرحام طاهرة، وأصلاب زكية؟؟؟.

ويذكر التاريخ موقفاً لابي هريرة مع عائشة زوج النبي تجاوز فيه حده عندما قالت له: لقد أكثرت يا أبا هريرة عن رسول اله فيما لم أسمعه، فأجابها غامزاً متهكماً غير متحرج: لم تشغلني المرآة، والمكحلة، والمدهن، فأجابته غاضبة: بل أنت الذي شغلك بطنك ونهمك، وركضك وراء الناس تستطعمهم فيهربون منك، وتقع مغشياً عليك أمام حجرتي فيحسبك الناس مجنوناً فيطأون عنقك.

لم يجرؤ أبو هريرة على التعريض بزوج النبي، لولا حماية الدولة الاموية له، واعتباره محدثها الاول. بعد أن أصبحوا خلفاء ملوكاً في الأرض بيدهم الامر والنهي، والرفع

(١) ديوان المكزون ـ مخطوطة الظاهرية والاسكوريال وتحقيق الدكتور لسعد علي

والخفض.

ولم يقتصر أصحاب الاغراض من العاملين على الكيد للاسلام وتفريق وحدة المسلمين على وضع الأحاديث لزعزعة أركان الشريعة الغراء السمحاء بل تجاوزوا ذلك الى خلق الاشخاص وأعطوهم أدواراً في الفتن كشخصيه عبد الله بن سبا التي ابتدعها سيف بن عمر التميمي المتوفي سنة ١٧٠ هـ[١] وأوردها الطبري وتلقفها الذين يسعون ويعملون لتفريق المسلمين ولتكون مطعناً في عقيدة قسم كبير من المسلمين وألصاق صفة «الغلو» بهم.

وقد انكر هذه الشخصية واستنكرها العلماء وعلى رأسهم من المعاصرين البحاثة الكبير الدكتور طه حسين في كتابه «الفتنة الكبرى» فقال: أقل ما يدل عليه أعراض المؤرخين عن السبئية وعن ابن السوداء في حرب صفين أن أمر السبئية وصاحبهم ابن السوداء انما كان متكلفاً منحولاً وقد اخترع حين كان الجدال بين الشيعة وغيرهم من الفرق الاسلامية، أراد خصوم الشيعة أن يدخلوا في أصول هذا المذهب عنصراً يهودياً امعاناً في الكيد لهم والنيل منهم.

وألف العالم العراقي الكبير مرتضى العسكري كتاباً بعنوان« عبد الله بن سبا» أثبت فيه بأدلة مقنعة أن هذا الاسم لا حقيقة له. وورد هذا النفي لدى المؤرخ جعفر الخليلي[٢].

لو أمد الله بعمر الخليفة عمر لما وجد كعب الاحبار[٢] ولا عبد الله بن سلام[٣]، ولا وهب بن منبه[٤] واضرابهم سبيلاً الى دس هذه الاحاديث من الاسرائيليات، ونشرها بين المسلمين على لسان بعض الرواة، ولكان لدرته ـ درة الخليفة عمر ـ نصيب من جلدهم كما كان لها نصيب من جلد أبي هريرة، ولألحق الجميع بأرض دوس، أو أرض القردة كما جاء في احدى الروايات.

---

(١) طعن أئمة السنة جميعاً في رواية سيف بن عمر هذا وقال فيه الحاكم: اتهم بالزندقة وهو في الرواية ساقط.

(٢) مقدمة كتاب علي نبراس ومتراس لسليمان الكتاني.

(٣) عبد الله بن سلام ت ٤٣ صحابي يهودي الاصل اعتنق الاسلام ابان هجرة الرسول الى المدينة.

(٤) وهب بن منبة توفي ١١٤ مؤرخ من التابعين اشتهر بمعرفة أخبار الاقدمين، والانبياء، فارسي الاصل ولد ومات بصنعاء اليمن، له «التيجان في ملوك اليمن».

(١) ديوان المكزون. (٢) كعب الاحبار أبو اسحق كعب بن مانع ت ٣٢ هـ من أقدم رواة الحديث، يهودي يمني، قدم المدينة في ايام عمر ثم خرج الى الشام فاصطفاه معاوية وجعله من مستشاريه توفي في حمص.

ومن أراد أن يعرف موقف الصحابة والتابعين من أبي هريرة فليرجع الى المصادر التالية:

١ ـ جامع بيان العلم لحافظ المغرب ابن عبد البر.
٢ ـ سِيَر أعلام النبلاء ج ٢ ص ٣٤٨ للذهبي.
٣ ـ البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١٠٩.
٤ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.
٥ ـ شيخ المضيرة لمحمود أبو رية. وهذا من المتحاملين عليه.
٦ ـ أبو هريرة لعبد الحسين شرف الدين...
٧ ـ كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ١٠ ـ ١١.

أقوال العلماء في الرواة الكذبة:

قال ابن حنبل، والصيرفي، والحميدي: لاتقبل رواية من كذب في أحاديث رسول الله، وان تاب.

وقال السمعاني. من كذب في حديث واحد، وجب اسقاط ما تقدم من أحاديثه.

وقال ابن حجر: اتفق العلماء على تغليظ الكذب على رسول الله، حتى أن الجويني حكم بتفكيره.

وقال رسول الله (ص): من كذب عليَّ فليتبوّأ مقعده من النار.

اجتهادات وقواعد

زعـمـوا أن كل من أعـمـل الـرأ ... يَ، وأخـطأ بـه ينـال الـثـوابـا
وعـلى ذا فكـل مجتـهـد أخـطا ... بعـين الخـطا أصـاب الـصـوابـا (1)

(١) ديوان المكزون

هذان البيتان يتضمنان الاشارة الى حديث أورده أبو هريرة عن عمرو بن العاص قال: جاء خصمان يختصمان لرسول الله (ص) فقال: يا عمرو اقض بينهما فقلت: أنت أولى بذلك مني يا رسول الله، فقال: وان كان، قلت فإذا قضيت بينهما فما لي؟؟ قال: ان أنت قضيت بينهما فلك عشر حسنات، وان اجتهدت فأخطأت فلك حسنة واحدة.

وأورد هذا الحديث عن أحمد والستة سوى الترمذي.

وجاء هذا الحديث بصيغة «اذا اجتهد المجتهد فأصاب فله أجران، واذا أخطأ فله أجر واحد، والمكزون لايرى هذا الرأي لأنه لا يجيز إثابة المخطيء.

ويلاحظ الفرق والاختلاف بين صيغتي الحديث، ففي رواية أبي هريرة عن عمرو بن العاص أن للمخطيء حسنة واحدة من عشر حسنات للمصيب. بينما في الصيغة الاخرى له نصف الثواب.

ولقد نقل ابن عبد البر ٢ / ١٠٩ عن المزني صاحب الشافعي أنه قال: يقال لمن جوّز الاختلاف، وزعم أن العالَمين - بفتح اللام وسكون الياء - اذا اجتهدا في الحادثة وقال أحدهما: حلال، وقال الآخر: حرام فقد أدى كل منهما جهده، وهو في اجتهاده مصيب، يقال لهذا المجوّز: أبأصلٍ قلت هذا؟؟ أم بقياس؟؟ فان قال: بأصلٍ، قيل له: كيف يكون أصلاً والكتاب أصل ينفي الخلاف؟؟.

وان قال: بقياس، قيل كيف يكون والأصول تنفي الخلاف، والنظر يأبى أن يكون الشيء وضده صواباً.

إثبات ضدين معاً في حال أقبح ما يأتي من المحال

ولقد تساءل الكثيرون عن المباديء والقواعد التالية المعتمدة لدى الكثيرين.

١ - من اجتهد وأصاب فله أجران، ومن اجتهد فاخطأ فله أجر واحد وتقدم التعليق عليه.

٢ - من قتل متأولاً فلا قود عليه(١).

(١) القود بفتح القاف والواو القصاص، وقتل القاتل بالقتيل.

٣ ـ اختلاف الائمة رحمة بالأمة.

٤ ـ جواز الصلاة وراء البر والفاجر.

٥ ـ من استخلف ثلاثة أيام لن يدخل النار.

٦ ـ من استخلف غفر الله له من ذنبه ما تقدم، وما تأخر.

٧ ـ الخلفاء لا حساب عليهم، ولا عذاب.

٨ ـ من خرج يدعو لنفسه أو الى غيره وعلى الناس إمام فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فاقتلوه[1].

ولكن هل ينطبق هذا على الامام الجائر؟؟

هذا الخليفة الاول أبو بكر يقول: أطيعوني ما أطعت الله فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم.

ونحن إذا وقفنا عند المقررة الثانية «من قتل متأولاً فلا قود عليه» فعلينا أن نحكم بتبرئة أبي لؤلؤة قاتل الخليفة الثاني، وقتلة الخليفتين الثالث والرابع، وقاتل الحمزة، وعمار بن ياسر، والحسين بن علي واضرابهم فكلهم قتلوا متأولين ولم يجز عليهم القصاص ولا القود. وربما لم يفتهم الأجر!!.

وفي الفقه المحلي لابن حزم الاندلسي أن عبد الرحمن بن ملجم مأجور في قتله علي بن أبي طالب أجراً واحداً لانه قتله متأولاً.

وعلى من يأخذ بهذا القول، ويؤمن بصحة هذه القاعدة أن يترضى عن أبي لؤلؤة وعن وحشي عبد هند زوجة أبي سفيان قاتل الحمزة وعن ابن الغادية قاتل عمار بن ياسر، وعن عبيد الله بن زياد والشمر بن مرجانة قاتلي الحسين وآل بيته، وسباة نساء آل محمد، وعن عبد الرحمن بن ملجم وقتلة عثمان لانهم جميعهم أقدموا على القتل متأولين. ولم يجترحوا اثماً ولم يتجاوزوا حد الشريعة، والكتاب على رأي هؤلاء الفقهاء.

أما القاعدة «اختلاف الائمة رحمة بالامة» فاذا كان المراد بها، والقصد منها «التوسعة»

(١) أسنده الديلمي الى أبي بكر وأورده السيوطي في الاحاديث المنسوبة الى أبي بكر ـ تاريخ الخلفاء واذا أخذنا بهذا الحديث. فكم ستشمل هذه اللعنة من الناس الذين خرجوا على الامام العادل؟ وهذا الحديث وضع لحماية الخلفاء الظلمة.

على أفراد الامة، ورفع الضيق والحرج الشرعيين عن كاهلها، فلماذا لم يبق الائمة على كثرتهم؟؟ ولماذا استبعدت مذاهبهم؟ ولم يشركوهم في «التوسعة» ورفع الحرج عن الامة؟؟ وقد عرفنا منهم الاوزاعي وحماد بن زيد، وداوود الظاهري، والطبري، وسفيان الثوري، وابن المبارك، وأبا يعلى، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وسفيان بن عيينه، والليث بن سعد، وأبو ثور، وابن حزم، والحسن البصري، واسحاق بن راهويه وغيرهم.

وهناك مذهبان آخران هما مذهب زيد بن علي، ومذهب جعفر الصادق بن محمد الباقر.

لوطبقت هذه القاعدة على الجميع لنعمت الامة برحمة أوسع، ويسر أشمل، وتشريع أكمل، ولكنها اقتصرت على أربعة فقط!!.

فهل تم ذلك بفعل السياسة، أم بفعل الدين؟؟.

اذا رجعنا الى المبادىء ٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٧ أدركنا غلبة السياسة على الدين!!

ثلاثة أيام استخلاف تقي الخليفة من النار.

ويغفر الله له من ذنوبه ماتقدم، وتأخر.

ولايجري عليه حساب، ولاينالاه عقاب، ولا عذاب.

لقد انقذ الاستخلاف يزيد والوليد، وبرر أعمالهما، وأعمال غيرهما من الخلفاء الخلعاء!! ولكن ما حظّ ابن المعتز الذي لم يستخلف الا يوم وليلة ولم يتم الايام الثلاثة التي تقي من النار، وتغفر الذنوب، وتنجي من هول الحساب، وشر العذاب!!

هذه الاجتهادات، وكثير من الاحاديث، التي وضعت بفعل الغرض والغاية، وبفعل السلطة والسياسة، أو بدافع الزلفى للسلطة والسياسة، وبتأثير الوضاعين من الزنادقة والشعوبيين، هي التي قسمت الامة الواحدة الى فئات، وأحزاب، ومذاهب وشيع، ونحل، تتلاحى، وتتنابذ، ويكفر بعضها بعضاً، ويقتل بعضها بعضاً.

يحدثنا التاريخ أنه في عام ٢٤٧ اجتمع علماء بغداد بأمر من الخليفة العباسي المنتصر بالله محمد بن جعفر المتوكل، وأقروا «الاجماع» على المذاهب الاربعة المعروفة فقط ونبذ ما سواها، وأصدر الخليفة المذكور أمراً بذلك وعممه على كل أرجاء الخلافة، لقد تم ذلك بأمر السلطة والسلطان وخضوع وخنوع، وذلة وامتهان العلماء. خليفة يتلاعب بالامة،

ويفرض على علمائها ما يشاء من المذاهب، ويستبعد ما يشاء منها، ثم يغلق باب الاحتهاد لئلا يقوم من ينكر عليه صنيعه، كما يلاحق من يشاء باسم الخروج على «اجماع الامة».

وكلنا يعلم ما جره اغلاق باب الاجتهاد، وتعطيل عمل العقل على الاسلام والمسلمين، وما الحقه بالامة من التخلف والجمود، والتوقف عن تطوير الاحكام، والحياة العامة، وكيف ألجأها الى الاستعانة بأنظمة وقوانين الامم المتطورة. كلنا يعلم هذا... ويعلم أن هذا الخليفة «المشرع» هو قاتل أبيه[1].

سأل أبو زرعة شيخه البلقيني، قائلاً: ما تقصير الشيخ تقي الدين السبكي عن الاجتهاد وقد استكمل آلته؟ فسكت البلقيني، فقال أبو زرعة فما عندي ان الامتناع عن ذلك الا للوظائف التي قدرت للفقهاء على المذاهب الاربعة، وان من خرج عن ذلك لم ينله شيء، وحرم ولاية القضاء، وامتنع الناس عن افتائه، ونسبت اليه البدعة، فابتسم البلقيني، ووافقه على ذلك.

ينظر الشاعر الفقيه المكزون الى هذه الاجتهادات، وما تركته من الاختلاف، هذه الاجتهادات الخاصة التي تفرق ولا تجمع، وتضرّ بالامة ولاتنفع فيحتج على «الاجماع» الذي يفرق، وعلى «الجماعة» الذين لايجتمعون، واليك قوله:

قلت: عندي وعندكم صح عمّن ... أوجب الله في الكتاب اتّباعَهْ
قول من فارق «الجماعة» منا ... أنه قد أبان عنا انخلاعه
وعلى ذا، فكل منفرد منا ... بقول، مفارق للجماعة

انها قاعدة منطقية عامة: كل منفرد بقول، أو رأي، أو حكم، فهو مفارق لمخالفيه في الرأي، والقول، والحكم.

(١) والى هذا أشار الشاعر البحتري في رثائه للخليفة جعفر المتوكل وقد شهد مقتله فيقول:

أدافع عنه باليدين ولم يكن ... ليثني الاعادي، أعزل الليل، حاسرهْ
وهل أرتجي أن يطلب الدم واتر ... يدَ الدهر، والموتور بالدم واتره
أكان ولي العهد أضمر غدرة ... فمن عجب أن ولي العهد غادره
فلا ملّ الباقي تراث الذي مضى ... ولا حملت ذاك الدعاء منابره
ولا وأل المشكوك فيه ولانجا ... من السيف ناضي السيف غدرا وشاهره

الجماعة

يقول المكزون الشاعر:

واغـدُ مؤتمـاً بصـديـق بني ... تيـم، وابـغ الحجـر من حجـر عَدِيُ
وبـعـثـمان الى وجـهـي اتّجـه ... يتـسـنـى لك عـن وجـه الـسّـني
وعـلى باب جنـات الهـدى ... فأتِ منـه تجنِ داني جنـتي
وعـلى جمعـهـمُ في جامـعـي ... كلّما صَلّيـت لي صل، وحـي
ومـتـى فرقـتـهـم فارقـتـهـم ... بالـتـعـامـي مائـلاً عن ملتي[1]

نسوق هذه الابيات بين يدي هذا البحث رداً وتكذيباً على مروجي الفتن ومختلقي التهم الذين شوهوا تاريخ الاسلام، ومزقوا وحدة المسلمين، وأجمعوا كذباً وبهتاناً، وزوراً وضـلالاً، وكيداً وتضليلاً، وحقـداً وشعوبية على القول: بأن هناك من ينال من الخلفاء الـراشـدين، ويجنـح الى الغلوّ، ويعـدل عن مستقيم الكتـاب والسنة[2]، تلك النفثات المسمومة التي قذفت بها تلك الاقلام الاجيرة المأجورة ولكنها لم تلق ـ في العصر الحاضر ـ من مثقفي الامة ومفكريها الا الازدراء، والمقت والاهمال. لانها مبعثها أغراض سياسية، ونزعات شعوبية، ترمي الى ضرب وحدة المسلمين باسم التاريخ والدين.

لقد عانى الشاعر المكزون من هذه الشعوبية الحاقدة ما عانى، وجاهد في مكافحتها

(١) ديوان المكزون نشر وتحقيق الدكتور أسعد علي ومصورة الاسكوريال، ومخطوطة الظاهرية.

(٢) من المؤرخين القدامى: أصحاب الفتاوى المعروفة، ومن المتأخرين: عبد الرحمن بدوي، وأبو موسى الحريري، وعبد الحسين مهدي العسكري، والحسيني عبد الله.. وغيرهم.

ما جاهد، ودافع عن الحقيقة ما استطاع أن يدافع، ونافح عن الاسلام ما نافح، وقارع هؤلاء الشعوبيين بالحجة والمنطق، والعقل والنقل.

تعريف الجماعة!!

الجماعة لغة: الفئة من الناس، واصطلاحاً صفة أطلقتها بعض فئات من المسلمين على نفسها تمييزاً لها عن غيرها.

وفرق الاسلام كثيرة كما جاء في حديث: ستفترق أمتي الى ثلاث وسبعين فرقة الناجية منها واحدة، والباقيات هلكى، هذا الحديث ورد بصيغ متعددة في التعبير لكنها متفقة في التعدد والافتراق.

روى أبو هريرة أن النبيّ قال: افترق اليهود الى احدى وسبعين فرقة، والنصارى الى اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي الى ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منهن واحدة والباقيات في النار.

هذا الحديث أورده كثيرون، منهم أنس بن مالك، وأبو الدرداء، وجابر، وأبو سعيد الخدري. وأبي بن كعب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو أمامة، ووائلة بن الاسفع. هذا الحديث على تعدد رواته، ومختلف أسانيده تشكك البعض في صحته للأسباب التالية:

١ ـ هذه الأرقام المتتالية ٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٣ بهذا التسلسل تدل على الافتعال.

٢ ـ معارضة هذا الحديث لما جاء في القرآن الكريم، ونفي علم الغيب عن الرسول، قل: لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً الا ما شاء الله، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير[١]. قل: لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب[٢].

وقد ذكر المحققون أموراً كلية يعرف بها الحديث الموضوع ومنها أن يشتمل على تواريخ الايام المستقبلية. ؛ ؛ ؛ ؛ ، (٣).

(١) سورة الاعراف.
(٢) سورة الانعام.
(٣) أضواء على السنة المحمدية ص ١٤٠.

فكيف تنبأ الرسول بما يخالف القرآن، وحدد انقسام اليهود والنصارى، وانقسام أمته الى ثلاث وسبعين فرقة؟؟

ان عدد الفرق في المسلمين زاد اليوم على هذا العدد وسيزيد في المستقبل[٣]

٣ ـ زعمت كل فرقة انها الناجية، وغيرها في النار.

٤ ـ مؤرخو الفرق الاسلامية تعسفوا وتمحلوا في تعداد الفرق حتى بلغت ٧٣ ليصح عندهم هذا الحديث، وفاتهم أن الافتراق لم ينته، ولن ينتهي بعد اليوم وسيستمر غداً وبعد غد[٤].

وكيف نوفق بين هذا الحديث، وبين حديث ما اجتمعت أمتي على ضلال؟؟ فاذا كانت الناجية واحدة، والباقيات هلكى، فان المجموع الاكبر وعدهم ٧٢ فرقة هم الهلكى!! فكيف اجتمعوا على الضلالة؟؟

أورد الشهرستاني هذا الحديث، وزاد عليه قوله: سئل الرسول، ومن الناجية؟؟ فأجاب: أهل السنة والجماعة!! قيل: وما السنة والجماعة؟ قال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي[٥] هذا مع أن أهل السنة والجماعة لم تكن يومئذ تشكلت كفرقة أيام الرسول واتخذت اسمها، كما أن الرسول لم يذكر «الكتاب» الى جانب السنة كما يشير الحديث.

ويروي سفيان الثوري عن ابن الزبير، عن جابر، عن ابن عبد الله أن الرسول قال: ستفترق أمتي الى بضع وسبعين فرقة أبرها وأتقاها الفئة المعتزلة! ثم قال سفيان لاصحابه: تسموا بهذا الاسم لانكم اعتزلتم الظلّمة!! فقالوا له: لقد سبقك الى هذا عمرو بن عبيد. فصار سفيان يروي الفئة الناجية بدل المعتزلة[١]. ونعود الى التساؤل: متى ظهر مصطلح الجماعة؟

يقول المكزون:

---

(٣) مذاهب الاسلاميين للدكتور عبد الرحمن بدوي ج ٢.

(٤) مذاهب الاسلاميين للدكتور عبد الرحمن بدوي ج ٢.

(٥) الشهرستاني، والمنية والأمل، ص ٢ ـ ٣.

(١) المنية والامل.

قالوا: الجماعة، قلت: آل محمد ... قوم بهم شفع الآله رسولهُ
وبهم على توحيده في أمة الاسلام ... إذ جحدوا أقام دليله
أفغيرهم أبغي السبيل الى الهدى ... وهم الذين بهم أنار سبيله

ويقول:

قوم بهم شفع الآله رسولَه ... وكتابه لهم الرسول به شفعْ
أيروم في الاسلام حظاً من عدا ... أبوابهم، والى أعاديهم رجعْ
لا والهدى لم يُهد من ناواهم ... يوماً، ولا ضل الذي لهم اتبع

هؤلاء هم الجماعة عند المكزون، وهم الذين يجمع المسلمون على موالاتهم، والائتمام بهم، وهم عماد الشريعة، وعندهم علم الكتاب.

ولعل هذا المصطلح ـ مصطلح الجماعة ـ ظهر لاول مرة في التاريخ الاسلامي، عندما أجمع المسلمون على مبايعة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة عقب وفاة الرسول، وقبل دفنه.

ويقال: انه أطلق في عام ٤١ للهجرة عندما تنازل الحسن بن علي لمعاوية عن الخلافة فسمي هذا العام عام الجماعة(٢) وأطلق معاوية وأنصاره على أنفسهم اسم «أهل السنة والجماعة» بمقابل «أهل البيت» الذي أطلقه أنصار علي على أبنائه من فاطمة(٣).

ويظهر أن هذا المصطلح «أهل» صار تقليداً فاطلق المعتزلة على أنفسهم اسم «أهل العدل» تمييزاً لهم عن مخالفيهم وهناك أهل العقل وأهل النقل وأهل التأويل وأهل الباطن وأهل الظاهر... الخ.

---

(٢) الامامة والسياسية ١/١٤٢ وتاريخ الطبري ٦/١٧٠ وابن كثير ٨/٧٩ ولسان الميزان ٦/٧٥٣.
(٣) أبو هريرة لمحمود أبو رية ص ٣٠٩.
(٤) السنة المحمدية ص ٢١٦.

وقيل: عرف هذا المصطلح، وأطلق على الذين أجمعوا على مبايعة يزيد بن معاوية بقيادة عبد الله بن عمر، وكان عبد الله قد تأبى عن مبايعة يزيد وقال: هذه الخلافة ليست بهرقلية، ولا بكسروية، ولا بقيصرية يتوارثها الابناء عن الآباء(٤).

وقيل ظهر عام ٢٤٧ عندما اجتمع علماء بغداد تحت اشراف الخليفة العباسي محمد المنتصر بن المتوكل، وأجمعوا على اقرار المذاهب الاربعة، وطيّ ما سواها من المذاهب المتعددة، وبارك الخليفة هذا «الاجماع» أو هذه «الجماعة»، وأصدر أوامره بذلك لولاة الأمصار واعتبر كل من خالف ذلك «خارجاً» على «الجماعة».

ويقول طاش كزبري زادة: إعلم أن رئيس أهل السنة والجماعة في علم الكلام رجلان: أحدهما حنفي، والثاني شافعي، أما الحنفي فهو أبو منصور محمد بن محمد الماتريدي امام الهدى(١).

وأما الشافعي فهو شيخ أهل السنة ورئيس الجماعة، امام المتكلمين، وناصر سنة سيد المرسلين أبو الحسن الشافعي البصري(٢).

ولكن... «كل مسلم» يدين بالسنة المطهرة، وخاصة السنة العملية(٣) وهذا المصطلح «يعتبر خاصاً» ومصطلح «أهل القبلة» أجمع وأشمل وأعم.

والتمذهب ليس أصلاً في الدين، ولكن الاصل هو: واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا.

ويقول أبو شامه: سئل بعض العارفين عن معنى المذهب. فأجاب أن معناه دين مبدّل. قال تعالى: ولا تكونوا من المشركين الذين «فرقوا» دينهم وكانوا شيعاً(٤).

(١) مفتاح السعادة ج ٢ ص ٢١ ـ ٢٢ طبعة حيدر اباد.

(٢) أبو منصور الماتريدي ٣٣٣ هـ تعقب أبا القاسم الكعبي أمام المعتزلة في بخارى وسمرقند حتى أسس مدرسة أهل السنة والجماعة من الماتريدية في تلك البلاد.

(٣) السنة قسمان عملية، وقولية فالعملية تكون في العبادات والعقائد كعدد أوقات الصلاة، وعدد الركعات، وصيام رمضان، ومناسك الحج وأمثالها وهي متواترة أما القولية فغير متواترة وتكون في المعاملات.

(٤) عندما اشتد الخلاف بين المتكلمين بالصفات والارادة اقتصر جعفر الصادق على ذلك بقوله: ان الله تعالى أراد منا شيئاً، وأراد بنا شيئاً، فما أراده بنا طواه عنا، وما أراده منا أظهره لنا، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا؟؟.

(٤) المؤمل للرد على الامر الاول ص ١٠.

بعد نشوء الاعتزال، والقول بالصفات نفياً عند البعض، واثباتاً عن البعض الاخر، ومسألة أفعال العباد، وفتنة القول بخلق القرآن، والجبر، والاختيار، ومرتكب الكبيرة، ومرتكب الصغيرة، والقول بربط العقائد الاسلامية بالفلسفة اليونانية عند فريق من المسلمين، وانتشار علم الكلام في مجمل القضايا الفكرية والعقائدية يومئذ. . . كل ذلك أدى الى خلاف كبير، وكثير، وخطير في الاصول والفروع فبرزت فئات متعددة أبرزها فئتان. . فئتان كبيرتان مختلفتان ظل أثرهما في التاريخ الفكري الاسلامي حتى يومنا هذا، وسيمتد الى ما بعد يومنا هذا.

أولى هاتين الفئتين: فئة التحفظ والنقل والحرفية.

وثانيتهما: فئة التحرر، والعقل والتأويل.

وبين الانطلاق والجمود، والتطرف والتزمت، والعقل والنقل، والتأويل وحرفيه النص الذي تمثله هاتان الفئتان ظهرت فئة ثالثة حاولت أن توجد طريقاً ثالثة، وتكون جماعة ثالثة تتسم أفكارها وآراءها وأحكامها بسمة الاعتدال بين جمود هؤلاء، وتطرف أولئك.

وفعلاً وجدت هذه الجماعة، وقام هذا المذهب الذي يمكننا أن نطلق عليه اسم المذهب «التوفيقي» أو «الرأي المعتدل» SYNCRETIZE.

كان زعيم هذا الفريق، أو هذه الجماعة، أو المدرسة «التوفيقية» هو علي بن اسماعيل الاشعري ٢٦٠ ـ ٣٢٤ هـ.

كان الاشعري معتزلي النشأة وقد أمضى ٤٠ عاماً معتزلياً، ولكنه حاول أن يصدر أحكاماً ويبدي آراء مقبولة في القضايا المختلف فيها وعليها، ولكنه رغم اعتداله فان الحنابلة رموه بالكفر[1].

وجاء الباقلاني، وإمام الحرمين الجويني، والاسفراييني وغيرهم لينشروا آراءه، ويدعموا مذهبه، وقيل: ان أنصاره هم الذين أطلقوا على أنفسهم اسم «أهل السنة والجماعة».

وبالرغم من أن مذهب الاشعري هو مذهب متأخر النشأة بالنسبة للكثير من المذاهب التي سبقته فقد استقطب الكثير منها، واندرجت فيه فاستوعبها واحتواها، وهذا ما

(١) اسلام بلا مذاهب للدكتور مصطفى الشكعة ص ٤٩٤.

جعل أنصاره يطلقون عليه اسم مذهب «الجماعة» وهذه التسمية تميز له عن المذاهب الاخرى كالمعتزلة، والشيعة، والخوارج، والمرجئة.

فالسلفيون لا يفارقون النص، والتوفيقيون خرجوا من الحرفية الى الاجتهاد.

والاختلاف بين السلفيين والتوفيقيين كالاختلاف بين الاشعرية والماتريدية فصفة التكوين « الصفات» عند الماتريدي وأصحابه تعتبر صفة قديمة حقيقية، قائمة بالذات ـ ذات الله ـ زائدة على ذاته، بينما هي عند الاشاعرة صفة اضافية حادثة ومتجددة بتجدد الافعال شأنها في ذلك شأن كل صفات الفعل التي هي عند الاشاعرة حادثة حدوث الفعل.

وقد طعن السلفيون بانفتاح التوفيقيين.

والى القراء نماذج من مذهب الاشعري، أو المذهب «التوفيقي» أو «الرأي المعتدل».

١ ـ الجبرية يقولون: ان الله خالق أفعال العباد من خير وشر... والله خلقكم وما تعملون(٢).

٢ ـ المعتزلة يقولون أن الانسان خالق افعاله... من يعمل مثقال درة خيراً يره، ومن يعمل مثال ذرة شراً يره.

٣ ـ والاشعري يقول: أفعال العباد لله صنعاً وابداعاً، وانها للانسان خلقاً ووقوعاً عند قدرته. فالانسان يريد الفعل، وتتجرد له همته، والله يخلقه.

مثال ثانٍ على موقف الاشعري التوفيقي:

٤ ـ المعتزلة اعتبرت الصفات كلها من باب المجاز والكناية، فوجه الله كناية عن الذات والوجود، ويده كناية عن القوة والقدرة، والاستواء على العرش دلالة على السلطان الالهي، والله مجرد عن كل صفة ايجابية، وكل صفة من الصفات هي «عين» الذات، ولهذا أطلق الحنابلة عليهم اسم المعطلة، أو معطلي الصفات.

---

(٢) يقول الامام أحمد بن حنبل. ان كل أفعال العباد وشرورهم بقضاء وقدر من الله، ويوضح ذلك قائلاً: القدر خيره وشره، قليله وكثيره، ظاهره وباطنه، حلوه ومره، محبوبه ومكروهه، حسنه وسيئه، أوله وأخره، من الله، قضاء قضاه، وقدراً قدره عليهم، والزنا والسرقة، وشرب الخمر، وقتل النفس، وأكل المال الحرام، والشرك بالله والمعاصي كلها بقضاء وقدر من غير أن يكون لاحد من الخلق على الله حجة (اسلام بلا مذهب) وهكذا يلتقي الحنابلة والجبرية بالقول بمنشأ الافعال.

٥ ـ الحنابلة يقولون: ان الله قادر بقدرة، حيّ بحياة، عالم بعلم، وهي معانٍ قديمة أزلية، و«زائدة» على الذات، قائمة بالذات، وهي ليست عين الذات، ولا غيرها، ولذلك أطلق المعتزلة عليهم اسم «المشبهة» أو «مجسمي الصفات».

٦ ـ جاء الاشعري بالحل الوسط، أو بالمذهب، «التوفيقي» المعتدل كما سبق وقلنا، فقال: ان الله يتصف حقيقة بالأسماء والصفات التي أشار اليها القرآن، وهذه الصفات يمكن اعتبارها مغايرة للذات الالهية من حيث حقيقتها الايجابية، في حين لا وجود لها، ولا حقيقة خارج الذات.

وأهمية هذا الحل الذي جاء به الاشعري هي في تمييزه بين الصفة والمفهوم الذهني من جهة ومن جهة أخرى أن «الازدواجية» بين الجوهر والصفة تتم على صعيد «الكيف» لا على صعيد «الكم»

ونسوق هنا رأي المكزون في هذا الموضوع وفيه الجدل والحجاج:

١ـ ان كان فعلي له مُراداً ... فلِمْ بما قد أراد يعصى؟؟
وَلِمْ دعاني الى أمورٍ ... مني لها الخلف ليس يُحصى؟؟

٢ـ قل لمن قال: ان باري البرايا ... ليس في خلقه مريد سواه:
من ترى ان أراد بالعبد ضراً ... راح في العبد كارهاً ما قضاه
اتقوا الله ذاك أمر محال ... أن يرى ساخطاً رضاه رضاه
واذا لم يكن فقد ثبت الفعل ... لعبد، ومان في مدعاه

ويظهر ايمانه بحرية الأفعال ويلتقي مع مذهب المعتزلة وقد توسعنا في هذا البحث في الجزء الاول في الصفحات ٣٠٤ الى ٣١٨ فليراجع هناك لمن أراد المزيد والاحاطة بالموضوع.

وجاء السلفيون فحاولوا أن يرجعوا كل شيء الى السلف الذين لم يأخذوا الا بحرفية الكتاب والسنة، ووقفوا عند حرفية النص، واعتبروا كل المذاهب من شيعة وخوارج، وأشاعرة، وماتريدية، ومرجئة جائرة عن قصد السبيل، وحدوا من سلطات العقل، وأطلقوا بدورهم على أنفسهم اسم «أهل السنة والجماعة» ومن أشهر أئمتهم ابن تيمية.

ولقد تنكر لابن تيمية الكثيرون من علماء عصره، وأنكروا عليه الكثير من آرائه وفتاويه، ومنهم: السبكي في شفاء الغليل.

وقاضي المالكية تقي الدين في الدرة المضيئة.
وتقي الدين الحصني في دفع الشبَّه.
وتاج الدين الفاكهاني في التحفة المختارة.
وسليمان بن عبد الوهاب في الصواعق الالهية.
وابن حجر في الفتاوى الحديثة.
والقسطلاني في المواهب اللدنية.
والزرقاني في شرح المواهب.. وغيرهم.

وهكذا نرى أن مصطلح «الجماعة» كان أول مؤسسة نشأت عنها «جماعات» واعتبرت نفسها منفردة بالصحة والصواب، واعتبرت غيرها «خارجاً» على «الاجماع».

فماذا يقول الشاعر المكزون: ؟؟

بني العقل هبوّا لأمرٍ عُجاب ... ولكن للعقل عنه نشوز
أناس رأوا أنهم قادة ... وقالوا: «الجماعة» حرز حريز
وكل يرى قوله واجباً ... وقول جماعته لايجوز!!

ويقول:

قلت: عنـدي وعنـدكم صح عمن ... أوجـب الـله في الكـتـاب اتّبـاعـه
قولُ من فارق «الجـماعـة» منـا ... انـه قد أبـان عنـا انـخـلاعـه
وعـلى ذا، فكـل منـفـرد منـا ... بقـول مفـارق للجـماعَـهْ

الاجماع

الاجماع لغة: الاتفاق.

واصطلاحاً: هو اتفاق مجتهدي الامة في عصر من العصور بعد النبي على حكم شرعي في أمر من الامور العملية.

وتعريفه عند الشيعة الامامية: أنه اتفاق جماعة يكون لاتفاقهم شأن في اثبات الحكم الشرعي.

وتعريفه عند الزيدية: انه اتفاق المجتهدين في الامة الاسلامية في زمن من الازمان في أمر من الامور الشرعية.

في التعريف الاول والثالث لايكون الا باتفاق جميع مجتهدي الامة.

وفي التعريق الثاني يكون باتفاق جماعة لهم شأن!!.

وفي التعاريف الثلاثة جماع على أن القصد هو اثبات حكم شرعي.

وعند الجميع هو أحد الاصول الاربعة: الكِتاب والسنة، وهما المصدران الاساسيان، والاجماع وهو عند الجميع، والقياس وينفرد به أهل السنة، والعقل، وتنفرد به الشيعة في اثبات أدلة الاحكام.

والسؤال:

هل «الاجماع» ممكن؟؟ وهل وقع بالفعل؟؟[1].

في عهد الرسول كان كل الصحابة والامة من ورائهم مجمعين على الرسول في كل ما يهمهم من أمور دينهم ودنياهم، ونزل القرآن بالقاعدة العامة الناظمة: وأمرهم شورى بينهم. وخاطب الرسول قائلاً: وشاورهم في الامر.

والآيتان تدعوان الى الشورى، الاولى بصورة تقريرية ـ والثانية بصيغة الانشاء

(١) اسلامنا في التوفيق بين السنة والشيعة للدكتور مصطفى الرافعي ص ٨٨.

الطلبي، ويفهم من نص الآية الثانية أن المقصود بالمشاورة هو الشؤون السياسية لان الرسول لايستشير في الامور الدينية فهي موحاة، وهي حصراً به من بين الصحابة والمسلمين عامة. ولكنه يستشيرهم بالامور السياسية بدليل قوله: «ص». أنتم أعلم بشؤون دنياكم.

أول اجتماع للمسلمين بعد رفع الرسول الى الرفيق الاعلى هو اجتماع السقيفة ـ سقيفة بني ساعدة ـ عقب وفاة الرسول مباشرة، وقبل ان يدفن لانتخاب خليفة له، وقد انتخب الخليفة ابو بكر، فهل اعتبر التاريخ ذلك «اجماعاً» وقد تغيب عنه بنو هاشم، وبعض الصحابة، وانقسم الأوس والخزرج، وقامت منافرات، وحصلت مشادات، وكادت تنطلق الفتنة، وتبتعث القبلية والعصبية

لقد حاول الامويون القرشيون ممثلين بأبي سفيان ان يجعلوا من هذا الاجتماع فتنة كبرى بتحريض بني هاشم على منازعة الخليفة الامر، لاحباً بالهاشميين ـ وابو سفيان مشهور بعدائه لهم ـ بل لعلمه الاكيد انه لانصيب له في هذا الأمر، لما يعلمه المسلمون ـ كل المسلمين ـ من سابق مقاومته للرسول و رسالته(١)

جاء في تاريخ الامم والملوك للطبري مانصه: حدث محمد بن عثمان عن صفوان الثقفي عن مالك بن مغول، عن ابن الجر قال ابو سفيان يوم السقيفة لعلي بن ابي طالب ـ وقد زاره في بيته ـ مابال هذا الامر في أقل حي من قريش ـ ويقصد تيم اللات قبيلة ابي بكر ـ والله ان شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجالاً. فقال علي: ياابا سفيان طال ماعاديت الاسلام واهله فلم تضره بذاك شيئاً(٢)

وفيه ايضاً: انه لما ولي ابو بكر أقبل ابو سفيان وهو يقول: «والله أني لأرى عجاجة لايطفئها إلادم، ياآل عبد مناف فيما أبو بكر من أموركم؟؟ اين المستضعفان الأذلان علي والعباس، ياابا الحسن أبسط يدك أبايعك، فأبى عليه علي ذلك.

(١) كان أبو سفيان من اكبر وأعنف المناوئين لمحمد قبل الاسلام، وعند فتح مكة كان من الطلقاء، ثم أصبح بعد ذلك من المؤلفة قلوبهم، ومنهم الأقرع بن حابس، وعباس بن مرداس، وعيينه بن حصن، وصفوان بن امية.

(٢) الطبري ص ٤٤٩ واخرجه الحاكم وصححه الذهبي تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٧٧ دار القلم

وفيه ايضاً: حدث محمد بن عثمان الثقفي عن ابيه، عن امية بن خالد، عن حماد عن سلمة عن ثابت قال: لما استخلف ابو بكر، قال ابو سفيان: مالنا ولابي فصيل!! انما هي لبني عبد مناف(١)

وفي بعض الروايات انه امعن في التحريض متمثلاً بهذا البيت:

ولـن يقـيـم على ضيـم يراد به الا الأذلان عير الحـي والـوتـدُ

فزجره علي قائـلاً: انـك والله مااردت الا الفتنة، وانك والله طال مابغيت على الاسلام لاحاجة بنا الى نصيحتك.

ونستطرد قائلين: من هنا من موقف أبي سفيان، وتحريضه على الفتنة ندرك مصدر تلك الفتن، وبـواعث تلك الاضطرابات التي حدثت في ايام الخليفتين الثالث والرابع، وندرك دور ابي سفيان وانصاره فيما تتابع من كوارث واحداث، واراقة دماء، ويتجلى ذلك باجلى مظاهرة بقول ابي سفيان للخليفة عثمان عندما تولى امر الخلافة: هاقد صارت اليك فأدرهـا كما تدار الكـرة، واجعل اوتادها من امية. وتضيف بعض الروايات قوله: انه الملك، ولا أدري أماجنة، أو نار. وقد زجره الخليفة عثمان، وفي بعض الروايات انه طرده((٢)

وأورد صاحب الاغاني في الجزء السادس والصفحة ٩٦ قول ابي سفيان: يابني امية تلقفوها تلقف الكرة فوالذي يحلف به ابو سفيان مامن حساب ولا عذاب، ولا جنة، ولا نار ولابعث ولا قيامة(٣)

وقال ابو سفيان وقد امر عبيده ان يقودوه الى قبر الحمزة عم النبي: ياابا عمارة ان الامر الذي نازعتنا عليه قد صار الينا وذلك بعد تولية عثمان.

وعندما استولى آل ابي سفيان يعاضدهم آل مروان على الامور صرفوها كما يشاؤون

---

(١) الطبري تاريخ الامم والملوك.

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام للدكتور علي سامي النشار، اسلام بلا مذاهب

(٣) الشيعة في التاريخ.

مستغلين قرابتهم وقربهم من الخليفة، وضعفه وشيخوخته حتى اغضبوا المسلمين في كل الاقطار والامصار وحدثت الفتنة، وقتل الخليفة الثالث.

والمؤرخون يرجعون هذه العداوة، ويعيدون اصل هذا الخلاف الى ماقبل الاسلام، حيث انقسم بيت عبد مناف على نفسه الى قسمين متنازعين يكيدان لبعضهما: القسم الهاشمي، ويرأسه هاشم بن عبد مناف، والقسم الاموي ويرأسه أمية بن عبد شمس بن عبد مناف.

كان الخلاف في الجاهلية على الجاه والنفوذ وسدانة الكعبة، اما في بدء الاسلام فانه على الرسالة والنظام والدين، واستمرار للعهد الجاهلي:

ولقد اشار المكزون الى ذلك في احدى ثلاثياته:

كانوا على الشرك يولون الجميل ... ويحمون النزيل، ويرعون الموائيقا
حتى اذا مانفى التوحيد شركهم ... بأحمد، واستبانوا العدل تحقيقا
ولو غداة تولوا عن مكارمهم ... ومزقوا عدله بالجور تمزيقاً!!

وبعد هذا الاستطراد الذي اقتضاه البحث نعود فنسأل ثانية هل «الاجماع» ممكن وهل حدث، أو تم بالفعل؟؟

اجتماع السقيفة لم يكن في بدئه اجماعاً كما سبق وقلنا، وهذا ماحدا بعمر بن الخطاب يومئذ الى القول: ان بيعة ابي بكر فلتة وقى الله شرها.

وتضيف بعض الروايات الى قوله هذا: من عاد الى مثلها فاقتلوه.

وخبر السقيفة وبيعة الخليفة الاول تناولها معسكرا السنة والشيعة بالسلب والايجاب وخير مايقال فيها: انه لولا شدة عمر بن الخطاب وأخذ البيعة لأبي بكر، واستجابة علي بن أبي طالب، وعدم استجابته لتحريض أبي سفيان حرصاً على الاسلام وجمعاً لكلمة المسلمين. لولا ذلك لوقعت الفتنة واندلعت نيران القبلية، ونزوات الجاهلية، وقضي على الرسالة عقب وفاة الرسول.

ونعـود ونسـأل متى واين حصل «الاجماع»؟ وأصبح دليلاً من أدلة الأحكام سواء باختيار خلفاء الامة، ام باستنباط الحكم الشرعي الذي لايوجد عليه دليل من الكتاب والسنة؟؟ (١)

الأئمة المأخوذ بأقوالهم لم يجمعوا على «الاجماع» ووقوعه فعلاً.

وحتى الامة لم تجمع على الائمة اجماعاً عاماً.

هناك اربعة مذاهب لاهل السنة، ومذهبان للشيعة فماذا يقول ائمة هذه المذاهب بـ «الاجماع» الذي هو الدليل الثالث من ادلة الاحكام في الاسلام؟؟

لقد شغلت فكرة «الاجماع» حيزاً كبيراً من الفكر الاسلامي، وبحث المسلمون هذه الفكرة بحثاً وافياً مع انها لم تتحقق اطلاقاً، ولكنها بالرغم من عدم تحقيقها قد شغلت مكاناً ممتازاً من مجامع المسلمين.(٢).

وقد سبق القول ان هناك عديداً من المذاهب الاسلامية نشأت في القرون الثلاثة الأوَل للهجـرة وقد اشتهر وانتشر في البلاد الاسلامية منها مذهب ابي حنيفة والشافعي، ومـالـك وابن حنبل، والاوزاعي، وداوود الظاهري، والطبري، وسفيان الثوري. وابن المبارك، وابي يعلى، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وسفيان بن عيينة، والليث بن سعد، وداوود بن علي، وابي ثور، وجعفر الصادق، وزيد بن علي وغيرهم.

كل هؤلاء الائمـة اجتهـدوا مخلصـين، وفسّروا متدبرين، وحدثوا صادقين، ورووا محققـين، وقـاسـوا، واستحسنـوا واستنبـطوا أحكـام الدين، لكنهم اختلفوا في كثير من اجتهاداتهم في الفروع، وبعض الأصول، وجاء بعدهم من استغل هذا الخلاف، واستثمر

---

(١) تخلف عن مبايعة ابي بكر في السـقيفة بنو هاشم وسعد بن عبادة الانصاري وابو سفيان والزبير بن العوام وعتبة بن ابي لهب، وسلمان الفارسي والمقداد بن عمرو، وابوذر الغفاري، وعمار بن ياسر، والبراء بن عاذب، وابي بن كعب.

ولكن جلال الدين السيرطي يورد في كتابه تاريخ الخلفاء عن ابن سعد والحاكم والبيهقي عن ابي سعيد الخدري ان ابا بكر لما بايعه المهاجرون والانصار صعد المنبر ونظر في وجوه الناس فلم ير الزبير فدعابه فجاء فقال: قلت ابن عمة رسول الله وحواريه اردت ان تشق عصا المسلمين فقال: لاتثريب عليك ثم قام فبايعه. ثم نظر في وجوه القوم فلم ير عليا فدعا به فجاء فقال: قلت ابن عم رسول الله وختنه على ابنته اردت ان تشق عصا المسلمين فقال: لاتثريب عليك فبايعه

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام للدكتور علي سامي النشار ج١ ص ٥٧

هذا الاختلاف، وهذا التباين في الاحكام، مدفوعاً بعوامل سياسية او نزعات مذهبية او شعوبية خدمة لسلطان، او حقداً على الاسلام وكيداً للمسلمين، وضرباً لوحدتهم وتمزيقاً لكلمتهم، فاذا بنا نرى الخلاف والاختلاف في التفسير والرواية، والحديث والخبر، والاجتهاد، فما هو «واجب» عند زيد هو «جائز» عند عمرو، وماهو «مستحب» عند هذا، هو «مستكره» عند ذاك، فأين هو «الاجماع» المنشود؟؟

وحتى ائمتنا الذين اجمعت الامة واجتمعت عليهم مختلفون فيما بينهم في الكثير من الامور الشرعية. والاجتهادات المتعددة!!

فأبو حنيفة مثلاً يرى ان الحكم الاموي غير شرعي، ولم يتحرج عن مناصرة زيد بن علي حين خرج على بني أمية، كما كان يرى نفس الرأي في بني العباس، وكان يحض الناس على مناصرة ابراهيم الامام وأخيه محمد المعروف بالنفس الزكية، وكان يقول: ماقاتل احد علياً الا وعلي اولى بالحق منه.

ومالك بن أنس لم يؤيد بني أمية، ولا بني العباس، كابي حنيفة، ولأنه يرى ان نظاميهما ملكي كسروي بعيد عن شورى الاسلام، ولكنه يرى الخلفاء الراشدين ثلاثة، وليسوا اربعة، وان علي بن ابي طالب واحد من الصحابة(١)

وكان يذكر عثمان وعليا وطلحة والزبير ويقول: والله ماقتلوا الا على الثريد الاعفر، أي على متاع الدنيا لا على الدين.

والشافعي يرى ان الامامة ـ الخلافة ـ في قريش، ويرى ان كل قرشي غلب على الخلافة فهو خليفة(٢) ولقد مات بمصر بسبب مانالاه من الضرب المبرّح من المتعصبين لمذهب مالك.

واحمد بن حنبل يرى الامامة في قريش ويرى أمامة ولد العباس، ويقر خلافة الراشدين، ويقف عند علي متحفظاً فيقول: ووقف قوم عند عثمان(٣)

---

(١) اسلام بلا مذاهب للدكتور مصطفى الشكعة

(٢) طبقات الشافعية ص ١٧

(٣) اسلام بلا مذاهب. للدكتور الشكعة.

فالأئمة الذين اجمعت «الجماعة» عليهم مختلفون في الخلافة، وفي الخلفاء الراشدين مختلفون في الامويين والعباسيين والهاشميين، مختلفون في الاصول فمنهم من يرى الاخذ بالقياس، ومنهم من لايرى ذلك بل يرى القياس باطلاً في الدين، و «الرأي» مثله بل أبطل منه(٤)

واخرج ابن عساكر عن ابي هريرة قال: كنا معاشر اصحاب رسول الله ونحن متوافرون ـ نقول: افضل هذه الامة بعد نبيها ابو بكر، ثم عمر، ثم عثمان ونسكت(٥)

وروي البخاري عن ابن عمر قال: كنا نخير بين الناس ايام الرسول فنخير ابا بكر، ثم عمر، ثم عثمان وزاد الطبراني على هذا الحديث في الكبير: فيعلم بذلك النبي فلا ينكره(٦) (السيوطي ص ٥٣)

روى عبد الوارث بن سعيد(٧) قال: قدمت مكة فالفيت بها ابا حنيفة فقلت له: ماتقول في رجل باع بيعاً وشرط شرطاً؟ فقال: البيع باطل والشرط باطل!!

فأتيت ابن ابي ليلى فسألته عن ذلك فقال: «البيع جائز والشرط باطل!!

فأتيت ابن شبرمة فسألته عن ذلك. فقال: البيع جائز والشرط جائز. فقلت في نفسي: سبحان الله، ثلاثة من فقهاء العراق لايتفقون على مسألة!! فعدت الى ابي حنيفة فاخبرته بما قال صاحباه. فقال: ماادري ماقالاه لك، حدثني عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده قال: نهى رسول الله عن بيع وشرط فالبيع باطل والشرط باطل.

فعدت الى ابن ابي ليلى فاخبرته بما قال صاحباه فقال: ماأدري ماقالاه لك؟

حدثني هشام بن عروة عن ابيه عن عائشة، قالت: امرني رسول الله ان اشتري بريرة فاعتقها، البيع جائز والشرط باطل(٨)

قال: فعدت الى ابن شبرمة فاخبرته بما قال صاحباه. فقال: ماأدري ماقالاه لك؟

---

(٤) المستصفى للغزالي. والرسالة للشافعي، والعدة للطوسي

(٥) السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٥٣

(٦) المصدر السابق ص ٥٣

(٧) في بعض النسخ الليث بن سعد

(٨) رواه البخاري في باب الشرط في الولاء

حدثني مسعر بن كدام عن محارب بن دثار عن جابر قال: بعت النبي صلى الله عليه وسلم بعيراً، وشرط لي حملانه الى المدينة فالبيع جائز، والشرط جائز(٩)

وذكر ابن الهمام ان الاوزاعي قال: مالكم لاترفعون الايدي عند الركوع والرفع منه؟ ؛ فقال أبي ابو حنيفة لانه لم يصح عن رسول الله فقال الاوزاعي: كيف لم يصح؟ وقد حدثني الزهري، عن سالم، عن أبيه ابن عمر ان رسول الله كان يرفع يديه اذا افتتح الصلاة، وعند الركوع، والرفع منه. فقال ابو حنيفة: حدثنا حماد عن ابراهيم (أي النخعي) عن علقمة، والاسود عن عبد الله بن مسعود، ان النبي كان لايرفع يديه الا عند افتتاح الصلاة، ثم لايعود.

فقال الاوزاعي: أحدثك عن الزهري عن سالم عن ابيه، وتقول: حدثني حماد عن ابراهيم، فقال ابو حنيفة: كان حماد افقه من سالم، وعلقمة ليس دون بن عمر في الفقه، وان كان لابن عمر فضل صحبته، فالاسود له فضل كبير

وهذه الاحاديث تنافي ماعليه المسلمون من ان الراشدين أربعة

كما ان هناك اختلافاً في صفات الباري

وبعض الائمة يحرم الغناء والالحان، ويأمر بكسر الآلات، ويروي في ذلك حديثاً غاية في الطرافة وهو قول النبي: انما بعثت بكسر الطبل!: ولكن الرسول الكريم سمع الغناء والالحان من نساء المدينة، نساء الاوس والخزرج عندما خرجن لاستقباله مهاجراً من مكة الى يثرب ضاربات بالدفوف منشدات «طلع البدر علينا» فلم يزجرهن ولم يأمرهن بكسر دفوفهن ومزاهرهن، وهو المبعوث بكسر الطبل على قول احد الائمة!! فأين هو «الاجماع»؟؟

وكل مسلم يعلم، ويدرك، ويؤمن، ويعتقد ان مصدري التشريع في الاسلام هما الكتاب والسنة الصحيحة، ولكن اضيف اليهما، «الاجماع» ويضيف البعض الاخر الى هذه المصادر الثلاثة مصدراً رابعاً هو «القياس» وبعضهم يضيف «الرأي» وآخرون يضيفون «العقل» فأين «الاجماع»؟؟

(٩) كتاب الانصاف للبطلوسي ص ٧٠ و ٧١

ويرى غير هؤلاء اضافة «الاستحسان»

كما أوصل آخرون مصادر التشريع الى ثمانية: وهي الكتاب ـ السنة ـ اجماع الصحابة ـ فتوى الصحابي ـ الاستحسان ـ العرف ـ الاجماع ـ القياس.

وهناك من أوصلها الى سبعة عشر مصدراً مضيفاً الى المصادر والادلة السابقة اجماع الائمة اجماع اهل المدينة، أقوال الصحابة ـ المصالح المرسلة ـ الاستصحاب، الاستصلاح ـ البراءة الاصلية ـ العوائد ـ اجماع اهل الكوفة، اجماع الخلفاء ـ الأخذ بالاخف ـ سد الذرائع ـ فأين «الاجماع»؟؟

وحتى في «الاجماع» كدليل شرعي كان الخلاف كبيراً، والافتراق متسعاً، فالمالكية يرون أن «الاجماع» الذي يصلح لأن يكون دليلاً من دلائل الأحكام والتشريع هو «اجماع» أهل المدينة وحدهم لانها بلد التشريع.

وقال قوم: باجماع اهل الحرمين: مكة والمدينة، والمصرين: الكوفة والبصرة

وقال آخرون: اجماع أهل الحل والعقد.

ويرى فريق: ان اجماع التابعين كاجماع الصحابة.

ويرى اتباع داوود الظاهري عدم الأخذ باجماع التابعين ولو كانوا من أهل المدينة!!

وقال الشافعي: ان «الاجماع» المعتبر هو اجماع العلماء في البلدان كلها في الضرورات، ووافقه الليث بن سعد الآمدي، وابن حزم الاندلسي، والغزالي[1]

وأنكر الغزالي على الصحابة حجية القول لأنهم غير معصومين من الخطأ والسهو[2]

وجاء عن احمد بن حنبل قوله: من ادعى «الاجماع» فهو كاذب[3]

ويرى احمد بن حنبل ايضاً: ان «الرأي» و «القياس» باطلان، ويخالف بذلك الائمة الثلاثة ويقول: ان اصحاب الرأي والقياس مبتدعة ضلال[4]

---

(١) المستصفى للغزالي

(٢) وقد بدعه الشوكاني في البدر الطالع ج٢ ص ٢٦٠

(٣) تاريخ التشريع الاسلامي

(٤) طبقات الحنابلة لابن تميم الحنبلي ١/ ٣١

ويقول النظام: ان «الاجماع» ليس بحجة في الشرع، وكذلك القياس في الاحكام الشرعية(٥)

وبعد... مارأى الشاعر الفقيه المكزون؟؟ في هذه الآراءُ المتضاربة والأمور المستحدثة، والاختلافات الحادّة، التي بلغت درجة التكفير والتبديع، والتضليل، وأقلها التخطيء، او التخطئة!!

المكزون يرى في «القياس» و «الرأي» مايراه الامام احمد بن حنبل، ولكنه لايقول: ان القائلين بهما مبتدعة ضلال كما يرى ابن حنبل، بل ينسبهم الى الخطأ فيقول:

١ ـ وربما أخطأ من حاولوا ... «بالرأي» برهاناً، ومن «قاسوا»(٦)
٢ ـ زعموا ان كل من اعمل «الرأي» ... وأخطا به ينال الثوابا
وعلى ذا، فكل مجتهد أخطا ... بعين الخطا اصاب الصوابا
٣ ـ حث الركاب بنا فالقوم قد وقفوا ... دون الحمى، وعلى ضال الغضا عكفوا
ظنوا سراب الفلا ماءً فمال بهم ... عن مورد الريّ في الوعساء فاعتسفوا
وأوهموا الناس رشداً في الضلال و كم ... وجهاً الى الغي عن نهج الهتوى صرفوا
قالوا، فمانوا فلما ان دعوتهم ... الى «القياس» ابانوا العجز واعترفوا(٧)

ويقول:

واستعملوا «الرأي» فيما لامجال له ... فيه، فباءوا ببعد عن تعقّله
وحاولوا الدين بالدنيا، فأذهلهم ... أدنى تفاصيله عن فصل مُجمِله

(٥) الملل والنحل للشهرستاني
(٦) مخطوطة الاسكوريال
(٧) وهذا البيت الاخير ورد في لزوميات المعري وعلى هذا الوجه
قالوا، فمانوا فلما ان حدوتهم ... الى القياس ابانوا العجز، واعترفوا

ويعرض المكزون بهذا الخلافات التي شوهت جمال الاسلام ونالت من قدسية الرسالة، وكمال التشريع، فتعددت المذاهب، وتباينت الطرق والمسالك مع ان السبيل الى الله واحد، والشرع واحد.

اذا كان شرع الله في الدين واحداً ... وعن منتهى التفريق فيه نهى الرُّسُلْ
فان سبيل الحق للناس واحد ... وما الغيّ الا في متابعة السُّبل

ويقول:

قل لمن رام للشريعة اتماماً ... أبا لنقص يستتمّ الكمالُ؟؟
أم بفكر لايستقر على حا ... ل، يرينا عين اليقين. . محال

واذا كان «الرأي» حكماً شخصياً، و «الاجتهاد» تأويلاً فردّياً، و «القياس» برهاناً بالمقارنة، واذا كان بعض اهل «الاجماع» «قاس» وبعضهم «اجتهد» وآخر اعتمد «الرأي» وغيره جمع بين «الرأي» و «القياس» فأين «الاجماع»؟؟

وربما بلغ الامر ببعضهم اعتداداً برأيه، وتبجحاً بمذهبيته، وانقياداً لعصبيته، وتحدياً للآخرين ان لايشارك في حوار، ولايدخل في جدال، ولا يرى لغيره حق التعبير عن آرائه وافكاره، وقد اشار المكزون الى هذا النفر من الناس بقوله:

قالوا: لنا قول ماأردنا ... ومالكم فيه أن تقولوا!!
ومن بحق أحق منا ... ومدّعانا لنا الدليل!!
وفي خطانا لنا ثواب ... والله فينا بنا الفعول!!

وفي هذه الثلاثية اشارة الى المجتهد، وضمان ثوابه في خطئه وصوابه، والى القول بالقدر!!

ان «الاجماع» هو «شورى» الامة التي نص عليها الكتاب الكريم، وهي العاصم من الضياع والتشتت، واختلاف الآراء، وتعدد السّبل.

ان الشورى جامعة للكلمة، لامّة للشعث، رائبة للصدع، ناظمة للشتيت محققة للآمال، معززة للكيان، موحدة للأهداف، وهذا مادعا اليه هذا الشاعر، وحض عليه المصلحون في كل زمان ومكان.

ولكن هذه الشورى، أو هذا «الاجماع» لم يتحقق على صعيد «الواقع» وان ادعته «جماعة» فانه «اجماع جماعة» لا اجماع امة.

ونختم هذا البحث المسهب برأي صريح للمكزون:

قالوا الدليل على ان الرشاد لهم ... «اجماعهم» ان من ناواهمُ غاوي
وان حزبهم الحزب القليل، وفي ... كهف التقية كل منهم آوي
ولو تنكر اظهاراً لقدرته ... بما رووه، أبانوا الطعن في الراوي
فليعتبر منصف برهانهم ليرى ... اي الفريقين في اسر الهوى هاوي

العقل والنقل

يقول المكزون:

بني العقل هبوا لأمر عجاب ولكن للعقل عنه نشوز

فئتان كان ـ ولايزال ـ لهما شأنهما وأثرهما في الفكر الاسلامي. فئة «النقل والحرفية والتقليد، واخضاع العقل لسلطان النقل. وفئة العقل والتحرر من الحرفية والتقليد، واحكام سيطرة العقل على النقل.

والاسلام بضوابطه العامة، وكلياته الناظمة متطور باتجاه الحياة الأفضل سعياً الى الأكمل.

وقاعدة: لا اجتهاد مع وجود النص التي تعتمدها فئة النقل والحرفية هي قاعدة صحيحة لامماراة فيها، ولا جدل، ولكنها مشروطة ضمناً بأن يكون النص من الكتاب الكريم، والحديث الصحيح، ولكن ماشأن تلك الأحاديث والنصوص التي لم تثبت صحتها ولا تنطبق على القواعد العامة التي تنظم المجتمع الاسلامي؟؟ هل نعتبرها «نصاً» لااجتهاد معه؟؟ وهي كثيرة تتجاوز الألوف عدداً!!

ان الحد من سلطان العقل، وسدّ باب الاجتهاد جرا على الفكر الاسلامي التخلف والجمود، واصاباه بالشلل!!

لقد كرم الله العقل، وحض عليه كثيراً في كتابه، لعلكم تعقلون، لقوم يعقلون، لعلكم تتفكرون، أفلا يتفكرون؟؟ ياأولي الألباب، لأولي الالباب، لعلهم يفقهون، أفلا يفقهون!! لأولى الأبصار، ياأولي الابصار، أولي الذكر، لعلهم يتذكرون، لقوم يتذكرون، ام على قلوب أقفالها؟؟

فلو حكمت الأمة العقل كما نصت عليه هذه الآيات لما تفرقت كلمتها، وتشتّتت

وحـدتها، وكفر بعضها بعضاً، واستجاز بعضها قتل بعض بفعل مذهبية ضيقة، وتقليد لاينفـذ اليه نور العقـل، وجمود على حرفية لاتقر حركية الحياة، ونقل لانعرف ـ احياناً ـ صحته من زيفه.

ولئن كانت قاعدة: «لا اجتهاد مع وجود النص يعتمدها الحرفيون التقليديون ويرون انها تدعم النقل ـ كل النقل ـ فان قاعدة: تغير الاحكام بتغير الزمان تدعم حكم العقل.

واذا رجعنـا الى ناسـخ القرآن ومنسوخه ادركنا ان الاسلام نهج متطور في الحياة، وحركية تأبى الجمود، وتدعو الى التجديد.. ماننسخ من آية، او ننسها، نأت بخير منها[1] فاذا كان نسخ بعض الاحكام «الآيات» وقع خلال ٢٣ عاماً وهي مدة نزول الاحكام ـ نزول القرآن ـ فما بالك بأحاديث واخبار وآثار مرّ عليها قرابة ١٤ قرناً وظلت محتفظة بقدسية مفـروضة مع انها وضعت لزمان ومكان، هذا اذا لم يكن أدخلها «الوضّاعون» لتحقيق اغراض سياسية، او دينية، او مذهبية او قبلية، او شعوبية!!

ألم يقل الرسول الكريم لاصحابه: انتم ادرى بشؤون دنياكم، وهو المشرع الأول لتأتي الاحكام وفق مقتضيات الزمن، وحاجة المسلمين؟؟

الم يسأل معاذ بن جبل عندما وجهه والياً على اليمن بماذا تقضي؟؟ فأجاب بما في كتاب الله، وبما قضى به رسوله، قال: فان لم تجد، قال: أقضي برأيي، فقال الرسول: الحمد لله الذي وفق رسولَ رسوله.

والقضاء بـ «الرأي» هو تحكيم العقل في القضايا، والاحتكام اليه في غياب «النص» ومراعاة روح الزمان والمكان، وهذا ماندعوه: بتقدير ظروف الحادثة.

هذا الخليفة عمر بن الخطاب يلجئه الظرف لأن يطور الشرع، ويستعمل العقل مع وجود «النص» فيقول على مسمع من الصحابة وعموم المسلمين: متعتان كانتا على عهد رسول الله، واني محرمهما عليكم.

ألم يمنع قطع يد السارق عام المجاعة مع وجود «النص» لما تعرض له الناس من الضر والفاقة والجوع؟؟

(١) راجع تفسير هذه الآية في الجلالين، وفي مجمع البيان للطبرسي، وفي تفسير النسفي.

ألم يحل دون توزيع الاراضي الزراعية على الفاتحين في البلاد المفتوحة مراعاة لمشاعر المغلوبين؟؟

وهذا ابو حنيفة مؤسس مدرسة «الرأي» في العراق هذه المدرسة التي تقوم اركانها على تحكيم العقل، والاعتماد عليه، وتضييق دائرة «النقل» لما داخله من «الوضع» وطرأ عليه من الشك، ولارتباطه باهل المدينة وبيئة الحجاز المحدودة، وبعدها عن الحضارة، وتأثرها بالبداوة(٢)

والى القراء امثلة من «النقل» التي تشكك العلماء فيها لعدم اطمئنان العقل اليها.

١ - روى البخاري عن ابي هريرة ان ملك الموت نزل ليقبض روح موسى فصكه، ففقأ عينه فرجع الملك الى الله قائلاً: ارسلتني الى عبد لايريد الموت، ففقأ عيني، فرد الله عليه عينه وقال: ارجع وقل له: ليضع يده على جلد ثور وله بكل شعرة غطتها يده عمر سنة(١) وتقدم ايراد هذا الحديث.

واليد كما سبق وقلنا تغطي الوفاً من الشعر وعمر موسى معروف.

٢ - ويروي ايضاً بسنده عن ام المؤمنين عائشة: ان النبي مكث كذا وكذا لايأتي أهله، ويخيل اليه أنه يأتي الى ان قال: ياعائشة ان الله افتاني في امر استفتيته فيه، أتاني رجلان فقال احدهما: مابال الرجل؟؟ فقال الثاني: مطبوب، أي مسحور، فقال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن اعصم اليهودي، فشفيت.

هذه الرواية تشير الى ان النبي أصيب بفقدان الذاكرة، أو مرض الفصام، واذا كان الامر كذلك فما هو حال الوحي خلال هذه المدة التي فقد بها النبي ذاكرته على ذمة الرواية، ومامقدار الثقة بالوحي الذي انزل عليه خلالها؟؟

اننا لنكرم قدر رسول المسلمين، وخاتم النبيين عن هذا الافك المبين

٣ - يقول ابن حزم: اذا ولغ كلب في الاناء، كلب صيد، او غيره، صغيراً، أم

---

(١) البخاري ج٤ ص ١٦٤ وتقدم ذكر هذا الحديث

(٢) المحلى ١/١٠٩ لابن حزم الاندلسي

كبيراً، فيجب اهراق مافيه كائناً ماكان، ثم يغسل بالماء سبع مرات ولابدّ، أولاهنّ بالماء مع التراب ولابدّ، وذلك الماء الذي يطهر به الاناء طاهر حلال.

ولكن اذا اكل الكلب في الاناء، ولم يلغ فيه، او اذا ادخل فيه رجله، أو ذنبه، أو وقع بكله فيه لم يلزم غسل الاناء، ولا هرق مافيه، وهو طاهر حلال كله، كما كان.

وكذلك اذا ولغ الكلب في بقعة من الارض. او في يد انسان، او في مالا يسمى اناء فلا يلزم غسل شيء من ذلك، ولا هرق مافيه.

وتعليل ابن حزم هذا وارد في كتابه «المحلى» ١/١١١ كما يلي: الماء الذي يغسل فيه الاناء طاهر لأنه لم يأت «نص» باجتنابه، ، ولا شريعة الا ماأخبرنا به عليه السلام.[٢]

٤ ـ وجاء لأبي داوود استاذ ابن حزم، ورئيس المذهب الظاهري، وهو اصفهاني ت سنة ٢٧٠ هـ قوله: بول كل حيوان ونجوه سواء أكل لحمه ام لم يوكل فهو طاهر حاشا بول الانسان ونجوه فهما نجسان!![٣]

وجاء عن ابن عباس (حبر الامة) ان الشمس تنخس، وتضرب لتشرق وترمى بالثلج من ملائكة موكلون بذلك وروى هذا ابو يعلى والطبراني وجاء في «مجمع الزوائد» وورد عند ابن كثير في تفسيره ص ٧ج٤[٤]

ولقد تهكم المعري باسلوبه الساخر اللاذع بهذا الحديث المفتري

لقد كذبوا حتى على الشمس انها تهان اذا جاء الشروق وتضرب

وروى أبو هريرة: اذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله. . .[٥]

وروي عنه حديث: اذا سقط الذباب في اناء احدكم فليغمسه كلّه. . الخ

ونسوق ايضاً نماذج من «النقل» اوردها رضي الدين الطبرسي من اعلام القرن السادس الهجري:

---

(٣) المحلى ١٦٩ ـ عمر فروخ ١٣١

(٤) اضواء على السنة المحمدية ص ٢٢٧

(٥) اخرجه الشيخان راجح البخاري ص ج

١ ـ قال ابـو عبد الله ـ والمقصود به جعفر الصادق ـ: من أكل سبع ورقات من الهندباء يوم الجمعة قبل الصلاة دخل الجنة!!(٦)

قلنا: اذن فالحيوانات اسرع من الناس الى دخول الجنة لانها تتغذى بالاعشاب ومنها الهنـدباء، وفي كل ايام الاسبوع، وللحيوانات صلاتها، وان من شيء الايسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم.

٢ ـ قال الباقر: ان رسول الله شكى الى ربه وجع ظهره فأمره ان يأكل اللحم بالبر، يعني الهريسة(٧)

٣ ـ قال النبي: نزل جبريل فأمرني بأكل الهريسة لاشد بها ظهري، وأقوى على عبادة ربي(٨)

٤ ـ جاء في كتاب «الجامع» لابي جعفر الاشعري عن الرضا قوله: مابعث الله نبياً الا وفي يده سفرجلة

٥ ـ عن علي عن النبي من اكل لقمة من البطيخ كتب الله له سبعين الف حسنة، ومحا عنه سبعين الف سيئة. ورفع له سبعين الف درجة(٥)

قلنا: اذن اكل البطيخ يجتزيء به الانسان عن القيام بكل المفترضات.

ولما كان اصحاب الرسول كلهم عدول، او اهل عدل عند كل المسلمين. وكان الائمة من سلالة علي وفاطمة كلهم معصومين او اهل عصمة عند جمهور كبير من المسلمين، فان على المؤمنين بهذه العدالة وهذه العصمة ان يعلموا ان هذه الاحاديث لاتليق بعدالة اولئك وعصمة هولاء.

ونمسك القلم عن الاسترسال في ايراد هذه الاباطيل ـ الاضاحيك ـ الترهات، وهي اكثر من أن تحصى، واوسع من ان تستقصي، جاء بها «النقل» المنفلت من رقابة «العقل» والتقليد الأعمى، لايقبلها عقل صريح ولا يؤيدها علم صحيح.

وهذا ماحدا بشاعرنا المكزون الى القول:

بني الـعـقـل هبـوا لامـر عجـاب ولـكـن للعـقـل عنـه نشـوز

ويقول:

(٦) مكارم الاخلاق للطبرسي ص ١٧٧ مؤسسة الاعلى ـ لبنان

(٧) (٨) المصدر السابق ص ١٦٣ ص ١٧٢ ص ١٨٤

غيري لموثق عهد حبك ينكث ... وبه يقاسم عاشقيك، ويحنث
ويغر غرّ «الناقلين» بنشره ... عنك الحديث، وعن سواك يحدث

ويقول والشاهد في البيت الاخير:

ليس وصف الفضل فضلاً ... للذي لم يبد منه
وكذا بالعلم لايوصف ... من لم يرو عنه
وغبي الناس من يروي ... الذي لم يستبنه

ويقول:

العقل في جوهره واحد ... وعنه يبدو النفع والضر
مثل شعاع الشمس في بدرها ... برد، ومنه في الثرى الحرُّ

وصدق الشاعر ان أغبى الناس من يروي شيئاً لم يستبن صحته من زيفه، ولم يستضيء بنور العقل يهتدي به من ظلام الجهل.

وقال المعري:

جاءت أحاديث ان صحت فان لها ... شأناً، ولكن فيها ضعف اسناد
فشاور العقل، واترك غيره هدراً ... فالعقل خير مشير ضمه النادي

وقال:

اما في الناس من رجل لبيب ... يميز بين ايمان وكفر؟
وجدت اباك مفترياً حديثاً ... وانت على مقص الشيخ تفري

وأخيراً قال المعري:

لوقال ذئب غضاً بعثت لامة ... من عند ربي، قال بعضهم: نعم!!!

المكزون وعلم الكلام

علم الكلام، أو علم أصول الدين[1] او علم النظر والاستدلال، او الفقه الاكبر[2] او علم التوحيد والصفات[3] هو علم لاثبات العقائد على الغير.

لقد توصل علماء الاسلام الى علم يتوصل به الى اعلاء كلمة الحق، ولم يرضوا ان يكونوا محتاجين معه الى علم آخر أصلاً.

علم قيل فيه: انه يوضح الحجة، ويلزم المعاندين باقامة الحجة عليهم. ويدور النظر فيه على محض العقل في التحسين والتقبيح. والاحالة والتصحيح، والايجاب والتجويز، والاقتدار والتعديل، والتجوير والتوحيد، والتفكير.

ولقد قام الحنابلة بحملة ضد علم الكلام بدأها احمد بن حنبل، فقد أعلن في المناظرة التي جرت بينه وبين ابن ابي دؤاد في حضرة المعتصم قائلاً: لست انا صاحب كلام، وانما مذهبي الحديث.

كذلك ينسب اليه انه قال: لايفلح صاحب كلام ابداً، ولايرى أحد نظر في الكلام الا وفي قلبه دغل[4]

وممن ذم علم الكلام ابو عمر بن عبد البر ٣٦٣ هـ[5] وعبد الله الهروي[6] ٤٨١ هـ وموفق الدين بن قدامة المقدسي ٦٢٠ هـ[7]

وجاء ابو الحسن الاشعري في اوائل من رد على الحنابلة في ذمهم على الكلام[8]

---

(١) الكشاف للتهانوي

(٢) ابو حنيفة

(٣) مجمع السلوك.

(٤) طبقات المعتزلة لاحمد بن يحيى المرتضى ص ١٢٥

(٥) جامع بيان العلم لابن عبد البر

(٦) في كتابه ذم علم الكلام.

(٧) تحريم النظر في كتب اهل الكلام.

(٨) في رسالته استحسان الخوض في علم الكلام.

فقـال: ان طائفة من الناس جعلوا الجهل راس مالهم، وثقل عليهم النظر والبحث عن الدين، ومالوا الى التخفيف والتقليد، وطعنوا على من فتش عن أصول الدين، ونسبوه الى الضلال، وزعموا ان الكلام في الحركة والسكون، والجسم والعرض، والالوان والاكوان، والجزء والطفرة، وصفات الباري بدعة وضلالة. . الخ

ولقـد أطلق علماء المسلمـين على كل مايفيد معـرفـة الاحكام العملية عن ادلتها التفصيلية اسم «علم الفقه». .

وعلى معرفة العقائد من أدلتها اسم «علم الكلام».

وعلى معرفة اصول الادلة اجمالاً في افادتها الأحكام اسم «اصول الفقه».

ولقد عرف المشتغلون بعلم الكلام بالمتكلمين.

ويروى عن مالك بن أنس ١٧٩ هـ انه قال: اياكم والبدع!! قيل: ومالبدع يااابا عبـد الله؟؟ قال: اهـل البدع الذين يتكلمون في اسماء الله وصفاته، وكلامه، وعلمه وقدرته، ولايسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم باحسان.

وروى عن ابي حنيفة المتوفى سنة ١٥٠ هـ انه قال: لعن الله عمرو بن عبيد فانه فتح للناس الطريق الى الكلام فيما لايعنيهم!!

ومن قول مالك بن أنس ايضاً: الكلام في الدين اكرهه، ولم يزل اهل بلدنا يقصد المدينة ـ يكرهونه، وينهون عنه، نحو الكلام في رأيّ جهم[1] والقدر وما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام الا ماكان تحته عمل.

فالكـلام اذن مقـابـل العمـل، والمتكلمون قوم يقولون في امور ليس تحتها عمل فكلامهم نظري لفظي لايتعلق به فعل، انه انشاءات ذهنية بخلاف اقوال الفقهاء الباحثين في الاحكام الشرعية العملية.

ولعل من أولى الدوافع لايجاد علم الكلام لدى المسلمين هو انتشار البدع والشُّبه،

(١) يقصد جهم بن صفوان.

والتشكيك بما عليه المسلمون وجاء به الاسلام من الفطرة، واليسر والبساطة والتسليم في امور الدين، وذلك من بعض الحاقدين على الاسلام، العاملين على الكيد له، والانتقاص من كماله.

كما ان انتشار منطق ارسطو، وفلسفة اليونان، واستخدام اهل البدع لهذا السلاح ـ سلاح المنطق والفلسفة ـ بعد حركة الترجمة ألجأ علماء المسلمين الى تعزيز مكانة هذا العلم ـ علم الكلام ـ للدفاع عن العقيدة، والابتعاد عن المنطق اليوناني، ولكن علم الكلام انتهى الى الفلسفة كما انتهى اليها التصوّف.

واذا رجعنا الى ماحفظه لنا التاريخ نجد ان هناك على الحدود السورية العراقية قامت اربع مدارس اثنتان للنساطرة السريان[1] وهما مدرسة نصيبين الاولى، ومدرسة الرها، واثنتان لليعاقبة[2] وهما مدرسة رأس العين، ومدرسة قنسرين وكلها تعني باللاهوث المسيحي والفلسفة والبحث في طبيعة السيد المسيح.

كما ان الدولة الفارسية سمحت للنساطرة باعادة مدرسة نصيبين الثانية بعد ان اغلقت الدولة البيزنطية مدرسة الرها، كما سمحت لهم ايضاً بافتتاح مدرسة جنديسابور في خوزستان.

وبهذه المدارس استطاعت المسيحية ان تحصن عقائدها بالفلسفة، ولما انتشرت المناظرات بين المسيحية والاسلام حول الكثير من القضايا العقائدية والفكرية وجد المسلمون انفسهم ضعافاً تجاه المنطق الفلسفي الذي يتحلى به علماء المسيحية لان روايات

(١) النساطرة نسبة الى نسطوريوس ٤٥١ م القائل بان في السيد المسيح طبيعتين، واقنومين في شخص واحد، وان لاهوت السيد المسيح لبس الناسوت، وان الناسوت صار هيكلا للاهوث، وان مريم لايجوز ان تدعى ام الله، بل ام المسيح الاله، لانها لم تلد اللاهوت بل ولدت شخصاً هو آله وانسان معاً.

وقد هب قورلس الاسكندري وعقد مجمع مسكوني في افسس عام ٤٣١م وحرم الاساقفة نسطورس وتعاليمه، وعزلوه من منصبه.

وعقد بطريرك انطاكية مجمعاً مسكونياً في افسس ايضاً وحرم قورلس واصحابه. وانفصلت الكنيسة الشرقية الارثوذكسية عن الكنيسة الغربية سنة ١٠٥٤ ايام ميخائيل كيرولارس بطريرك القسطنطينية.

(٢) هم اتباع يعقوب البرادعي اسقف الرها ٥٤١ ـ ٥٧٨م واليه تنسب طائفة اليعاقبة وهم المونوفيزيون السريان

«النقل» لاتقيم الحجة على الخصم، ولاتوصله للاقناع والاقتناع.

وعلم الكلام الذي ابتكره المسلمون لم يكفهم في هذا المجال، فاضطروا الى ترجمة المنطق اليوناني ودراسته، والعمل به، فنشأ جيل من الفلاسفة أخذ على نفسه الدفاع عن العقائد الاسلامية، ونخص بهم المعتزلة الذين اغنوا الاسلام بما قدموه من كتب، وعززوا شأنه بما حققوه من غلبة على خصومهم بعد ان استخدموا منطق ارسطو وبراهينه واقيسته.

ولذلك نجد منطق ارسطو يسيطر على كل فكر المكزون وشعره في حين «لانجده يستعمل علم الكلام، بل يذمه كما ذمّه ابن حنبل، وابن عبد البر، والهروي، وموفق الدين بن قدامة المقدسي.

يقول المكزون:

أغبى الورى من لايرى نفسه تخصّه[1] الا برأي العوام
وأبعد الخلق عن الحق من يحاول الحق يعلم الكلام

فالمكزون كفقيه يدافع عن العقائد الاسلامية ضد السكوك والبدع لم يستعمل علم الكلام في دفاعه، ولم يقره، بل أنكره، ونددّ به، واعتبر مستعمليه أبعد الخلق عن الحق.

ولكنه يعتمد في الحجة والبرهان بعد الكتاب والسنة على المنطق الارسطي وربما جاء هذا الاعتماد على المنطق من أثر وتأثير الافلاطونية الحديثة على فلاسفة المسلمين وهو واحد منهم، لابل في طليعتهم.

وفي المسائل الاعتقادية، وصفات الباري يرتفع عن مصاف المنطقيين، الذين يعتمدون المقدمات المنطقية للوصول الى النتيجة وهي اليقين الناتج عن البرهان كما يجانب جدل المتكلمين وانشاءاتهم الذهنية فيأتي بما يقصر عنه هؤلاء ويعجز عنه أولئك، ويلحق كل صفات الكمال بالخالق بتجريده من كل وصف فيقول:

(١) في كل النسخ جاءت «تخصه» بالخاء الفوقية بعدها صاد ونرى انها «تحضّه» بالحاء المهملة يليها ضاد معجمة

اذا وصف العشاق معنى جمالكم فتجريده عن كل وصف له وصفي
وان عبروا باللطف عنه، فانني اقول: معيد اللطف جل عن اللطف
وان عرفوه بالأسامي، فانما به للأسامي والكنى تم لي عرفي

ومع انه يلتقي مع احمد بن حنبل واصحابه في ذم علم الكلام، فانه ينفرد عنهم بالاعتماد على المنطق الارسطي الذي انقسم فيه علماء المسلمين الى قسمين: فمنكر يحرم الاشتغال فيه، وراغب يعتمد عليه في حجاجه.

وللتدليل على اشتغال المكزون بمنطق ارسطو واعتماده عليه، وتبحره في خفاياه، وصه على دقائقه نقدم للقراء احدى قصائده التي تعتبر بحق متناً في علم المنطق، وغيره من علوم ذلك العصر.

ولا يفوتن القارىء، ولايغربنّ عن ذهنه ان استخدام المكزون لمبادىء العلوم من منطق ورياضيات، وطبيعة وهيئة انما يحملها اسراراً ورموزاً صوفية، وهذه خصيصة ينفرد بها هذا الشاعر العالم العارف الفقيه.

ان كل مصطلح علمي عنده يستبطن رمزاً صوفياً، ولايستظهره الا العالمون بمصطلحات وخفايا تلك الرموز.

يقول المكزون:

آ ـ في المنطق

١ ـ هب منطقي سمعك ياوهب وعج به يبدو لك العجبُ
٢ ـ واستشعر العلم بشعري، فمن شرحي له في خطبي خطب
٣ ـ لأنه لازم تضمينه دلالة طابقها اللبُّ
٤ ـ تصوري تصديق اهل النهى لذا بديهيّ لهم كسبُ
٥ ـ وحدّ رسمي في مثالي له مقدم في البدو لايصبو

٦ ـ وفيه برهاني عياناً فلا ... يختص عن عين به قلبُ
٧ ـ وقولي الشارح لي حجة ... على الورى يقضي به الندبُ
٨ ـ فكل ماصحح منقوله ... فمن مقولاتي هو الضربُ
٩ ـ فواجب الممكن من جوهري ... ممتنع عن عرض ينبو
١٠ ـ ونوع جنسي فصله خصّني ... منه بسرّ سهله صعب
١١ ـ لأن ابني في مدى الدهر للعالم ... فيه الماء والعشب
١٢ ـ وكل مالي فمضاف الى ... فعلي، وفيَّ انفعل الربّ
١٣ ـ وكل محمول على غيرموْ ... ضوعي، ففي ايجابه السّلب
١٤ ـ وكل جزئي فكليه ... جزء لما خوله الحبّ
١٥ ـ لذا قياسي طرده منتج ... عكساً نقيضاً صدقه كذبُ

ب في الهندسة والهيئة :

١٦ ـ ونقطتي شكل لخط غدا ... دائرة شكل لها القطب
١٧ ـ والفلك الاطلس لي مركز ... به محيط مني الترب
١٨ ـ وفوق تحتي لي إمام ورا ... مشرقه يبدو لك الغرب
١٩ ـ وتحت تربي ماءُ بحر على ... هواه ناز النور لاتخبو
٢٠ ـ بسائط مفروض تركيبها التاسع ... مامُني به القلب
٢١ ـ وعرض مافي عمقه طوله ... به المدى نقطته الحقب
٢٢ ـ فعنه ماضاق الملا والخلا ... في بعض كل منزل رحب
٢٣ ـ وفي يميني اليمن، واليسر في ... اليسرى، وفي الوصل والحب

ج في اللغة والحساب

٢٤ - ونحوي المعرب من كل اعجامٍ ، وفيه تُلحن العرب
٢٥ - اسم لمعنى فعله حرفه بجره رفع به النّصْبُ
٢٦ - تثلثيه مظهر تربيعه المضمر في زاوية جنب
٢٧ - وفي حساب الحرف من اول التربيع تثليث هو الحسبُ
٢٨ - وكل معتلّ صحيح به إذا غدا السقم بدا الطب
٢٩ - وجمعه السالم من كل تكسير له في القسمة الضرب
٣٠ - لو رأى مبتدئي عاتب لم يثنه عن خبري التعتب
٣١ - وجبر كسري ضم فتح به قابلني في وفقها الحبّ
٣٢ - فنعم لي وصف وبئس الفتى من ماله من مشربي شرب

د - في الحساب أيضاً

٣٣ - لأن من مالي ما بالربى اخراجه في شعبه يربو
٣٤ - بالعدد الكامل لما بدا تمت له في الدائر الحجب
٣٥ - وصار مالاً وهو فرد بلا جذر، ولا مال له كعب
٣٦ - وارتفع الزائد في زائد بداية، وهو لها عقبْ
٣٧ - فآخر الاسبوع من شهره اول أمن امّه الرعب
٣٨ - فخذ حديثي عن قديمي بلا شوب بما زوره الخب

هـ أغراض متفرقة:

٣٩ ـ فلي شراب عذبه مالح ... له شراب ملحه عذب
٤٠ ـ والبدع من حالي اني به ... الصادي، وعني يصدر الركب
٤١ ـ ولي محل في ثراه الثرى ... ماحلّه محل، ولا جدب

٤٢ ـ مارامه الرامي بسهم ولا ... في الرأس منه غمد العضب
٤٣ ـ فظله للناس مأوى وللأنعام ... فيه الماء والعشب
٤٤ ـ لم يعدُ فيه أسدٌ حدّه ... الا أراه حتفه الكلبُ
٤٥ ـ فيه زفيري محرق مورق ... به يكون الجدب والخصب
٤٦ ـ تصعيده تقطير مافي الحشا ... وطله ماتهطل السُّحب
٤٧ ـ فاجنح الى سلمي تفز سالماً ... مما على حربي جنى الحربُ
٤٨ ـ من واجد كرباً على حبه ... عن قلبه لافُرّج الكرب
٤٩ ـ وشارب من آجن لم ينل ... ريّاً، وقد اجهده الشرب
٥٠ ـ ومحسن في قوله ظاهراً ... وليس في باطنه لبّ
٥١ ـ ومدعي القرب الى ربه ... ومنه للبعد بدا القرب
٥٢ ـ كمستسن الزور أو رافض ... السنة، مقرون به السّبّ
٥٣ ـ يقول ابراهيم لي والد ... وهو بأصنام العدى صبّ

وهكذا تمضي هذه القصيدة العجيبة الغريبة حافلة بمبادىء العلوم، مشحونة بالرموز، مملوءة بالغرائب، شامسة بتلك المعاني التي لايستطيع تذليلها، وبيان اسقاطاتها، الا قلّة قليلة، وقليلة جداً من المختصين.

المنتظر والرجعة

يقول المكزون:

دحيـة والـليلة من عنعنها من آدم حتـى الامـام «المـنـتـظر»

ودحية بن خليفة الكلبي قيل ان جبريل تمثل للنبي في صورته، والامام «المنتظر» هو محمد بن الحسن الامام الثاني عشر «منتظر» الشيعة الامامية الاثني عشرية الذي سيملأ الارض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

ماذا يقول التاريخ؟؟

ليست دعوى «المنتظر» والدعوة اليها، والايمان بها مقصورة ومحصورة بالشيعة الاثني عشرية كما يظن ويدّعي البعض، ولكنها دعوى ودعوة، وفكرة وعقيدة، قديمة في التاريخ.

ظهرت هذه الفكرة ـ أول ماظهرت ـ في التاريخ عند اليهود كما جاء في التوراة كتابهم المقدس، ايام الاستعباد والتشريد والنفي والسبي الى بابل، وهدم هيكلهم، وتعطيل مقدساتهم، والحاق ضروب العسف والاضطهاد بهم، فتطلعوا الى المسيح «المنتظر» وبشّر كهانهم واحبارهم بمجيء «المخلص» الذي يرفع عنهم ذل الاسترقاق، ويزيل عن أعناقهم نير العبودية، ويحرّرهم من أسرهم المهين، ويعيد امجاد ملوك اسرائيل، وشريعة أنبيائهم، كما قالوا بـ «رجعة» «الياهو» الذي رفع الى السماء ليملأ الارض عدلاً(٢)

وقالوا: ان «اخنوخ» ـ ادريس» رفع الى السماء وسيعود، وأخنوخ قبل مولد المسيح ٣٣٨٢ سنة، كما قالوا: ان هرون سيرجع.

وجاء في سفر اشعيا الاصحاح الحادي عشر مايلي:

ويخرج قضيب من جذع «يسّى»(٣) وينبعث غصن من أصوله، ويحلُّ عليه روح

(٢) سفر التكوين ٥ ـ ٢٤ وسفر الملوك ٢ ـ ١

(٣) يسّى: احد اجداد المسيح

الرب، روح الحكمة والفهم، روح الثورة والقوة، روح المعرفة، ومخافة الرب، ولذته تكون في مخافة الرب، ولايقضي بحسب نظر عينيه، ولا يحكم بحسب سمع أذنيه،

بل يقضي بالعدل للمساكين، ويحكم بالانصاف للبائسين في الأرض، ويضرب الارض بقضيب فمه، ويجتث المنافقين بنفخة من شفتيه، ويكون البرّ منطقة متنيه، والأمانة منطقة حقويه، فيسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي والعجل، والشبلُ والمسّمن معاً، وصبي صغير يسوقها، والبقرة والدبة يرعيان وتربض اولادهما معاً، والاسد كالبقر يأكل تبناً، ويلعب الرضيع على سرب الصل، ويمد الفطيم يده في جحر الافعوان، ويكون في ذلك اليوم ان أصلَ «يسّى» القائم راية للشعوب اياه تطلب الامم، ويكون محله مجداً، ويكون في ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ليقتني بقية شعبه التي بقيت من آشور، ومن مصر، ومن فنزوس، ومن كوش، ومن عيلام، ومن شنعار، ومن حماه، ومن جزائر البحر.

وفي هذا القول تشابه كبير، وتطابق بين أقوال «البعض» في «المنتظر» وأوصاف اعماله، ومانتنتظر الأرض على يده:

وهكذا نرى ان هذا الشعب المضطهد من كل الشعوب، وعلى مرور أجيال وأجيال قد كثر لديه «المنتظرون» وتعدد في خياله «المخلّصون» والذين سيرجعون.

كثر أولئك بقدر ماكثرت كوارثه، وتعدّدت نكباته ومآسيه.

وفي انجيل متى جاء في الاصحاح الثالث:

وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برّية اليهودية قائلاً: توبوا لانه قد اقترب ملكوت السماوات، فان هذا الذي قيل عنه باشعيا النبي القائل: صوت صارخ في البرّية أعدوا طريق الرب، اصنعوا سبله مستقيمة.

ثم يقول بنفس الاصحاح: ياأولاد الافاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي فاصنعوا ثماراً تليق بالتوبة، ولا تفكروا ان تقولوا في نفوسكم لنا ابراهيم أبٌ، لاني أقول لكم: ان الله قادر ان يقيم من هذه الحجارة اولاداً لابراهيم، والآن وقد وضعت الفأس على أصل الشجرة فكل شجرة لاتصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار، انا أعمدكم بماء

للتوبة، ولكن «الذي» يأتي من بعدي هو أقوى مني، الذي لست أهلاً ان أحلّ حذاءه، هو سيغمدكم بروح القدس ونار، الذي رفشه في يده، وسينقي بيدره، ويجمع قمحه الى المخزن، واما التبن فيحرقه بنار لاتطفأ.

وجاء هذا القول في انجيل مرقص، كما ورد في انجيل لوقا في الاصحاح الثالث، وكذلك في انجيل يوحنا مع الزيادة في الاصحاح الأول.

ورؤيا يوحنا اللاهوتي «تندرج في باب التبشير والبشارة بـ «الذي سيأتي» والذي هو الألف والياء، او البداية والنهاية.

وفي الاسلام بشر السفيانيون بـ «السفياني» «المنتظر» بعدما ازال المروانيون حكمهم، وادالوا ملكهم، ولعل اول من قال بذلك هو خالد بن يزيد بن معاوية ليجمع الناس حوله بعد ان غلبه مروان بن الحكم على الملك وتزوج أمّه.

وقال الكيسانية برجوع محمد بن الحنفية وفي ذلك يقول شاعرهم كثير عزة:

الا ان الائمة من قريش أهالي البيت اربعة سواء
علي، والثلاثة من بنيه هم الاسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط ايمان وبرّ وسبط غيبته كربلاء
وسبط لايذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيّب لايرام له مكان برضوى عنده عسَل وماء

كما قالت الجارودية برجعة محمد بن عبد الله الامام.

وزعم القحطانيون ان لهم «مهديّاً» عندما غلبوا على أمرهم، واستجابت لهم العصبية، ولعل المهلب بن ابي صفرة أعلن ذلك في ثورته عام ١٠٢ هـ

وهذا ابن خلدون على تشدده على الشيعة يورد في مقدمته مانصه:

اعلم ان من المشهور بين الكافة والعامة من أهل الاسلام على ممر الأعصار.

انه لابدّ في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل،

ويتبعه المسلمون، ويسمي بـ «المهدي» ثم يقول:

ان جماعة من الائمة خرجوا أحاديث «المهدي» منهم الترمذي، وأبو داؤود، والبزاز وابن ماجه، والحاكم، والطبراني وأبو يعلى الموصلي، وأسندوها الى جماعة من الصحابة منهم علي بن ابي طالب، وابن عمر، وطلحة وابن مسعود، وابو هريرة، وأنس، وابو سعيد الخدري، وام حبيبة، وام سلمة، وثوبان، وقرة بن أياس، وعلي الهلالي. وعبد الله بن الحارث،

ثم يورد الأحاديث الواردة في «المهدي» معنعنة، ثم يعقب على ذلك بنقضها، والتشكك بروايتها ورواتها بالتضعيف حيناً، وبالجرح والنفي أحياناً.

ثم يتناول القائلين بـ «المهدي» من الصوفية فيقول: انهم شاركوا «الامامية» و «الرافضة» في الحلول، والوحدة، والقول بحلول الألوهية، والابدال، والقطب، والنقباء، ولبس الخرقة.

وكما يرى القارىء ان ابن خلدون يناقض اراءه، فهو يرى ان الكافة والعامة من أهل الاسلام يؤمنون بمجيء رجل من اهل البيت في آخر الزمان يؤيد الدين، ويظهر العدل، ويتبعه المسلمون، ثم يعدّد الأئمة الذين خرّجوا الأحاديث في «المهدي» ثم نراه أخيراً يخرج على كل هؤلاء الأئمة بنقض آرائهم وأحاديثهم والتشكيك فيها.

ولايكتفي بالخروج على هؤلاء الأئمة وتجريحهم بتضعيف أحاديثهم بل يربط آراء الصوفية القائلين بـ «المهدي» بالحلول، وتجسيد الاله، والوحدة، والابدال، والقطب، والنقباء، وحتى لبس الخرقة.

واكثر من تكلم من المتصوفة في هذا الباب ـ باب الفاطمي المنتظر ـ ابن عربي في كتابه «عنقاء مغرب» وابن قسيّ في كتابه «خلع النعلين» وعبد الحق بن سبعين، وتلميذه ابن ابي واصل.

وجاء في كتاب الفتاوى الحديثة لابن حجر الهيثمي عن ابي جعفر الاسكافي عن النبي: من كذب بالدجال فقد كفر ومن كذب بالمهدي فقد كفر[1]

(١) الامام المنتظر للسيد محمد الكاظمي القزويني ص ٦٠

هذه نظرية «المنتظر» في اليهودية والمسيحية، وعند بعض رجالات الاسلام، والكثير من الفرق والفئات المتعددة، فماذا يقول العلم؟؟

تختلف نظرية علماء النفس والاجتماع في هذا الموضوع عن نظرية الاديان اختلافاً كلياً، وجوهرياً، ويخرجونها من حكم الغيب، وعالم الآمال والعواطف الى حكم المنطق والعقل والواقع.

فالعقل المعاصر، ومن خلال علم النفس الاجتماعي يرى ان هذه «التوقعات» والتصورات الغيبية مصدرها الكبت، والحرمان، والشعور بالغبن والدونية، والفراغ، والظلم سواء على مستوى الفرد، او الجماعة، فيلجأ «المحرومون» الى «التعويض» عن الاخفاق العام الذي أصابهم بتصور «منقذ» لهم من «واقعهم» المرير، الى «متوقعهم» المنتظر، ليرد اليهم اعتبارهم الانساني والاجتماعي، ويعوضهم عما فقدوه من الآمال، ويملأ نفوسهم بالرجاء، ويجدد لنفوسهم مااضاعته من العزاء، فتستعيد هذه النفوس نشاطها، وتسترجع ايمانها بالحياة، وتخصب امانيها بعد جدب وذبول. فتتابع مسيرة الحياة بقوة وعزيمة وايمان.

ويلحق العقل المعاصر هذه التصورات «باحلام اليقظة» التي ينعم بها الحالم بالمتعة والسعادة، والهناءة والنعمة والأمل. ويعتبر كل ذلك ليس الا خداعاً وهروباً من الواقع.

ولكن بالوقت ذاته يقرر علماء النفس الاجتماعي ان هذه «التصورات» تؤدي خدمة جلى، وتسبغ نعمة كبرى على الانسان الذي لم تؤهله ظروفه وامكاناته للانتصار على الحياة، والتغلب على صعابها، ولم تمكنه من التنعم بملذاتها فيستسلم الى هذه الأحلام اللّاذة!!

وعلى هذا فكل أمل يراود الانسان، وكل رجاء يتوقعه في غده القريب أو البعيد هو بمثابة «منتظر» يعيش بنعمة «انتظاره» وقد تتحقق بعض «التوقعات» اذا كانت في عالم الممكنات.

وفكرة «المثالي» الذي يحكم العالم هي فكرة شاعت عند الساميين منذ القدم، كما قالت بذلك الزاردشنيه، وان الصراع بين الخير والشر ينتهي الى انتصار الخير حيث المساواة والعدالة والرفاه لجميع الناس.

وعلى هذا يظهر لنا وبشكل واضح من تتبع التاريخ ان هناك فريقين من الناس بالنسبة الى هذه القضية ـ قضية المنتظر والانتظار ـ فريق الحاكمين المترفين ذوي السلطة والنعمة والسلطان والرفعة، والشأن فهؤلاء لم يعطنا التاريخ أي مثال وأي دليل على ان لهم «منتظراً» يحيي آمالهم، ويلّون أحلامهم، ويبعث فيهم الرجاء لأن كل ذلك متاح لهم ومحقق لديهم.

وفريق المحكومين المحرومين من متع الحياة، ولذائذ السلطة، المغلوبين على أمرهم، المنبوذين في مجتمعهم، والمبعدين عن الحكم، والمشاركة في هناءة العيش ومتارفه. فهؤلاء يتوقعون «منقذاً» وينتظرون «مخلّصاً» لينقذهم مما هم فيه، ويخلصهم من واقعهم، و «يعوضهم» مافاتهم، فيستسلمون لهذه التصورات.

ولقد تفنن شعراء الاحزاب والفئات في الاسلام في «المهدي المنتظر» وتوزعوا بين مؤمن به، وجاحد له، وهاجم عليه، ومنافح عنه، ومادح له، وقادح فيه، ومشنع عليه، ومبشر به، حتى خرج الأمر الى التهاجي والملاحاة شأن الكثير من قضايا الخلاف والاختلاف.

ولولا خوف الاطالة لاوردنا الكثير من هذه الأقوال.

والمكزون كمسلم شيعي اثني عشري يذكر في شعره منتظر آل محمد الذي يملأ الارض قسطاً وعدلاً.

وللمكزون اشارات للرجعة والرجعي كما ذكرنا في مطلع هذا البحث ومنها:

قلت: فالتوبة تمحو ذلتي ... قال: للأوبة في الرجعى تهيْ
وسأبدي حجتي بالغة ... بنداء ظاهر من حجتيْ

وله ايضاً والشاهد في البيت الرابع:

لارحت للآمال منك مبلغا ... ان كان لي في قصد غيرك مبتغى
ومتى لقول سواك اضحى مصغياً ... سمعي، فقلبي عن رشادك قد صغا

يامـن به ولهـي ومـن حبـي له ... وسـواه وجـهـي للتـوجـه ماابـتـغـى
عجـل بصـبري فيـك «رجعة» كرتي ... لأذيـق كاس المـوت مهـجـة من بغى
ولـقـد هزمـت الـنـاكـثـين لبـيـعـتي ... لما عقـرت بحـيـهـم جملاً رغـا!!

وفي البيت الاخير اشارة الى طلحة والزبير وحرب الجمل المشهورة في التاريخ[1].

وليس من البعيد القول: ان «الرجعى» التي اشار اليها المكزون هي الرجعى الواردة في القرآن ان الى ربك الرجعى

(١) يقول الفقهاء: ان الباغي على الامام الحق، والخارج عليه بشبهة، او بغير شبهة هو فاسق، فهل الذين خرجوا على علي من كبار الصحابة يدخلون تحت هذا الحكم؟

التقية واسبابها

التقية لغة: مصدر تقي يتقى تقاءً وتقية: استتر به ليصونه من اذى، واصطلاحاً: اتخذت هذه اللفظة معناها الاصطلاحي ولأول مرة في العصر الاموي وفي عهد معاوية بن ابي سفيان على وجه التحديد عندما نازع الخليفة الراشد علي بن أبي طالب أمر الخلافة.

جمع معاوية حوله فئة من مؤيديه والعاملين برأيه، وتحت امرته منهم النعمان بن بشير، ويزيد بن شجرة وعبد الرحمن بن قباث، وزهير بن مكحول، ومسلم بن عقبه، وسفيان بن عوف، وبسر بن ارطاة، والضحاك بن قيس، وسليمان بن عوف الغامدي، وأمدهم بالرجال والسلاح، ووزعهم على اطراف خلافة علي بن ابي طالب، وزودهم بتعليماته بأن يقتلوا انصار علي ومواليه. وكل من يعترف به خليفة.

ومن تعليماتـه لسليمان بن عوف الغـامدي: اني موجهك في جيش كثيف ذي اداة وجـلادة، فاقتـل كل من لقيته ممن ليس على رأيك، واخرب كل ماممررت به من القرى واحرب الأموال فان حربها أوجع للقلوب[1]

بهذا الشعـار: اقتل، اخرب، احرب توزع أولئك الاعوان فأغار بسر على المدينة واحرق عدداً من دورها وقتل طفلين لعبد الله بن العباس[2]

واغـار الضحاك بن قيس الفهري على اعراب الكوفة، وعلى قوافل الحجاج وقتل العبد الصالح عمرو بن عميس بن مسعود ابن اخي عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله.

واغار النعمان بن بشير على عين التمر في العراق.

واغار سليمان بن عوف الغامدي على الانبار

ولقد أشار علي في احدى خطبه الى ماارتكبه سليمان من الجرائم.

---

(١) ابن ابي الحديد شرح نهج البلاغة ١ ـ ص ١٤٤

(٢) ابن حجر في الاصابة

خاطب اهل العراق بقوله: هذا اخو غامد قد بلغت خيله الانبار، وازال خيولكم عن مسالحها، ولقد بلغني ان الرجل منهم يدخل على المرأة المسلمة والاخرى المعاهدة فينتزع حُجلها وقلبها(٢) وقلائدها ورعائها(٣) لاتمتنع عنه الا بالاسترجاع والاسترحام.

وجاءت أفاعيل زياد بن سمية والي معاوية على العراق. واعقب ذلك مقتل حجر بن عدي واصحابه، وقطع راس عمرو بن الحمق، وقطع يدي ورجلي ولسان رشيد الهجري كما فعل ذلك بجويرية بن مسهر العبدي.

وعرف التاريخ القتل صبراً وخنقاً وشنقاً وحرقاً وقطع الايدي والارجل، وسمل العيون، وصلم الآذان، واستلال الالسنة.

وهناك فاجعة كربلاء وموقعة الحرة، واستباحة المدينة.

وجاء العباسيون ولم يكونوا بأقل من سابقيهم تشدداً على الهاشميين وانصارهم من هنا. من هذه الافاعيل جاءت التقية.

فالتقية هي وليدة الظلم والخوف والرعب، وربيبة الجور والاعتساف.

المتقون يظهرون ـ نتيجة الخوف والرعب ـ غير مايبطنون، ويبطنون غير مايظهرون.

التقية ليست عاراً للمتقي، ولكنها عار وشنار وسبة على المتقى منه.

التقية حجة للمحكوم على حاكميه، وللمظلوم على ظالميه.

وتأخذ التقية مع الايام صفة «التمذهب» كما هو الحال عند ذرية اسماعيل بن جعفر الصادق حيث اعتبر اتباعهم ان هناك ائمة كشف، وائمة ستر، وماكان الكشف والستر الا نتيجة الرعب والخوف والملاحقة والتتبع.

فاذا وجدنا عند بعض شعراء الشيعة اشارات ودلالات على هذه «التقية» فلا يعني هذا أنها بدعة في الدين، او شعار يمس بقدسية الشريعة، وانما يعني سلوكاً مفروضاً على المظلوم من الظالم، والمحكوم من الحاكم، وعلى المضهد من مضطهديه.

والمكزون كشاعر من شعراء الشيعة اشار بعض الاشارة الى «التقية» الصوفية، وتعني حفظ اسرار القوم، وصونها عن غير اهلها.

---

(٢) سوارها (٣) قرطها

قالوا: تحدث بالصريح من الحديث بغير رمز
فأجبتهم هل عاقل يرمي الكنوز بغير حرز

قالوا: أشر رمزا الى معنى الهوى ... ان لم تكن بصريحه متلفظا
قلت: اختياري فيه غادرني به ... مستودعا ولسره مستحفظا

مازلت انكر بعد عرفان الهوى ... عند الوشاة على الهوى عرفاني
وأبين عن ولهي بهم ولها به ... حتى كتمت الحب عن كتماني

ودنت كما دان الدعاة لحسنها ... بخلع التقى فيها، وليس التقية
فلذا ادرعت لبك التقى، وخلصت في ... لبسي هواك من الغرام تقيتي[1]

ويقول المتصوفة: ان القرآن الكريم أشار في كثير من الآيات الى «التقية» وحض عليها:

١ ـ قال: يابني لاتقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا. [2]

٢ ـ ابعثوا احدكم بورقكم هذا الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم احدا . . انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم او يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا اذن ابدا [1]

وجاء للسهر وروي القتيل قوله:

وارحمتا للعاشقين تكلفوا ... ستر المحبة والهوى فضاح
بالسر ان باحوا تباح دماؤهم ... وكذا دماء البائحين تباح

(١) ديوان المكزون تحقيق ونشر الدكتور اسعد علي، ومخطوطة الظاهرية والاسكوريال
(٢) سورة يوسف.

ولقد أبيح دمه، ودم الحلاج والنسيمي وغيرهم.

ويقول المكزون أيضاً:

أأكشف حلاً ستره في النهى شرط ... واستر مافي كشفه اتسع الخط
وأعرب اعجام الكتاب لأكمه ... عدا فهمه عن خطه الشكل والنقط

قالوا اكشف الحال المغطى ... فالمشاهد فيه خط
فأجبت من عقل الجواب ... بأن ستر الحال شرط
يحدث عن سواك سواي زوراً ... واكتم عنك ماحدثت صدقاً
لأني لم أجد مثلي كتوماً ... لسرك أن أرى الكتمان حقا

ومن هذا التتبع التاريخي يظهر ان هناك نوعين من التقية:

الاول: هي التقية السياسية خوفاً من القتل والتمثيل واصطفاء الاموال، وهي «التزام اضطراري» فرضتها ظروف القهر والسحق، والرعب على «المتقين» بعد انقسام المسلمين الى معسكرين يتنازعان السلطة، وطغيان احد المعسكرين على المعسكر الثاني، وهي «مذهب سياسي» له ضحايا من الافراد والجماعات عبر التاريخ الاسلامي.

والثاني: هي التقية الصوفية وهي «مذهب سلوكي»، وضحاياها من الأفراد كالحلاج والسهروردي والنسيمي وهي «التزام اختياري».

آراء ودراسات (١)

العمل الكبير . .

البحاثة . . .

قرأت الكنـوز المخبأة متأنياً، متتبعاً أبحاثه، متدرجاً من التاريخ الى التصوف الى الفلسفة فالشعر.

لقد أحسنت التسمية ـ الكنوز المخبأة ـ وأجدت الكشف عن هذه الكنوز، وأتقنت أسلوب التأليف والشرح والاستنتاج.

ظل المكزون ـ على فضله ـ كما ظل ديوانه ـ على خطره ـ مطويين خلف ستار الجهل، ووراء جدار الخوف والاتقاء حتى هيّأ الله لهذا الامر فهدمت جدار الخوف، ومسحت غبار الاهمال والنسيان فتألق وجه المكزون، وبرزت أفكاره في الفلسفة والتصوف والشعر، والفقه، والدين، والتوحيد لتنير العقول، وتجلي " سائر، وتأخذ مكانها في الثقافة الاسلامية الواسعة.

كل هذا كان خبيئاً في زوايا التاريخ، دفيناً في مطاوي النسيان قصداً وعمداً وجهلاً ينتظر من يفتش عن الحقيقة فكأن المكزون كان يعنيك بقوله:

وفي الـــزوايـــا خبـــايـــا ليس يعـــرفهـــا ممـن تعـــاطى الخـفـــايـــا غير فتـــاش

لقد قمت بعملك هذا بجرأة الكاتب، وشجاعة العالم، واخلاص المؤمن، وفهم الباحث، وضمير الحر المخلص للحق والحقيقة و الامة والتاريخ.

لقد أديت أمانة العلم، ووفيت العهد الذي أخذه الله على العلماء. ان استعراضك

(١) وردت مجموعة من الآراء والدراسات نكتفي هنا ببعضها على أن تنشر البقية كملحق للكتاب.

الفلسفة والفلاسفة، والتصوف والمتصوفة، والشعر والشعراء، واجراء المقارنات، وابراز الاشباه والنظائر، والقواسم المشتركة، وتحديد نقاط التباعد، والتلاقي بين هذه الآراء والنظريات، ان هذا كله يجعل القاريء يدرك بيسر وسهولة موقع المكزون الشاعر ـ الفيلسوف ـ الفقيه من الفكر الاسلامي الصحيح ويعين محله بين رعيل الفلاسفة والمتصوفين من أمثال ابن عربي، وابن الفارض وابن رشد والفارابي، وابن سينا، والحلاج والجنيد، والبسطامي، وحتى فلاسفة اليونان كافلاطون، وأرسطو، وسقراط وغيرهم.

كل ذلك بمنطق العلم، وصحة النقل مما يطمن اليه الباحث، ويقتنع به حتى المكابر والمحاج.

ان المكزون يتميز بموقفه عن أضرابه من علماء الاسلام وفلاسفتهم في القضايا الفكرية والاعتقادية الكبرى كالجبر، والتفويض والاختبار، والتناسخ، والصفات، والمحكم والمتشابه، ووحدة الوجود، ومدى ارتباط كل ذلك بالاسلام، أو ابتعاده عنه.

لقد ناقش هذا الفيلسوف الشاعر هذه المشاكل فأقر بعضها، ورفض كثيراً من الشطح والمغالاة ثم جئت أ نت فدلّلت على ذلك فظهرت جلية واضحة مصفاة من الغموض واللبس والالتباس.

ان عملك هذا لايباري فيه، ولا يتنكر له الا واحد من اثنين: جاهلٌ، متزمت، قصير النظر، يعيش منطوياً على ذاته، تجاوزه الزمن، لايسير مع التاريخ باتجاه الحياة، أو حاسد يضيق ذرعاً وعطناً بما أعطاك الله فرأى في التنكر للحق والحقيقة ما يطفيء نار حسده، ولقد أشرت في مقدمة الجزء الاول الى ذلك، وبلغت بك الرحمة لهذا الجاهل، وهذا الحاسد، فهتفت في مقدمة الجزء الثاني: بقول الرسول الكريم العظيم محمد (ص): ربّي اغفر لقومي فانهم لايعلمون.

سيبقى عملك هذا مثالاً على جهد الباحثين، ومناراً يهتدي به من يسلك سبيل العاملين المخلصين.

٢٥ تموز ١٩٧٩ عبد الكريم علي حسن

تقريظ المخبأ

قرأت المكزون بين الامارة والشعر والتصوف والفلسفة بجزأيه الاول والثاني ووقفت ـ أول ما وقفت عند المقدمة التي استعرضت فيها واقع الاسلام والمسلمين وما هم فيه من خلاف واختلاف، وما في أفكارنا من جمود وركود، وتورد الاسباب، وتقيم عليها الحجة والدليل، وتدعو الى تجاوز الاخطاء، والتغلب على المعوقات.

تتحدث في هذه الدراسة الموسعة الغنية عن المكزون وتاريخه وأدبه وأفكاره، وتجري المقارنة بينه وبين من سبقه من متصوفة الاسلام وفلاسفتهم، وأين يلتقي معهم، وأين يختلف، في السياسة، والزهد والشعر، والتصوف، والفقه، والرمز، والتوحيد، كما تستعرض التناسخ، والقول بالصفات، ووحدة الوجود، وآراء الفرق الاسلامية في هذه القضايا الفكرية والعقائدية.

ان هذا الكتاب بمثابة معرض عام لافكار وآراء ونظريات علماء الاسلام وغير الاسلام: نسقته فكرياً، وأبرزته بياناً يقنع الباحث العالم، ويشد اليه الاديب المتفوق.

ولا أغالي اذا قلت: أنك أنت الذي كشفت كل الكشف عن عظمة المكزون من جميع نواحيه، وأنصفته من التاريخ الذي أهمله، وكم أهمل التاريخ من أشخاص، وغمط من حقوق، وتجنى على حقيقة. ولم تنقصك الشجاعة في الحكم على من ولبي أمور المسلمين بغير حق، وقاد الامور في غير طريقها القويم.

لقد ظهر المكزون ـ وبحق ـ عملاقاً فكرياً، وفقيهاً، وشاعراً، وصوفاً من منظور اسلامي صحيح.

لقد قدمت لامتك في عملك هذا ما يثبت لها رسوخ القدم في الفكر، والثقافة، والعروبة والاسلام.

ان الكنوز المخبأة مرجع علمي، وأدبي وفكري نحن بأمس الحاجة اليه، ولم يكن بالامكان الحصول عليه قبل اخراج هذا الكنز من تراثنا الغني واننا لنتطلع بشوق ولهفة الى الاجزاء الباقية.

٥ أيلول ١٩٧٩

بدر سلمان حسن

الفهرس

مقدمة الأستاذ عبد المعين الملوحي ٥
ثورة على السلبيات.
د. محمد الحاج علي ١٤
نون المكزون. د. عمر موسى باشا ٢١
المقدمة ٢٥
مدخل ٣٥
مقدمة الجزء الأول ٤٠
مقدمة الجزء الثاني ٥٥
الإنسان والله ٥٨
الكتب المقدسة ٦٢
القواسم المشتركة بين الأديان ٦٦
التوراة والعلم ٦٩
التكوين السومري ٧٤
التكوين البابلي ٧٥
الأساطير الكنعانية ٧٦
التكوين الهندي ٧٦
الطوفان ٨٣-
الطوفان السومري ٨٤
الطوفان البابلي ٨٥
الطوفان التوراتي ٨٨
المقارنة بين السابق واللاحق ٩١
المفارقات ٩٤
إله التوراة ٩٨
الالهة في التاريخ ١٠١
الحضارة اليونانية ١٠٦
الفلاسفة اليونانيون ١٠٨
إله سقراط ١١٨
إله ابن سينا ١١٨
إله أفلاطون ١١٩
تدبير الكون عند ارسطو ١٢٠
إله الفارابي ١٢٤
العودة إلى المكزون ١٢٥
الفلسفة العربية ١٢٧
العرفان الصوفي عند ابن عربي والمكزون ١٣٩
الحوار والحجاج ١٤٥
القرآن والسنة في شعره ١٥١
الحديث في شعر المكزون ١٥٤
تدوين الحديث ١٥٦
وقفة عند التاريخ والحديث ١٦١
أقوال العلماء في الرواة الكذبة ١٧٢
اجتهادات وقواعد ١٧٣
الجماعة ١٧٨
تعريف الجماعة ١٧٩
الإجماع ١٨٨
العقل والنقل ٢٠٠
المكزون وعلم الكلام ٢٠٦
المنتظر والرجعة ٢١٤
التقية وأسبابها ٢٢١
آراء ودراسات ٢٢٣

الخطـأ والتصويب

الصفحة	السطر	الخطـــــأ	الصـــواب
١٠٧	٧	بـدوراً	بـذوراً
١٠٩	١٢	فلسفة	فلسفـ
١١٠	٢	صوة	صـــورة
١١٣	١٠	...	الوجـود
١١٤	٨	...	لم يجـر
١١٤	١٦	قيضة	فيض
١١٦	١٤	ابن	الأيـن
١١٧	٨	كـلا	كـل
١١٩	١	من أول الصفحة ١١٩ خمسة سطور محلهـا في الصفحة ١١٨ بعد السطر ١٦	
١٢٦	٦	سقطت لفظـة ((متمثلاً)) بقـول المكزون	
١٢٧	٤	...	وبعض
١٣٣	١٢	ماالموجـود	ماالموجـود
١٣٤	١	مستفاد	مستفاداً
١٣٤	١٦	لـه	تحذف لأنهـا زائدة
١٨٩	٣	و ..	وهي
١٩٠	١٣	أماجنـة	ماجنـة
١٩١	١١	ولـو	ولـوا
١٩٢	٢٥	(١)	(٢)
١٩٥	١٢	هـذا السطر محله بعد السطر ٩ في ص ١٩٤	
١٩٥	١٤	ب ...	بكســر
٢١٠	٨	وصه	غوصـه